

البَابُ الثَّانِي

دراسات في النص

- ١ - مادة الرسالة وأسلوبها .
- ٢ - المعالم الكبرى للنص .
 - مقدمة الغفران :
 - القسم الأول : الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر .
 - القسم الثاني : الرد على رسالة ابن القارح .

obbeikandi.com

١ - مادة الرسالة وأسلوبها

لا نعى بأسلوب الشاعر أو الكاتب طريقة العرض وصورة الأداء ، والوقوف عند الظواهر الخارجية والصيغة الشكلية ، متبعين ما فى صياغة « أبى العلاء » اللفظية من سجع أو جناس ، ومن تضمين أو اقتباس ، والإشارة إلى ما وصفوه به من ولع بالإلغاز وإيثار للغريب . وإنما الأسلوب جوهر عمل فنى كامل ، له مادته وصوره . وهذه الظواهر فى الصياغة اللفظية أصداء لعالم نفسى يموج بالأفكار والمعانى والهواجس ، وهذا هو ما لمح « عبد القاهر الجرجانى » من بعيد ، حين جاهد - فى دلائل الإعجاز - ليقدر أن المجاز والتشبيه والاستعارة ليست مسائل لفظية ، وإنما هى أحوال للمعنى يخرجها بها القائل . وموجز القول فيه أن اللفظ للمعنى فى النفس ، ومن ثم فى المادة والمعنى إيجاباً وترتيباً ، ثم فى اللفظ أداء وتصويراً .

مادة الغفران :

المعنى تُستمد من نبعين : التلقى الخارجى والتأمل الباطنى . ولا خلاف بين الدارسين على أن حظ « أبى العلاء » منهما قد كان وافراً خصباً سخياً . أما التلقى الخارجى ، فما أكثر ما تحدث المتحدثون عن ذكائه وثقافته ! ما أكثر ما رويوا من أعاجيب عن حفظه واطلاعه ! لقد اتهم الرجل فى دينه ، واتهم فى شاعريته ، واتهم فى فلسفته ، وأما ثقافته فلم يُتهم فيها قط .. بل لقد بلغ من إعجاب الناس - قديمهم والحديث - بحفظه واطلاعه وذكائه أن حكوا فى ذلك نواذر يتردد العقل فى قبولها ، ويردها إلى ما يرد إليه كثيراً من المناقب . وقد عقد العلامة « أحمد تيمور » فى كتابه عن « المعرى » ، فصلاً « فى مبلغ علمه وذكائه » جمع فيه بعض هذه النواذر ، واستهله بقوله : « اتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم ، غزير المادة فى الأدب ، إماماً فيه ، حاذقاً بالنحو والصرف ، نسيج وحده فى الذكاء والفهم وقوة الحافظة ، أما اللغة وحفظ شواهدا وتقييد أوأبدها فقد كان فيها أعجوبة من العجائب »^(١) .

والمستشرقون رأوا فى ذلك ما يوجب العجب ، جاء فى « دائرة المعارف الإسلامية » : « ويحق لنا أن ندهش من حافظته العجيبة التى مكنته - برغم ذلك النقص الخلقى - من أن

(١) أحمد تيمور : أبو العلاء المعرى ، ص ٢٢ ط مصر ١٩٤٠م

يظهر في مؤلفاته هذا التنوع، وتلك الدراية الواسعة بالعلوم، التي قل أن نجد لها نظيراً عند غيره».

والشهادة لأبي العلاء بالعلم والذكاء ليست موضع خلاف فيما نعلم، سوى أن فرداً واحداً هو « أبو العلاء » نفسه الذي استصغر من أمره ما أكبر الناس، وبالغ في ذلك إلى حد الغلو. كتب إليه « ابن القارح » في رسالته التي أُملي « أبو العلاء » الغفران رداً عليها، أن ذكر أبي العلاء جرى في مجلس، فقال قائل من أهل المجلس: « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه، وباللغة والعروض من الخليل. فقلتُ والمجلس يأذن: بلغني أنه - أدام الله تأييده - يُصَغَّرُ كبيره وَيُنَزَّرُ صغيره، فيصير تصغيره تكبيراً وتحقيره تكثيراً ... وما ثمَّ له حاجة دعت إلى هذا، قد تَفَتَّحَ النُّورُ، وَوَتَوَضَّحَ النُّورُ، وأضاء الصبح لذي عينين» (١).

فأملي أبو العلاء في « الغفران » رداً على تقرُّظ « ابن القارح » لعلمه :
« واحلف »

« إني لمكذوب عليه كما كذبت العرب على الغول، وإنما عمماً يوثر لفي شُغول، وكما تقولت الأمثال السائرة على الضب، وله بالكَلْدَة إرباب الصب، وكما تكلمتُ على لسان الضبع وهي خرساء، ما أطلق لسانها الوضحُ ولا المساء. يُظنُّ أنني من أهل العلم، وما أنا له بالصاحب ولا الخلم، وتلك لعمري بلية، تفتقدُ معها الجليلة، والعلوم تفتقر إلى مراس، ودارسٍ للكتب أحيى دِرَّاس » - ٣٨٩ - ٣٩٠ .

وقال في (رسالة الملائكة): (وَحَقٌّ لِمَثَلِي أَلَّا يُسْأَلَ ، فَإِنْ سُئِلَ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ أَلَّا يَجِيبُ ؛ فَإِنْ أَجَابَ فَفَرَضَ عَلَى السَّامِعِ أَلَّا يَسْمَعَ مِنْهُ ، فَإِنْ خَالَفَ بِاسْتِمَاعِهِ فَفَرِيضَةُ أَلَّا يَكْتُبَ مَا يَقُولُ ، فَإِنْ كَتَبَهُ فَوَاجِبُ أَلَّا يَنْظُرَ فِيهِ . فَإِنْ نَظَرَ فِيهِ فَقَدْ خَبِطَ فِي عَشْوَاءِ) (٢) .
وأملي مثل ذلك في رسالته مع « داعي الدعاة »، وفي رسالته إلى « أبي نصر بن يوسف » (٣) .

لكنه تواضع لا يُخفي ما وراءه من يقين « أبي العلاء » بتفوقه، وقد حرص ما عاش على أن يبهز الناس بعلمه، ويعرض عليهم ثروته اللغوية النادرة، وغير مستغرب من مثل ابن القارح، أن يرى هذا التواضع كان سبباً من سبيل الشهرة وأداة من أدوات الإعلان، وفي هذا يقول في رسالته: (بلغني أنه - أدام الله تأييده - يُصَغَّرُ كبيره، وَيُنَزَّرُ صغيره، فيصير تصغيره تكبيراً وتحقيره تكثيراً) (٤) .

* * *

(١) رسالة ابن القارح: ص ٢٦ - مع رسالة الغفران. ط ذخائر.

(٢) رسالة الملائكة: ص ٥ - ط المجمع العلمي بدمشق.

(٣) رسائل أبي العلاء. ص ٥٩ - ط أكسفورد.

(٤) رسالة ابن القارح. ص ٢٦ - مع رسالة الغفران. ط ذخائر.

وإذا كان الكلام عن علمه وذكائه ، وعن ثقافته واطلاعه ، يمكن أن يقال في أكثر الآثار العلامة الممتازة ، فإن لرسالة الغفران علينا أن نؤثرها بعناية خاصة ، فنشير إلى ما تحمل من آثار هذه الشخصية المتميزة بغناها اللغوي النادر واطلاعها الواسع على الثقافة العربية ، في العقائد والفكر والآداب .

وهي آثار ندع الحديث المفصل عنها إلى مكانه من « المعالم الكبرى للنص » ، حيث نشهد كيف صاغ أبو العلاء عالمه الآخر ، ببراعة وأصالة من مادة خصبة وافرة ، جمعها من علمه بالقرآن ، والحديث ، والأدب ، والأساطير ، كما يكشف لنا الفصل الخاص بالزندقة ، عن مبلغ إحصائه بالملل والنحل التي ماج بها العالم الإسلامي ، ووعيه لأخبار أصحابها وآثارهم . ثم يأتي فصل « اللغة والأدب ، في الغفران » فيلفت إلى ما في الرسالة من فقه أبي العلاء اللغوي وذخيرته من علوم العربية : نحوًا وصرفًا وعروضًا واشتقاقًا ، ورواية وأدبًا ونقدًا وتاريخًا .

* * *

وأما عن نصيب « أبي العلاء » من التأمل الباطني ، فموجز القول فيه أن « أبا العلاء » قد مارس التأمل من عهد مبكر ، فمنذ أطبق جفنيه وكفَّ عن النظر إلى العالم الخارجي ، انطوى على نفسه وبدأ يمارس عملية التأمل .

على أنه في الشطر الأول من حياته ، شغل عنها بالدرس والتحصيل ، ثم لم يعف نفسه من الكفاح في الدنيا ، ولم يُرحها من متاعب النضال في سبيل أمجاد الحياة ، وخرج إلى قلب الميدان راجيًا ، مؤملًا ، وشغله هذا الخروج المناضل عن التأمل الطويل العميق ، وانصرف به عن عالمه الخاص ، إلى العالم الخارجي الهائج المائج ، الصاحب المضطرب ، حين ألقى به في زحمة الناس . على أنه لم يكد ينسحب من الميدان ويثوب إلى منزله حزينا يائسًا مهمومًا ، حتى انصرف إلى مطالعته وتأملاته ، لا يصرفه عنها صارف من مشاغل الدنيا وشواغل العيش ، ومن هنا حملت آثاره في هذا الشطر الثاني من شطري حياته ، سمات عالمه النفسي بكل ما فيه من هموم وهواجس ، وكان حظها من التأمل أقوى وأعمق من تلك التي أملاها في زمانه الأول . ولعل هذا هو ما تحت إليه « دائرة المعارف الإسلامية » من بعيد حين قالت : « إن مؤلفات الطوراء الثاني من حياته هي التي ظهرت فيها موهبته الفريدة » .

و (رسالة الغفران) من الآثار العلائية التي استطعنا معرفة تاريخها ، وقد كُتبت يقين في هذا الشطر الثاني . بعد أن أمضى الأعوام الطوال عاكفًا على ذاته ، راصدًا خواطره وهواجسه ، ساجدًا في أحلامه ورواه ، وهي بذلك تحمل طابع التأمل ، وإن كان نكر العصر يلحق الشيخ فيقطع تأملاته .

وما نحتاج هنا إلى شاهدٍ لحظ « الغفران » من التأمل ، فحسبنا أن رحلته الذهنية الوجدانية إلى الآخرة ، انصرف تام عن عالمنا ، إلى عالم تمثله ومثله ، فلم يكذب يفتح « الرسالة » حتى انصرف عمًا هو فيه من الرد على رسالة ابن القارح ، وترك خياله يشخص له عالمًا خاصًا ، من المواد التي اختارها من ثقافته الواسعة .

فإذا ذكرنا إلى جانب ما أشرنا إليه من وفرة حظ « أبي العلاء » من الاطلاع والتأمل ، وما نعرفه من ظروف (الرسالة) وصاحبها ، من حيث إخلاصه لفنه وحرية في تفكيره ، قدرنا ما توافر لمادة العمل الفني في (الغفران) من عناصر الغنى والخصب ، مما لا يكون مثله إلا من أديب أنضجته الزمن ، وقرت حياته على الوضع الذي عرفناه من حياة « أبي العلاء » في عنفوان مجده الأدبي ، وطلائع شيخوخته ، وصميم عزته .

وسترى في رسمه للجنة والنار ، كيف عاش في عالمه الأدبي ملء حريته ، لا يعوزه فيه تزلف إلى ملك أو تقرب إلى حاكم ، وكيف أسأقت عن نفسه حُجب المداراة ، فمضى يتحدث عنها في صراحة مؤثرة ، ويكشف عنها في إخلاص نادر ، ويصور رؤاه في تقنن مشير .
هذه هي مادة « الغفران » ، فلنسجل بعد هذا ملاحظتنا على معانيها وأخيلتها ، ولننظر فيما تحمل من سمات مميزة .

أما المعاني فالذي يعيننا هنا - بعد إذ فرغنا من الحديث عن وفرتها وغناها - هو النظر في مدى حرص « أبي العلاء » على سلامة معانيه ووضوحها . وهنا تلقانا :

دعوى الغموض في الغفران :

وهي دعوى راجت وشاعت هنا في الشرق ، وهناك في الغرب .
قال « البستاني » : « ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية فيها ، ينحطان بها عن درجة أمثالها من ملاحم العجم »^(١)

وردد مثل هذا الكلام جمهور المتأدبين عندنا ، وهم في الغالب يرجعون إلى عبارة للأستاذ العميد « الدكتور طه حسين » - في مقدمته لطبعة كيلاني للغفران - يقول فيها مدافعًا عن « رسالة الغفران » في غموضها وعن « أبي العلاء » في إغرابه : (إنه كان يتكلف الغريب ليصد عامة الناس وجهاهم عن قراءته والظهور على ما فيه ، وكأنه لا يكتب لعصره ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ، ويحولوا بيننا وبين فهمها ، وكأنه إنما أقام الغريب طلاسماً وأرصاداً شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا إليه) .
والشاعر « عباس إقبال » قد ذهب إلى مثل هذا حين قال مشيرًا إلى ما عانى « أبو العلاء » من معاصريه :

(١) مقدمة الإلياذة ، ص ١٧٥ .

(فتعب منهم وتآلم من مجتمعهم واحتقرهم ، فانزوى في محبسه يعيش عيشة نسك وانزواء ويعبر عن آرائه بالفاظ غامضة وأسلوب مبهم . كل ذلك بتعمدٍ منه لئلا يطلع على مذهبه وأفكاره من ليس نه أهلاً^(١)).

والمستشرقون قد شكوا من هذا الغموض ، واعترف « نيكلسون » أنه حين قرأ (رسالة الغفران) بدا له قدر كبير منها ، مبهوساً منه تقريباً^(٢) وصرح « الفريد غليوم » . بما يتعرض له المستشرق من عناء وجهد « لبعده عن أسلوب هذا الأديب الغريب »^(٣) .

فما هذا الإغراب الذى أكثروا القول فيه ، وذكروا معه الطلاسم والأرصاء والألغاز ؟ لعل الأستاذ «الدكتور طه حسين» لم يقصد بالإغراب ذلك المعنى المحدود الذى فهمه منه هؤلاء ، وإنما قصد إلى مثل ما عناه «داعى الدعاة» حين توسل إلى الشيخ أن يعفيه «من قصد الأسجاع ولزوم ما لا يلزم ، فإن مُتَمَسِّبٍ فيه المعانى لا الألفاظ»^(٤) . وعاد في الرسالة التالية يفسر هذا قائلاً : (وأما الأسجاع ومسألة التخلي عنها ، فما كانت إلا شحاً بالمعاني أن نضل بتبعها).

أقول : لعل هذا هو ما قصد إليه « الأستاذ الدكتور طه » ، كما يوضحه قوله في غير ذلك الموضوع : « كان يلقي بينه وبين القارئ أستاراً صفيقة من غريب اللفظ ، وحجياً كثيفة من ثقل السجع ، ويقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية »^(٥) .

ومع هذا ، فإن نغمة الإغراب تبدو شاذة إذا ذكرنا أمرين :

الأول : أن « أبا العلاء » شاعر وجد نفسه ، وقد جهر بكل ما يعتقد ، وهاجم من لم يرض عنهم من أصحاب المذاهب والملل والنحل ، ومن الملوك والحكام ، فلا حاجة به بعد إلى أن يقيم الطلاسم والأرصاء ليخفى نفساً كشفها هو وعراها بيديه ، وأظهرها مجردة عن كل رياء ومداراة ، وأستاذنا « الدكتور طه » قد قرر منذ أكثر من ربع قرن ، أن أبا العلاء « هو أظهر الكتاب المسلمين شخصية ، وأوضحهم عاطفة في نثره ، ذلك لأنه لم يستطع أن يكون منافقاً »^(٦) .

وأنتمى إلى مدرسة قد اطمأنت إلى هذا وفرغت من تقريره والاجتماع له ، ولها في ذلك بحوث ودراسات ، يجدها من يلتمسها ، فلا حاجة بنا إلى العود إلى ذاك بعد أن صار عندنا أمراً مقررًا^(٧) . والحياة الإنسانية

(١) المهرجان الألفى لأبي العلاء ، ص ٣٣٦ .

(٢) J. R. A. S. 1902'P. 7.

(٣) المهرجان الألفى ص ١١٧ .

(٤) انظر الرسالة الثالثة - معجم ياقوت ، ج ٣ أ ١٩٤ - دار المأمون .

(٥) تجديد ذكرى أبي العلاء ، ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٦) ص ٢٢٣ (تجديد ذكرى أبي العلاء) .

(٧) منها (رأى فى أبى العلاء) لأستاذنا أمين الخولى ، (والحياة الإنسانية عند أبى العلاء) للدارسة .

الثانى : أن « أبا العلاء » قد فسر كل ما غمض من ألفاظه ، وعنى بذلك حتى كان يضحى فى سبيله بالجمال الفنى ووحدة السياق ، ولو رجعت إلى ثبت مؤلفاته لوجدته يتبع الكتاب من كتبه بشرح له مفرد ، ويفسر غريبه ، ويبين غامضه ، ويكشف مغلقه . وقد يكتفى فى ذلك بكتاب واحد ، كشرح « خطبة الفصح » وتفسير « الهمة والردف » و « خدام الرسائل » - وسماه « القفطى » خادمة الرسائل وفيه تفسير ما تضمنته رسائله من الغريب - وشرح « الرسالة الإغريقية » ، « وبتار » « القائف » ، وضوء « السقط » . وقد يزيد فيضع كتابين أو أكثر كما فعل فى :

« الفصول والغايات » فسر به « إقليد الغايات » و « السادن » .
 « اللزومات » أتبعها أربعة كتب : زجر النَّابِج ، وبحر الزجر ، والراحلة ، وراحة اللزوم .
 وسنرى فى حديثنا عن ظاهرة الشروح المعارضة ، أنها شائعة فى أسلوبه ، فهو فى « الفصول والغايات » يتبع كل فصل بتفسير له قبل الرجوع ، وهو فى « الرسائل » يشرح الغامض ويبين الغريب ، فى ثنايا الحديث ، ولو عبث بالنظم وأقلق السياق .
 وتراه فى « كتاب الألباز » - الذى نقل « البديعى » قطعة منه فى « أوج التحرى » - يلغز عن الشيء ثم يحل اللغز على هذا النحو :

أتى الأربعاء القوم فى يوم جمعة وسبَّتهم وافاهمُ بخميسٍ
 ومن لا يبخنه عمره تلق نفسه ضروبَ نعيم فى الزمان وبوسٍ
 قال شارحاً : « الأربعاء هاهنا : جمع ربيع ، وهو النهر الصغير ، ألغز عن اليوم ، وسبَّتهم : إن شئت كان يوم السبت وافاهم فيه خميس ، وهو الجيش وإن شئت كان السبت هاهنا ضرباً من السير ، ويكون الخميس يوماً ، أو جيشاً ، أو ثوباً » .
 وقال :

« ولايسة فى قيظها ألف حلة وأكثر ، لم تحفل بحسن لباس
 ولا خشيت قرأ ولا من ظهيرة هجيراً ولا استحيت عيون الناس
 وكم عندها عارٍ يود لوانه بطمرين من شر المطرز كاسٍ

هذه الكعبة ، والمعوز الثياب : الأخلاق » (١) .

كذلك تراه فى مقدمة « الغفران » يلغز عن حرقة القلب بالحماطة ، وعن القلب نفسه بالخضب ، والأسود ، لكنه لا يدع إغازه يمر دون أن يحله ويفسره فى صبر وأناة ، قبل أن يستأنف الإملاء للرسالة . المعهد
 وليس هذا بصنيع من يعمد إلى التعمية والتجهيل ، ويقيم الطلاسم والأرصاء .

(١) البديعى : أوج التحرى ، ص ٦ - ط المعهد الفرنسى بدمشق .

فمن أين جاءت دعوى الإغراب والغموض مع هذا الذى رأينا من إصرار « أبى العلاء » على تفسير غريبه وشرح غامضه وفك ألغازه ؟ وذاك الذى عرفناه من صراحته ؟
مرّدٌ هذا عندنا إلى ثلاثة أمور :

الأول : أن المفهوم من الإلغاز والإغراب لم يُحرر فى فهم المتأدين من المحدثين ، سمعوا أن للشيخ ديواناً فى « الألغاز »^(١) وقد قال « ياقوت » : إنه ألف « جامع الأوزان » على معنى اللغز ، وقرأوا ما قاله « ابن سنان الخفاجى » عمّا كان من ولع الشيخ باللغز^(٢) ؛ فظنوا به الغموض والقصد إلى التعمية والتجهيل ، ولكن الواقع أن « أبى العلاء » لم يلغز إغراباً وتعمية ، وإنما كان يصطنع الغريب للتفاح ، وإظهار المقدرة ، وقد كلفَ بالألغاز من حيث هى فن من فنون البديع ، وهذا هو المفهوم من حديث « ابن سنان الخفاجى » عن ألغاز شيخه ، فلم يصفه بالغموض ، وإنما قال : « وقد كان شيخنا أبو العلاء يستحسن هذا الفن ويستعمله فى شعره كثيراً .. » .

فليس الإلغاز ها هنا إغراباً وتعمية « وإنما هو مذهب مفرد ، وطريقة أخرى »^(٣) .

وقد تحدث « ابن حجة الحموى » فى « الخزنة » عن فن الألغاز بين فنون البديع ، ونقل لغزاً « لأبى العلاء » ، فيما نقل من شواهد هذا الفن وأمثله^(٤) .

الأمر الثانى : أن الغرابة نسبية حتى فى الزمن الواحد والمكان الواحد ، فما يجده طالب كلية العلوم فى الجامعة مثلاً غريباً مبهماً ، قد يراه زميله فى كلية الآداب واضحاً مفهوماً . فالحكم اليوم بالغرابة على نص من القرن الخامس يجب أن يلقى منا كل حذر واحتياط ، فبيننا وبينه قرون تسعة ، جدّت فيها أحداث على اللغة بمفرداتها وأساليبها ، وحدثت تطورات يعرفها عامة المتأدين ، ولا أقول الخاصة منهم ، فالذى يراه قارئ « الغفران » اليوم - ممن لم يفرغ لها أو يتخصص فيها ، أو ممن يجهل روح أسلوبها كالمستشرقين - غامضاً أو مغلقاً ، لا يراه كذلك الذين درسوا « الغفران » ، أو الذين عاصروا أبى العلاء وعرفوا أسلوبه وأسلوب عصره .

ويقال مثل ذلك فى اختلاف مستوى الثقافة فى العصر الواحد ، فما من شك فى أن من معاصرى « أبى العلاء » من لم يفهمه ، بدليل ما نقله « الخفاجى » فى « سر الفصاحة » من أن كثيراً من الأدباء لم يفهموا كلام الشيخ^(٥) ، مع حرص « أبى العلاء » على الشرح والتفسير ،

(١) البديعى : أوج التحرى ، ص ١٠٦ - ط المعهد الفرنسى بلعشق .

(٢) الخفاجى : سر الفصاحة : ٢١٥ ، ٢١٦ - ط الرحمانية سنة ١٣٥٠ .

(٣) الحموى : خزنة الأدب ، ص ٣٩٣ - ط الخيرية ١٣٠٤ هـ .

(٤) ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة ٦٧ .

(٥) المهرجان الألقى لأبى العلاء .

« تيسيراً على المبتدئين في الأدب » ، كما جاء في « خادم الرسائل » ، وحشية « أن يقرأ ناشئ لم يبلغه ذلك » ، وخوفاً « من وقوع الرسالة في يد غلام مترعرع ، ليس إلى الفهم بمتسرع ، فتستعجم عليه اللفظة » كنص عبارته في رسالة الغفران .

الأمر الثالث : مما نرد إليه دعوى الغرابة والغموض ؛ أن نص « الغفران » لم يُقرأ حتى أمس القريب ، لسبب واضح بين ، هو أنه لم يُحقق ، والذي كان منه في مكباتنا وأسواقنا ، إما مشوه محرف وإما ناقص مبتور ، وهذا النقص وذلك التشويه مسئولان - مع غياب رسالة ابن القارح عن قارئى الغفران - عن التواء بعض العبارات في « الغفران » وغموض الكلام ، مما كان مصدراً لكثير من هذه الأحكام التي حُكم بها على غرابة الرسالة ، وإغلاق عباراتها ، وتجهيل معالمها ، وولع صاحبها بالغريب واللغز ، مما أكثر فيه المحدثون - من شرقيين وغربيين - وأبعد منهم مبعده من أدباء سوريا ، فذكر حساب الجُمَّل ، راجياً أن نجد فيه حلاً لرموز أبي العلاء !

* * *

ويبقى لنا ، بعد مناقشة ما قيل عن غموض الغفران ، ملحظان يتصلان بصحة معانيها :
الأول : أنه كان حريصاً فيما يُنطق به الجاهليين والمتقدمين ، على أن يُجرى على ألسنتهم ما يجوز أن يصدر من أمثالهم . فإذا أراد أن يشركهم في حوار لغوي لا عهد لهم بمثله ، احتاط لذلك ، كما فعل مع « ابن الأحمر » حين أراد أن يناقش أقوال اللغويين في تصريف زبرجد ؛ وفي هذه الأقوال مصطلحات متأخرة لم يسمع ابن الأحمر بها قط ، ومن ثم قال « أبو العلاء » : فيلهم الله القادر « ابن الأحمر » علم التصريف ليُرى الشيخ برهان القدرة ٢٤٥ (١) .

لكننا نراه في مواقف أخرى ، يغفل مثل ذلك الاحتياط ، فيبدو الحديث مستغرباً مستبعداً ، كذلك الذي سمعناه من « امرئ القيس » وهو يردد مثل هذه العبارات :
« وإذا فعلوا ذلك فأى فرق يقع بين النظم والنثر؟ وإنما ذلك شيء فَعَلَهُ مَنْ لا غريزة له في مَعْرِفَةِ وَزَنِ القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم » ٣١٤ .
« والتخفيف أحبُّ إليّ ، وإنما حملهم على التشديد كراهة الزحاف وليس عندنا بمكروه » ٣١٥ .

« أما أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف » لك منهن صالح ، « وأما المعلمون في الإسلام فغيروه على حسب ما يريدون » ٣١٨ .

« وإنه لقرى لم أسلكه .. وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام .. » ٣١٩ .

« والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز » ٣٢٠ .

(١) الأرقام المذكورة إثر النصوص هنا ، تشير إلى موضعها في «رسالة الغفران» تحقيق الدارسة ط ثامنة ذخائر

« لا نكرّة عندنا في الإقواء » ٣٢٠ .

وهذا ومثله ، مما لا يصدر عن شاعر جاهلي « كامرئ القيس » ، سبق عهد المصطلحات العروضية بزمان . وقد كان المعنى يسلم « لأبي العلاء » لو أنه احتاط بمثل ما احتاط به في حديث « ابن أحمر » عن التصريف .

هل نقول : إن اندماج أبي العلاء في عالمه الآخر ، هو الذي أنساه مثل ذلك الاحتياط ، وأن تقمصه لشخصية امرئ القيس هنا ، بلغ من القوة بحيث شغله عن الانتباه الواعي ، إلى أن يُفَرَّق بين ما يصدر عن رأي له ، وبين ما يجوز أن يجرى به لسان امرئ القيس ؟

أو لعله أجرى عباراته على المصطلح المؤلف ، قصدًا إلى الإيضاح والبيان لما يعرض له من مسائل لغوية وعروضية ؟ كلا الأمرين جائز ومحمّل .

* * *

الملحظ الثاني : أن « أبا العلاء » حين يتصدى للحكم في قضايا أدبية ، يبدو لنا متزن الرأي ، ناضج الفكرة ، سليم المنهج .

انظر حكمه على دالية طرفة : ٣٣٨ .

وميمية المرقش : ٣٥٧ .

والتسمييط المنسوب لامرئ القيس : ٣١٨ .

لكنه إذا انصرف إلى صناعته اللفظية ، وعبثه بالجمل والكلمات ، شغله ذلك عن العناية بصحة المعنى ، وسلامة الفكرة ، وصدرت عنه مبالغات لا يسيغها الذوق ولا يقبلها المنطق .

مثل تعقيبه على ميمية النابغة الجعدى : ٢٢١ .

وحديثه عن شعر البشر ، على لسان الجنى الذى يبدأ قائلًا : « وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض ؟ وإنما لهم خمسة عشر جنسًا من الموزون قلّ ما يعدوها القائلون ، وإن لنا لآلاف أوزان ما سمع بها الإنس .. » : ٢٩١ .

ثم يمضى فى مبالغاته حتى يبعد ..

وقوله فيما وُصِفَ به من العلم والدين : « وكيف يُدعى للعلج الوحشى - وإنما أبد في الروض الحبشى - أن تغريده فى السحر أشعارٌ موزونة ، تأذن لتظيرها المخزونة ؟ وهل يُصور لعاقل لييب أن الغراب الناعب صدح بتشييب ، وأن العصافير الطائرة بأجنحة ، كعصافير المنذر الكائنة للتمنحة ؟ .. فبُعد من زعم أن الحجر متكلم ، وأنه عند الضرب متألم » : ٣٩٠ .

ومثل هذه المبالغات فى « الغفران » كثير ، مما ترى فيه عدم اكتراث « أبى العلاء » بصحة

المعنى فى سبيل إقامة سجعته راقته ، أو تسجيل خيال سنحت له . مما هو صدى للنكر الذى
حاق بالحياة الأدبية فى عصره .

* * *

الخيال :

وأنتقل إلى الحديث عن الخيال فى « الغفران » ، وفينا من ^(١) ينكر أن يكون (لرسالة الغفران)
أى حظ من الخيال .

فلفل الخيال عند هؤلاء لا يكون إلا فى اختراع صور لا وجود لها إلا فى هذيان الخيال
وأوهام السراب بعيداً عن ملهفات الرؤى ، ومطوى الهواجس والموم ، فى العرض الجديد
المتخيل ، لصور قديمة معروفة ، والتأليف المبتكر ، لمواد موجودة معهودة .
و « أبو العلاء » - فى رحلته إلى العالم الآخر - يؤلف من الأخبار الشائعة صورة فريدة ،
متميزة بسمات خاصة بها .

أن يكون العرب قد تحدثوا فى أساطيرهم وأشعارهم ، وعقائدهم ، عن الجنة والنار ، فهذا
ما لا ريب فيه ، ولم يكن « أبو العلاء » نفسه بحيث ينكره ، فهو حريص على رد أخيلته إلى
أصولها الأولى من الشعر القديم والقرآن الكريم .

يفعل ذلك فى « الغفران » وفى غير « الغفران » ، لكن لخيال « المعرى » بعد
ذلك أسلوبه الفذ فى تأليف الصورة الجديدة من المواد القديمة ، وطريقته المبتدعة فى
عرض هذه الأخبار والأقوال ، فى ذلك القلب الخيالى الذى يشخص المعانى ويحجم
الصور . وسوف نعرض لظاهرة « التشخيص والتمثيل » بمزيد بيان .
على حين رأى « الأستاذ الشريقى » من آيات المعرى « اصطناع الأسلوب القصصى
التعليمى الفكه محمولاً على الخيال المبدع ، والسخرية اللاذعة ، والاستقصاء الأدبى الجامع ،
وهو أسلوبه ، فى رسالة الغفران » ^(٢) .

وكتب « نيكلسون

“It is a delightful Creation of Fancy, a trifle Pedantic but witty audacious and

Original”^(٣)

* * *

(١) انظر « الغفران » - للمرحوم الأستاذ كامل كيلانى ، ص ٦٦٦ ط ٣ ، وأطلق الشاعر التونسي أبو القاسم
الشابى الحكم يعقّم (الخيال الشعرى عند العرب) أجمع ، لم يستثن !
(٢) المهرجان الألفى لأبى العلاء ، ص ٢٢٠ .

(٣) J.R.A.S. 1902, P. 78.

الفكاهة والسخرية :

بقيت كلمة نقولها عمّا يسود حديث أبي العلاء في الغفران ، من حس الفكاهة والسخرية . وقد سماه المتقدمون استخفافاً - « الذهبي » - وسماه المحدثون تهكمًا وسخرية ، قال « آدم منز » : « ورسالة الغفران يتجلى فيها التهكم الخفى على أتمه »^(١) .

ولا أنكر أن حس السخرية في رسالة الغفران ، يكاد يكون من خصائصها المميزة ، غير أننا نرى من الخطأ الفادح ، توجيه هذه السخرية إلى العقيدة الدينية الإسلامية عن العالم الآخر ، كما فهم عدد من النقاد قدامى ومحدثين^(٢) . فأبو العلاء - فيما أوقن - لم يقصد إلى شيء من هذا قط ؛ وإنما كانت سخريته كلها بابن القارح ، قصدًا وعمدًا .

وإن تكن السخرية بابن القارح في عالمه الآخر ، تكاد تختفى وراء استغراق أبي العلاء في تصوير رؤياه لذلك العالم ، فلا نلمح منها إلا الدعابة اللطيفة والفكاهة الحلوة ، في ثنايا مشاهد الملذات المادية التي تفتن في حشدها لابن القارح ، لأنها التي ترضيه وتمتعه .

(انظر مثلاً مشهد الحورية المعدة لابن القارح في الجنة ، ص ٢٨٨ ، ومشهد دارة جلجل ، ص ٣٧٢ ، ومشهد نشوته من الخمر ص ٣٧٨)^(٣) .

وكذلك في الخصومات العنيفة الحادة التي شبها أبو العلاء بين الشعراء ص ٢٧٧ ، ٢٥٤ ، أو بين اللغويين في مأدبة ابن القارح بالفردوس ص ٢٨٠ ، أو مع الرجّاز ص ٣٧٤ .

بل إن دعابة أبي العلاء هنا على لطفها وملاحظتها ، لا تخفى ما يطوى في أعماقه من مرارة وتعب .

على حين تبدو السخرية بابن القارح لاذعة مثيرة في القسم الثاني من رسالة الغفران ، ولا صلة له بهذا العالم الآخر الذي شخصه في الفصل الأول ، وحُمِل على السخرية بجنة المسلمين .

ويحسبك أن تقرأ مثلاً ، ما أملاه أبو العلاء تعليقاً على توبة ابن القارح (ص ٥١٧) وحججه الخمس (ص ٥٣٤) ودنانيره المسروقات (ص ٥٥٩) .

حسبك أن تقرأ هذا ومثله ، لترى إلى أى مدى كان أبو العلاء لاذع السخرية بابن القارح ، بعد أن فرغ تمامًا من رحلته به إلى الفردوس والجحيم ، وأسدل الستار على مسرحه للعالم الآخر ، وعكف على إملاء رده على ما جاء في الرسالة التي تلقاها .

* * *

(١) الحضارة الإسلامية : ١١٢/٢ من الترجمة العربية للأستاذ حمزة طاهر .

(٢) انظر إلى الفصل الخاص بالزندقة ، في هذا البحث .

(٣) الأرقام تشير إلى صفحات رسالة الغفران ط ثمانية ذخائر .

نظم الغفران :

وحين ننظر في ترتيب « أبي العلاء » لمعانيه ونظمه مادة الغفران ، نجد الأمر هنا يشق ويعسر ، إذ تلقانا أقاويل شتى قيلت عن :

اضطراب سياق الغفران :

ويكاد مَن قرأت لهم من المستشرقين يجمعون على ذلك . ولهم عليها أحكام صارمة : لاحظ نيكلسون : « أن أفكاره شتيت غير منسق ، احتواها نظم معقد لا يخلو من تناقض »^(١) . وما أكثر ما تحدث عن غموض (الغفران) واضطرابها في المقدمة التي قدم بها النص لمجلة الجمعية الآسيوية الملكية .

وقضى « آدم ميتز » في كتابه الحضارة الإسلامية^(٢) بأنها « رديئة التأليف » ، ولعل المستشرق الهولندي « دى بور » كان يعينها بقوله : « ويكاد أبو العلاء يكون خلواً من كل مقدرة على ربط الأشياء بعضها ببعض ، لقد كانت له مقدرة على التحليل ، أما التركيب فليس له منه نصيب .. وتعاليم أبي العلاء عقيمة ، وعلمه كشجرة أصلها في الهواء »^(٣) .

ولقد يحمل مثل هذا الإجماع ، أو ما يشبه الإجماع ، من المستشرقين على إنكار أسلوب « أبي العلاء » ، على الظن بتعاملهم عليه ، لكننا نجد من تقديرهم له واهتمامهم برسائله ، ما يجعلنا نتردد في حمل أحكامهم على أسلوبه على محمل التجنى والتحامل ، فمن بين المستشرقين من شادوا بذكر جرأته الأدبية وعبقريته وامتيازه "Rieske" ، ومنهم من قدر شعره وتحدث عن فلسفته بعطف "VonHammer"^(٤) . ومنهم من جعل له مكاناً بين الأخلاقيين "Von Kremer" ، فما تعليل اتهامهم أسلوب رسالة الغفران بالاضطراب وأفكارها بالتشتت ، ونظمها بالتعقيد ؟

الواقع أن من معاني « الغفران » ، المرتب المطمئن ، ومنه - وبخاصة في القسم الثاني - ما يعوزه في الظاهر توثيق السرد وإحكام النسيج ، واطمئنان السياق ، فأتت تخرج من موضوع إلى موضوع لا يبدو متصلاً به ، وذلك شائع في القسم الثاني بوجه عام ، لا تكاد تخطئه في انتقال واحد من انتقالاته ، بعكس ما تراه في القسم الأول ، حيث تمضى في الرحلة آمناً أو شبه آمن ، من تعثر السياق ، إلا ما يلقاك من استطراد قد يجور على النظم .

وكاتب القسمين واحد ، لاشك في ذلك ، وظروفهما متماثلة أو متقاربة ، لكن هناك عنصراً أجنبياً ، هو المسئول عمماً يبدو في ترتيب أفكار القسم الثاني من تعثر واضطراب وخلل ، والمسئول كذلك عن ارتياب نقاده ، في تعلقه في القسم الثاني بذكر الزنادقة والملحدين .

(١) J.R.A.S. 1902. P. 89.

(٢) الحضارة الإسلامية ، ١١٢/٢ . من الترجمة العربية - د . أبو ريده .

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص ٨٧ من الترجمة العربية .

(٤) R..A. Nicholson: A Litterary History of the Arabs. ed. London 1943.

ذلك العنصر الأجنبي هو « رسالة ابن القارح » .

وبيان ذلك أن هذا الأديب الحلبي ، تناول في رسالته إلى « أبي العلاء » موضوعات شتى ، وتنقل بين عوالم كثيرة ، وأشار إلى أشخاص وأماكن ، واستشهد بأبيات من الشعر وأمثال من النثر ، ولست الآن بصدد الحكم على أسلوب رسالته من حيث الترتيب وسلامة الانتقال ، بل أنبه على أن « أبا العلاء » في القسم الثاني كان يجيب عن هذه الرسالة جزءاً جزءاً ، ويتبعها فقرة بعد فقرة ، وهذا هو الرابطة التي كانت تربط بين أقواله في القسم الثاني من الغفران ، حيث الرّد على رسالة ابن القارح .

ويستطيع القارئ أن يقيم نص الغفران مطمئناً ما بقيت أمامه « رسالة ابن القارح »^(١) يتابعها مقابلة على « الغفران » ، فإذا غابت الأولى ، تعثر نص الغفران ، وتشتت القول ، واضطرب النظم ، وكان ما سماه المستشرقون « رداءة التأليف » ، وتشتت الأفكار ، وفقد المقدرة على ربط الأشياء بعضها ببعض .

* * *

ونحن نقرأ رسالة « الغفران » في قسميها ، فلا نشكو أي مظهر من التشتت والتعثر ، بل نرد كل مسألة من المسائل المتناثرة في القسم الثاني ، إلى أصل بعينه من « رسالة ابن القارح » ونذكر لِمَ تحدث أبو العلاء عن هذا الشخص أو ذاك ؟ ولم جاء بهذا البيت من الشعر هنا ، أو ذاك المثل هناك ؟ ولم تنتقل إلى الحديث عن تلك المسألة أو أشار إلى هذا الشاهد ؟ دون أن يربطه برابط مع ما قبله .

وأما المستشرقون - ومن تابعهم من الدارسين العرب - فشك عليهم فهم القسم الثاني من « رسالة الغفران » .

والسبب قريب واضح ، هو أنهم - جميعاً فيما أعلم ، والله أعلم - لم يقرءوا رسالة « ابن القارح » مفتاح فهم الغفران !

كثرة منهم كان مرجعهم الأول لرسالة الغفران ، هذه الأجزاء الناقصة التي نشرها منها ، المستشرق « نيكلسون » ، في « مجلة الجمعية الآسيوية » تباعاً بين عامي ١٩٠٠م ، ١٩٠٣م ، بهذا صرح « آدم ميتز » في « الحضارة الإسلامية » و « أسين بلاسيوس » في « الإسلام والكوميديا الإلهية ».

و « نيكلسون » لم يكن يعرف من « ابن القارح » هذا ، بل ذهب إلى أنه قد يكون « أبا منصور الديلمي الذي يعرف بأبي الحسن علي بن منصور - وهو شاعر كان أبوه في خدمة سيف الدولة »^(٢) !

(١) تجد نصها المحقق ، مع رسالة الغفران في طبعاتها من الثالثة فما بعدها - ذخائر .

(٢) J.R.A.S. 1902 P. 87-79. !

كذلك لم يقرأ « نيكلسون » رسالة « ابن القارح » ، ولا قرأها « آدم ميتز » ولا « ميغيل أسين بلاثيوس » مع أنه عرف شخصية الرجل ورجع إلى ترجمته في ياقوت ؛ ثم قال :
(1) "Ibn al-Qarīh's epistol, to which the Risala is a reply, has not been preserved"

فليس غريباً أن يتعثر النص بين أيديهم ، ويخفى عليهم فهم سياق معانيه ، فتغيب عنهم الروابط بين فقراته وعباراته . ولو أن عربياً ، مدرّكاً لأسرار لغته راسخ العلم بها درايةً ، قرأ القسم الثاني من « الغفران » من غير أن يقرأ « رسالة ابن القارح » ، لتعذر عليه فهم مدلول عباراته وإشاراته وإقامة نصه ، فكيف بمستشرق يعوزه فهم روح العربية وفقه أسرارها في التعبير وأساليبها في الأداء ؟ !

هذا لتعليل ما لقي المستشرقون من اضطراب نظم « الغفران » ، وما حكموا به عليها من فقدان الرابطة بين أجزائها ومعانيها . وتداولها عنهم من تابعهم من الدارسين العرب ، في غيبة رسالة ابن القارح مفتاح فهم الغفران .

* * *

فإذا أبعدنا عن أسلوب الغفران ، تهمة تشنت الأفكار وتعقيد النظم ، وانعدام الربط المعنوي ، بقي ملحظان آخران على الترتيب ، قد يُردّ إليهما ما نراه من تمزق النظم في الأسلوب ، - وهو ملحظ آخر غير ما قيل من التشنت والعجز عن الربط - .
أولهما : الاستطراد . فقد كان « أبو العلاء » يكثر الخروج عن الموضوع الذي يتحدث فيه ، مستطرداً إلى حديث آخر يدعو إليه أو هي داع من النظم أو المعنى ، ولا عيب في هذا لو أنه أخذ باعتدال ، لكننا نلاحظ على الشيخ أنه أسرف في ذلك إسرافاً واضحاً يفسد وحدة الموضوع ويعبث بالنظم .
وما ظنك باستطراد يستغرق أكثر من نصف الرسالة ؟ أعني تلك الرحلة إلى العالم الآخر ، فقد كانت كلها استطراداً ساق إليه تقدير « أبي العلاء » لما افتتح به « ابن القارح » رسالته من تمجيد الله ؟ !

قال ابن القارح في مستهل رسالته إلى أبي العلاء : « استفتاحاً باسمه ، واستنتاجاً ببركته ، والحمد لله المبتدئ بالنعيم ، المنفرد بالقدم ، الذي جلّ عن شبه المخلوقين وصفات المحدثين ، ولى الحسنات ، المبرأ من السيئات ، العادل في أفعاله ، الصادق في أقواله ، خالق الخلق ومبديه ، ومبقيه ما شاء ومنفيه » (2) .

فرد « أبو العلاء » :

« وقد وصلت الرسالة التي بحرّها بالحكم مسجور ، ومن قرأها لاشك مأجور .. وألفيتها مفتحة بتمجيد ، صدر عن بليغ مجيد ، وفي قدرة ربنا جلت عظمته أن يجعل كل حرف منها شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور .. ولعله - سبحانه - قد نصب لسطورها المنجية

(1) Islam and the Dvne Comedy. P. 55. ed London- 1926.K

(2) رسالة ابن القارح ، ص ٢١ - مع رسالة الغفران ط ٤ ذخائر .

من اللهب ، معاريج من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء ، وتكشف عن سجوف الظلماء .

ومن هنا نقل صاحبه إلى الجنة ، وما زال به في رحلته حتى أكمل طوافه بالعالم الآخر ، جنته وناره ، ليعود بعد تلك الرحلة الطويلة ، إلى الرد على السطر الخامس من رسالة ابن القارح ! .

« وأبو العلاء » حين يستطرد ، يخلص للموضوع الجديد الذي أقحمه على حديثه ، فلا يدعه إلا بعد أن يستوفيه مهما يطل القول ، حتى تكاد تنسى الموضوع الأول الذي كان يحدثك فيه من قبل ، إلى أن يذكرك به رجوع « أبي العلاء » إليه ، وهو لا ينسى ما كان فيه قبل أن يمضى مستطردًا .

والأمر يهون لو أنه يستطرد في المرة الواحدة إلى مسألة واحدة ، لكن استطراده غالبًا ، يُسلم إلى آخر قآخر ، حتى ليتساءل القارئ في ضيق : ألا ينتهي ؟ ولكن لا غرابة في ذلك ، فالشخصية واحدة هنا وهناك ، وما دامت الكلمة في موضع تنقله إلى موضوع فرعى ، فإن غيرها - من الألفاظ أو المسائل في هذا الموضوع الفرعى - ينقله إلى استطراد سواه . وهكذا . فذكرُ عسل الجنة مثلاً ، يذكره بيبي « النمر بن توب » ، وهما يذكرانه بحكاية « خلف الأحمر » مع أصحابه في تغيير القافية من النون إلى الصاد ، وهذا يسلمه إلى أن يمر بالقافية على حروف الهجاء جميعًا ، مستطردًا في ثنايا ذلك استطرادات جديدة ، يشرح بها ما يعرض له من ألفاظ ، أو يفسر ما يأتي به من شواهد ، أو يناقش ما يمر به من قضايا .

ولعل علماء النفس يفسرون هذا ، بأن يردوه إلى ظروف « أبي العلاء » ، فقد كان يملئ ولا يكتب ، وطبيعة الإملاء - وبخاصة إذا كان من غير مكتوب - لا تعين على مثل التحديد والتقييد اللذين في الكتابة . أو لعل هذه الاستطرادات الجزئية لم تكن سوى مظهر لعرض ثروته اللغوية ووسيلة إلى كشف ذخيرته منها . قلتُ : لكن العجيب من أمر أبي العلاء ، أن لم يفته قط ، ربط أى استطراد يرجع إلى ما كان فيه قبله ، ثم إنه في عرض ذخيرته من علوم العربية والإسلام ، لم يكن يردد محفوظه منها سردًا ، بل تناول في أماليه عليها بالغفران قضايا نقدية وتاريخية معلقة ومسائل مختلفًا فيها ، فأعاد عرضها استدراكًا منه لِقَوَات ، أو تنبيهًا على وهم وخطأ وقصور .

* * *

وننتقل إلى الملحظ الآخر على نسق ترتيبه لمعانيه وآرائه في « الغفران » ، وهو :

الشروح المعترضة :

وهذا يشبه أن يكون نوعًا من الاستطراد ، وكان من الممكن أن يُردَّ إليه ويُدمج فيه ، لولا أنه لازمه طول إملائه للرسالة ، حتى صار من حقه أن يُفرد بالنظر ، من حيث هو ظاهرة أسلوبية .

سبق في الحديث عن تأثر « الغفران » بسوء الحياة الأدبية في عصرها - كيف كان الوقوف عند المأخذ النقدي لشروح معترضة تجور على طمأنينة السياق وعلى الجمال الفني في مثل مشهد « أوس بن حجر » في النار ، وكيف أفسده الشيخ بذكر « دَرَم » ، الذي هو - من بنى دب بن مرة بن ذهل بن شيبان - وكذلك فعل في مشهد الحشر ، حيث كان يعترض بالشرح في موقف كان جديراً بأن يذهله عن كل شرح واستطراد .

قال علي نسان ابن القارح يصف مجازة موقف الحشر : « لما نهضت أنتفض من الريم وحضرت حرصات القيامة - والحرصات مثل العرصات أبدلت الحياء من العين - ذكرت الآية : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبراً جميلاً ﴾^(١) . فطال على الأمد ، واشتد الظماً والومد - والومد : شدة الحر وسكون الريح كما قال أخوكم النميري :

كأن بيض نعام في ملاحفها جلاه ظلّ وقبظ ليلُه ومِدُّ

وأنا رجل مهيف - أى سريع العطش - فافتكرت أمراً لا قوام لمثلي به ، ولقيني الملك الحفيظ بما زيرلى من فعل الخير ، فوجدت حسناتي قليلة كالنفأ في العام الأرملة - والنفأ : الرياض ، والأرمل : قليل المطر - (ص ٢٤٨ - ٢٦٢) .

* * *

وهذا أو ان ما وعدنا به ، من تحقيق الشبهة التي أثارها بعض المحدثين عن احتمال أن تكون هذه الشروح ليست من صلب المتن ، وأن « أبا العلاء » لم يُملها لتكتب في رسالته إلى « ابن القارح » ، وإنما كان يشرح بها لتلاميذه الذين كانوا يجلسون إليه ويكتبون عنه ، ما يعرض له من مسائل لغوية ، أو يشرح لهم ما يظنه غامضاً على بعضهم ، فكتبها للتلاميذ في المتن ، ولم يكن مقصد « أبا العلاء » أن تكون فيه .

قال بهذا الاحتمال « أستاذنا مصطفى السقا » - رحمه الله - أثناء قراءتي عليه مخطوطات الغفران ، ولعل هذا هو ما دعا بعض النقلة إلى محاولة تخليص المتن من الشروح المعترضة فيه ، وإلحاقها حواشي بالهامش ، كالذي في : « أوج التحرى عن حيشة أبا العلاء المعري » ليوسف البديعي^(٢) ، وهو كتاب جمع فيه نماذج شتى من الآثار العلائية ، جرياً على عادة عصره - القرن الحادى عشر - الذى عرف بأنه عصر الجماعين وواضعي المختصرات .

وفى هذا الكتاب ، قطعة طويلة من « الغفران » ، فى نحو ست عشرة صفحة من القطع الكبير ، تبدأ من صدر « الرسالة » إلى آخر قصة الحشر ، قد اقتطعت منها الشروح المعترضة ،

(١) سورة المعارج الآية ٥ .

(٢) لم يرد هذا الكتاب فى (تعريف القدماء بآثار أبا العلاء) ، وقد نشره المعهد الفرنسى بدمشق عام ١٩٤٤م ، عن مخطوطة عثر عليها بالمكبة الظاهرية .

وأضيف بعضها بهامش هذه النسخة المطبوعة ، ولسنا ندرى أكانت هذه الشروح هوامش في مخطوطة البديعي ، أم هي استخرجات من الناشر ، نقلها من « الغفران » وجعلها هوامش ، فيكون ذلك قولاً منه بأن هذه الشروح المعترضة ليست أصلاً من متن الغفران ، بل هي حواش أملاها « أبو العلاء » على تلاميذه ولم يقصد أن يضعها في رسالته إلى ابن القارح ؟

ولا أعتد في نقض هذا الاحتمال على الأصل العام وهو الثقة بالنص في أصله المعتمد ، حتى يقوم ما ينفيه ، وأن تقرير إضافة الشروح ليس قائماً على حجة أو دليل ، بل هو مجرد فرض . كما لا أكتفى في الرفض بما أقدر من إلف تلاميذ الشيخ لأسلوبه ، وقدرتهم على تمييز ما هو من المتن ، وما هو من الحواشي والتعليقات بما صح عندى من مراجعة الشيخ لما أملاه قبل أن يخرج من مجلسه .

وإنما أعتد على استقراء أسلوب « أبي العلاء » في آثاره بعامة ، وفي « الغفران » بوجه خاص :

١ - فقد جرى « أبو العلاء » على شرح ما يمليه ، إما مستقلاً كما في كتب الشروح المعروفة في ثبوت مؤلفاته ، من مثل منار القائف ، وخدام الرسائل ، وضوء السقط ، وراحة اللزوم^(١) .

وإما في ثنايا الحديث فصلاً ، كما فعل في « الفصول والغايات » : يفسر كل فصل قبل رجوع إلى ما كان فيه . وكما فعل في « كتاب الألغاز »^(٢) ، يقول البيت أو الأبيات ملغزاً عن شيء ثم يفسره ويحل ألغازه على ما سبق بيانه .

٢ - وقد يقال إن أمر هذه الشروح المستقلة ، والتفسيرات التي في « الفصول والغايات » ، و « كتاب الألغاز » ، ليس كهذا الذي نجده في « الغفران » ، لأن الشيخ هناك يفسر ويشرح بعد أن يفرغ من الكتاب ، أو الفصل ، أو اللغز ، وأما هنا في « الغفران » فتأتى الشروح معترضة في ثنايا المتن . وهو قول ، على ضعفه ، لا نرده بأن الظاهرة الأسلوبية واحدة في الحالين فحسب ، وإنما نلتمس كذلك من رسائل « أبي العلاء » الشبيهة « بالغفران » ، ثم ما في « رسالة الغفران » نفسها ، ما يبعد الشبهة في كون هذ الشروح أصلاً في المتن وليست حواشي إضافية مقحمة ، أو يشهد بأن الشيخ كان يقصد ، حين أملاها شارحاً معترضاً ، أن تسجل في رسالته إلى « ابن القارح » .

(١) القائف كتاب ألفه أبو العلاء على معنى كلية ودمنة ، والنار شرح له . وخدام الرسائل شرح لغريب ما في رسائله ، وضوء السقط شرح لسقط الزند ، وراحة اللزوم شرح لديوان اللزوميات .

(٢) ذكر ناشر كتاب (أوج التحري) أن « البديعي » انفرد هنا بذكر (كتاب الألغاز) ، وقد رجحنا أن يكون هذا الكتاب ، هو (جامع الأوزان) الذي ذكره ياقوت ، والقفطي ، والنهبي ، وحاجي خليفة . ولنا في تحقيق هذه المسألة بحث نشر بمجلة الكتاب عدد شهر يونية ١٩٤٨ م .

ففى « رسالته إلى أبى الحسين أحمد بن عثمان النكتى البصرى » ، نراه يفسر ما يعرض له من مفردات أو أقوال فى ثنايا المتن ، بدليل أنه يصحبها بمثل قوله :

« وسيدى الشيخ ، قد علم ، أنه مشهور عند العرب » - ٦٦^(١) .

« وقد رووا أخباراً كثيرة ، لاشك أنه اطلع عليها » ٦٧ .

« وعلمه بذلك محيط » (ص ٧١) .

« أليست قد مرت به الحكاية » ؟ (ص ٧٥) .

« وقد مر به فى كتاب المجاز لأبى عبيدة قولُ الراجز » (٧٣) .

ولا تغيب هذه الظاهرة فى قصار رسائله ، إذ يختم رسالة لم تتجاوز ستة أسطر بقوله :
« وعليه سلام لو كان يوماً لكان يوم عرفة ، أو شهراً لكان نائقاً - وهو رمضان » (١٢٨) .
« والتمس مثل ذلك فى « الغفران » ، فسترى « أبا العلاء » كثيراً ما يحرص - حين الشرح - على الاحتياط بمثل تلك العبارات التى ذكرنا .

يقول مثلاً : « فقد غرس لمولاي الشيخ الجليل .. شجر فى الجنة لذيذ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاطٍ ، ليست فى الأعين كذات أنواط ، وذات أنواط - كما يعلمُ - شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية » - ص ١٤١ .

قوله « كما يعلم » هنا - والضمير لابن القارح - دليل على وجود الشرح فى أصل « الرسالة » الموجهة إليه .

ويقول حين استطرد إلى ذكر أبيات « لأبى الهندى » فى الخمر : « ولا ريب أنه - أى ابن القارح - يروى ديوانه ، وهو القائل ... » - ص ١٤٣ .

وينشد فى « الغفران » بيت « الأعمشى » :

نبي يرى ما لا يرون وذكره
أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

ثم يعقب : « وهو : أى ابن القارح - أكمل الله زينة المحافل بحضوره - يعرف الأقوال فى هذا البيت ، وإنما أذكرها لأنه قد يجوز أن يقرأ هذا الهديان ناشئ لم يبلغه ذلك : حكى « الفراء » وحده أغار فى معنى غار إذا أتى الغور ، وإذا صح هذا البيت للأعمشى فلم يرد بالإغارة إلا ضد الإنجاد . ورؤى عن الأصمعى روايتان :

إحداهما أن أغارَ فى معنى عَدَا عَدَوْاً شديداً ، وأُنشد فى كتاب الأجناس :

فَعَدُّ طِلَابِهَا وَتَسَلَّ عَنْهَا
بِنَاجِيَةٍ إِذَا زُجِرَتْ تُغَيِّرُ

(١) الأرقام المنذلة بها نقولنا هنا ، تشير إلى مواضع الفقرات ، فى (رسائل أبى العلاء) طبعة أكسفورد ، نشر مرجليوث .

والأخرى أنه كان يقدم ويؤخر فيقول :

* لَعَمْرِي غَارَ فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا *

فيجيء به على الزحاف . وكان « سعيد بن مسعدة » ، يقول :

* غار لعمرى فى البلاد وأنجدا *

فيخرمه فى النصف الثانى ص ١٧٩ : ١٨٠^(١) .

فهذا الشرح فى متن النص ، لم يمله « أبو العلاء » حاشية ، ولا كان يوجهه إلى تلاميذه وحدهم ، وإنما خاطب به « ابن القارح » محتاطاً عن مظنة جهله به بقوله : « وهو يعرف الأقوال فى هذا البيت » ، ومعتزراً عن روايتها فى رسالته إليه بأنه « قد يجوز أن يقرأ هذا الهذيان ناشئاً لم يبلغه » ما يعرف الشيخ من أقوال اللغويين فيه .

ومثله القسم الثانى من الغفران : « كم من شبل نافق أسداً .. وضيغم نغم على فرهود وودّ لو دفنه بالوهود - والفرهود : ولد الأسد بلغة أسد شنوءة - وهو : أنس الله الإقليم بقره - أجلُّ من أن يُشْرَحَ له مثلُ ذلك ، وإنما أفرق من وقوع هذه الرسالة فى يد غلام مترعرع ، ليس إلى الفهم بمتسرع ، فتستعجم عليه اللفظة ، فيظل معها فى مثل القيد ، لا يقدر على العجل ولا الرويد - وكم خالبت الذئاب السلقُ ، وفى الضمائر تكن الفلقُ - أى الدّواهى ، ومنه قول خَلْف :

* مَوْتُ الْإِمَامِ فَلَقَّةٌ مِنَ الْفَلَقِ * ص ٣٨٣

فهذا الشرح المعارض ، هو من المتن أصلاً ، وقد قصد به « ابن القارح » لاشك فى ذلك ، لأن الخطاب هنا له ، والاعتذار إليه ، والاحتياط معه ، إذ يقول له أبو العلاء : « وهو أجلُّ من أن يُشْرَحَ له مثلُ ذلك ، وإنما أفرق من وقوع هذه الرسالة فى يد غلام مترعرع .. » .
هى إذن ظاهرة من الظواهر الأسلوبية للغفران ، قلما تخطئها فى شروحه المعارضه ، وقد بلغ من ولع « أبى العلاء » بها ، أن ضحى فى سبيلها - كما فعل فى الاستطراد - بوحدة السياق ، ونسق الجمل ، وترتيب المعانى ، ليرضى رغبته فى استيفاء أماليه على ما يشرحه ..

* * *

صور التعبير والظواهر الأسلوبية :

فإذا جاوزنا مادة « الغفران » وترتيبها ، وفرغنا للنظر فى صور التعبير ، ألفينا أمامنا ظاهرتين من الظواهر الأسلوبية ، تشبهان أن تكونا جديدتين فى النثر العربى ، وإن كان الباحث لا يعيبه أن يردهما إلى أصل بعيد .

(١) الأرقام هنا ، وفيما على ، تشير إلى مواضع الفقرات المستشهد بها ، من رسالة الغفران : ط ذخائر .

وتبدو هاتان الظاهرتان في القسم الأول بوجه خاص . أولاهما :

الحديث على ألسنة الأحياء :

ذلك أن « أبا العلاء » اختار شخصية حقيقية معاصرة ، وأجرى على لسانها ما شاء من آراء وأقوال ، وأذاقها ما اشتهى من أشواق وأحلام . كما اختار شخصاً مسرحاً ، من كبار الشعراء وأعلام العربية الذين عرفهم تاريخنا ، وكذلك الأمر في الشخصيات الثانوية ، كالمغنين والمغنيات ، بل إن المشهد الذي عرضه على مسرح الغفران لروضة الحيات ، وأسد القاصرة وذئب الأسلمي ، كان الإخراج فيه قائماً على تشخيص حيات ورد ذكرها في الشعر العربي ، ووحوش تردد الحديث عنها في كتب الحديث والسيرة . وقد يلتبس لهذه الظاهرة أصلٌ قديم بعيد ، عرفه العرب من قبل في إنطاق الجماد والحيوان والجن على سبيل التمثيل والتخييل ، ولكنه لم يبد في صورته الكاملة إلا حين نقل « ابن المقفع » إلى العربية « كليلة ودمنة » في القرن الثاني ، وفيه يجرى « بيدبا الفيلسوف » حكيمه وآراءه الفلسفية ، على ألسنة الوحش والبهايم والطيور .

وإلى هذا الأصل القديم ، يُرد صنيع الكتاب في القرون التالية ، حين اختاروا شخصيات خيالية ينطقونها بما شاءوا ، ولم يجاوزوا في أول الأمر مرحلة التقليد والمعارضة كما فعل « سهل بن هارون »^(١) في كتاب « النمر والثعلب » الذي ذكره « ابن شرف القيرواني »^(٢) ولم أطلع عليه .

لكنهم لم يلبثوا أن تفتنوا فيه وزادوا عليه ، فلم يكفد القرن الرابع يهل حتى ظهر ذلك الأسلوب في المشرق والمغرب ، يحمل آثار قرنين من التجويد والإنضاج : فرأينا « بديع الزمان » يختار من خياله شخصية « عيسى بن هشام » لمقاماته المعروفة ، و « ابن شرف القيرواني » يلقي أحكامه النقدية في « رسالة الانتقاد » على لسان « أبي الريان الصلت بن السكن » و « أبا عامر بن شهيد القرطبي » يختار من عالم الجن « زهير بن نمير » لرحلته به في « التوابع والزوابع » .

وألقي « أبو العلاء » دلوه مع هذه الدلاء ، فصنف « الصاهل والشاحج »^(٣) على لسان فرس ويغل ، « والقائف » على معنى « كليلة ودمنة » ، لكنه في الغفران يدع الحيوان ، والجن ، والشخصيات الخيالية أو القديمة ، ويختار « ابن القارح » - وهو أديب معاصر له -

(١) أبو عمر ، سهل بن هارون : فارسى الأصل ، انتقل إلى البصرة واتصل بالأمون ، فولاه خزنة الحكمة ببغداد ، وكان حكيماً شاعراً شعوبى المذهب ، شديد التعصب على العرب .

(٢) رساله الانتقاد : (رسائل البلغاء) ص ٢٤١ - ط القاهرة سنة ١٩١٣ م .

(٣) حققت نصه عن أصلين من ذخائر تراننا بالمغرب ، ونشرته دار المعارف بالقاهرة في طبعتين في سلسلة الذخائر ، ويأتى مبحث عنه فيما يلي من دراسات مقارنة بالغفران .

وينطقه بما لم ينطق به ، لا على سبيل الوضع والحكاية كما كان الشأن في الحكايات المروية عن الأعراب في الأمالي والدروس اللغوية « لابن دريد والأصمعي » ، ولا على سبيل الهجاء كما فعل « الجاحظ » في « الترييع والتدوير » وإنما ليؤدى عنه آراءه التي عاقت بفكره وهو يدرس شعر الأقدمين ويتبع أقوال اللغويين ، كما اختار من بين الشعراء واللغويين أنفسهم من ينطق بلسانه ، ويناقش عنه ، ويجادل ويحاور ، ويحكم .

وتلك جديدة من « أبي العلاء » أو هو أسلوب جديد في العرض أنضح فيه « أبو العلاء » طريقة الأولين وأظهرها في نمط مبتكر هو :

التشخيص والتمثيل :

أراد إحضار مشاهد العالم الآخر واقعاً مشخصاً ، فكان مما يلائمه اختيار شخوص حقيقية تؤدي أدوارها على المسرح ، مبالغة منه في إبرازها وعليها سمة الواقع . ونرجيء الحديث عن أسلوب الإخراج التمثيلي الذي ابتكره أبو العلاء في إحضار عالمه الآخر ، إلى موضعه من الفصل الخاص بالغفران بين فنون النثر العربي .

وتقتصر هنا على نماذج من تشخيصه للمعاني والأفكار ، وتجسيمه للرؤى والهواجس والأحلام ، لا نغنى بهذا التشخيص والتجسيم ما نراه من بث الحياة في الألفاظ ، والحروف ، وجعلها أشباح نور تستغفر « لابن القارح » وتعرج إلى السماء (ص ١٤٠) (١) ، فذلك ومثله يشبه ما تردد في البيئة الإسلامية من مثل ذلك ، وما جاء به القرآن الكريم : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ .

كذلك لا نغنى هنا تشخيص « أبي العلاء » للطير والشجر ، وإخراجه منها شخوصاً آدمية فردوسية ، كما فعل في الحور اللواتي انتفضن من الإوز (ص ٢١٢) ، والأخريات اللواتي خرجن من ثمر الجنة (ص ٢٨٨) ، وتلك التي أوشكت أن تخرج من الحية لو شاء « ابن القارح » (٣٧٠) ، فذلك - كما سنذكر بعد - صياغة علائقية لأساطير عرفها العرب قبل « أبي العلاء » .

الذي نغنيه ، هو تشخيص أبي العلاء لعالمه الآخر ، على نحو تمثيلي أقرب ما يكون إلى الإخراج المسرحي ، حيث تتابع المشاهد مجسمة ممثلة وتتعاقب الشخوص المسرحية لأداء دورها ، على ما سوف نجلوه في فصل « الغفران في النثر العربي » وأكتفى هنا بإيراد نماذج شارحة لطريقة أبي العلاء في التشخيص والإخراج ، كذلك الذي نراه في صورة « صخر » و« النار تضطرم في رأسه ، تمثيلاً لقول « الخنساء » فيه :

* كأنه علم في رأسه نار * - ص ٣٠٨

(١) من الطبعة الرابعة لرسالة الغفران وما تلاها من طبعات الذخائر :

(٥) سورة فاطر الآية ١٠ .

ومثل إحصاره أبا ذؤيب الهذلي في الجنة ، وبين يديه ناقة عائذ مُطْفِل ، يَحْتَلِبُهَا ويمزج حليها بشوبٍ من ماء الجنة ، ويعسل يجتنيه من خليةٍ جوهر ، نراها في الصورة حاضرة ماثلة ، فذلك تشخيص لقول « أبي ذؤيب » في الدهر الأول :

وإن حديثاً منك لو تعلمينه جتّى النحل في ألبان عُوذٍ مَطَافِلِ
مطافيلٍ أبكارٍ حديثٍ يتأجها تُشَابُ بماءٍ مثل ماء المفاصلِ

(ص ١٩٩)

ومثل تشخيص « أبي العلاء » ليوم « دارة جلال » ، وتصويره « ابن القارح » تتبعه جارية بين كتب العنبر وأتقاء المسك ، تمثيلاً لقول امرئ القيس :

فقتتُ بها أمشي تجرُّ وراءنا على أثرنا ذيلَ مِرْطِ مَرَحَلِ

(ص ٣٧٣)

ومثل تلك البيوت الثلاثة التي لم يُرَ في الجنة نظيرها بهاء وحسناً ، و« لبيد » الشاعر عندها يسأل « ابن القارح » إن كان يعرفها ؟ فيجيب : « لا والذي حجّت القبائل كعبته » ، فيقول لبيد :

أما الأول فقولي :

• إن تقوى ربنا خير نفل •

وأما الثاني فقولي :

• أحمد الله فلا ندُّ له •

وأما الثالث فقولي :

• مَنْ هداه سُبُلَ الخَيْرِ اهْتَدَى •

صَيَّرَهَا رَبِّي اللطيف الخبير أحياناً في الجنة ، أسكنها أخرى الأبد » (ص ٢٦٧) (١) .

ويعرض لابن القارح الشوق إلى نظر سحاب كالسحاب الذي وصفه أوس بن حجر ، أو عبید بن الأبرص ، في قوله :

« إني أرقّت ولم تارق معي صاحٍ لِمُسْتَكِفٍ بُعَيْدَ النَّوْمِ لَمَاحٍ

فينشئ الله - تعالت آلاؤه - سحابة كأحسن ما يكون من السحب .. » (٢٧٦) .

ومن هذا التشخيص في القسم الثاني من الغفران ، ذلك المأتم الذي أقامته قصائد « أبي تمام » على صاحبها ، وقد جاء بهن « أبو العلاء » نائمات ناديات متشحات بالسواد ، وبعث إليهن قصائد أخريات للتعزية والمعونة والمواساة ، حتى اجتمع في مأتم القصائد ما لم يجتمع مثله في جنازة « الإمام أحمد بن حنبل » (ص ٤٨٤ : ٤٨٩) .

(١) نقلنا هذا التشخيص في الفصل التالي عن : جنة الغفران والجحيم .

هذا الأسلوب فى الأداء ، قد عمل فيه الخيال عمله حتى مثل أمامنا مجسماً على نمط جديد فريد . وله نظائر فى فن « أبى العلاء » فى « الفصول والغايات » ، حيث رأيناه يستعير الألفاظ والصور من الشعر القديم ، ويشخصها بمثل هذا العرض التمثيلى المبتكر . فى الفصول التى صور بها مصارع الوحش (٩ : ١١) .

الصياغة والصناعة :

فإذا مضيت إلى الأسلوب من حيث صياغة الجمل وصناعة العبارات ، لم تجد شيئاً جديداً عند « أبى العلاء » ، ولم يشق عليك أن ترد كل ظاهرة فيه إلى أصل لها سابق ، ذلك لأن العصر الأدبى لأبى العلاء كان امتداداً طبيعياً للعصر الذى سبقه ، فلم تكذب « رسالة الغفران » تنفرد بنوع معين من فنون الصياغة اللفظية للجمل ، وإن تميزت بالمضى فى هذه الفنون إلى أقصى المدى المستطاع .

فلقد أسرف فى اصطناع الزخرف اللفظى ، وتكلف فى صناعة الجمل الموشاة بصنوف من البديع كالسجع ، والجناس ، والمطابقة ، والإلغاز ، والتورية ... وهى فنون سبقت عصره بكثير ، واتخذها من قبله من الشعراء والكتاب مذهباً وصناعة ، وكانت هى الطريقة السائدة منذ غلب مذهب التكلف فى المشرق والمغرب .

قال « أبو عامر بن شهيد الأندلسى » : (وكأ أن لكل مقام مقالاً ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه .. فكل شعر لا يكون اليوم تجنيساً أو ما يشبهه ، تمجته الآذان ...)^(١) .

فأبو العلاء فى « الغفران » كان يجارى الفن الشائع فى عصره ، ويحرص على إظهار براعته فيه ، ماضياً به ملء عنانه إلى أقصى مده .

إنه يسرف فى تلاعبه بالألفاظ تلاعب المتمكن منها ، المتحكم فيها ، القادر عليها ؛ وأول ما يظهر هذا ، فى تلك المقدمة الطويلة (١٢٩ : ١٣٩) التى بدأ بها رسالته إلى ابن القارح ، متفنناً فى ذكر أسماء القلب تفنن المقتدر المدل ، وترى مثل هذا فى حديثه بعد عن حجيج ابن القارح ، وعن تويته ، وعن دنائره الثلاثة والثمانين التى سرقها بنت أخته ... كما لا يكاد يدع وسيلة للتفنن بهذه الألفاظ إلا جاء بها .

وسوف نعرض فى الفصل الخاص بمقدمة الغفران ، شواهد تمثل صياغة أبى العلاء للجمل والعبارات ، بكل خصائصها اللفظية من سجع وازدواج ، وجناس ، وتورية وإلغاز ، وشرح واستطراد .. وهى الخصائص التى تظل تلقانا من مقدمة الرسالة إلى آخر فقرة منها .

(١) فى (رسالة الروابع والتوابع) الذخيرة لابن بسام : ص ٢٠٣ - ط جامعة القاهرة .

وما من شك في أن تمرن « أبي العلاء » على الصنعة ، مع ثروته اللغوية النادرة ، قد أعان في أكثر مواضع (الغفران) على تسوية الصنعة اللفظية دون إكراه واضح أو تكلف مسرف ، ولكن التوفيق يخونه أحياناً ، فيبني الجميل بناءً قلماً تحس فيه التعنت ، وتشعر أن الألفاظ مكروهة على البقاء في أماكنها لتسوية الصنعة وأداء حقها .
 ذلك مثل قوله : « وقد وفق أبو الفرج وولده ، وصار كأللجة ثمده ، لما درس عليه الكتب ، وحفظ عنه ما يكون الترتب » (ص ٤٠٥) .

« ورب نازل من أهل الأدب في خان ، ليس بالخائن ولا المستخان ، يخدمه صبي هو من الرق حر ، وفي خدمته السرقة والضرر ، إذا أرسله بالبتك - بنات الدرهم - ليأتيه بالبطيخة ، حين يكثر البطيخ ويتيح ، سيره المشتعل متيح » (ص ٥٠٦) .
 فقد جارت الصنعة على النظم ، وفصل بين المسند والمسنود إليه ، ليقيم تلك السجعة النابية .

* * *

هل كان أدياء ذلك العصر لا يحسون هذا؟ بلى قد كان منهم من يحسه وينكره ويضيق به ، ويعترف بأنه يعانیه على كره ومضض ، وقد كتب « داعي الدعاة » يطلب إلى « أبي العلاء » يسأله أن يعفيه من الأسجاع ولزوم ما لا يلزم ، فإن ملتتمسه المعاني لا الألفاظ^(١) .
 وددت أن أعلم بم دافع « أبو العلاء » عن هذا ، لكن « ياقوت » اكتفى بقوله ، عقب ذكر رسالة داعي الدعاة :

« ثم اعتذر عن السجع بأخبار أوردها ، واحتجاجات ذكرها »^(٢) .
 على أن لدينا من ذلك العصر ، من يشهد بضيق الكتاب المبدعين بما كانوا يعانون من هذا التكلف ، كالذي في حوار « أبي عامر بن شهيد » مع « عتبة بن أرقم : صاحب الجاحظ ، حين لقيه في رحلته وادي الجن ، وسمع نثره فقال له : « إنك لخطيب ، وحائك للكلام مجيد ، لولا أنك مغرّي بالسجع ، فكلامك نظم لا نثر » . فأجابه « ابن شهيد » : « ليس هذا - أعزك الله - مني جهلاً بأمر السجع ، ولكني علمت ببلدى فرسان الكلام ، ودُهيتُ بعباوة أهل الزمان ، وبالحرّاً أن أحركهم بالازدواج .. » . قال « عتبة » : « أهذا على تلك المناظر ، وكبير تلك الحابر ، وكإل تلك الطيالس؟ » قال : « أبو عامر » : نعم ، إنها لحاء الشجر وليس ثم ولا عبق . فسأله : فكيف كلامهم بينهم ؟ قال « أبو عامر » : ليس لسيويه فيه عمل ، ولا للفراهيدي إليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة . إنما هي لكنه أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية

(١) رسائل داعي الدعاة - نظير معجم ياقوت : ٣ ص ١٩٤ ، ط دار المأمون .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٠٢ .

المجوس والنبط .فصاح « عتبة » : إنا لله ، ذهبت العرب وكلامها ! ارمهم يا هذا بسجع الكهان ، فعسى أن ينفعك عندهم ، ويُطِيرَ لك ذكراً فيهم » (١) .
وقد فعل « ابن شهيد » .

وكذلك فعل « أبو العلاء » ، وفعل غيرهما من كتاب العصر .. رموا قومهم بسجع الكهان ليطير لهم ذكراً فيهم ، وإن كان منهم الكاره لما تكلف . ولعل « المستشرق الهولندي دى بور » لو سمع هذا الدفاع لخفف من قسوته على « أبي العلاء » فى إنكار ذلك (القلب الذى صيغت فيه آراء أبي العلاء بما فيه من تكلف ، وما يغلب عليه من ابتذال) (٢) .

* * *

ذلك لا يمنع أن نميز فى « الغفران » جُملاً وقراتٍ وفصولاً يلقيها « أبو العلاء » فى يسر واسترسال ، لا يلتزم فيها قيود الصنعة اللفظية ، ولا يكثر لتسجيع أو تجنيس ، وهى ملاحظة لفتَ إليها أستاذنا العميد « الدكتور طه حسين » حين قسم نثر « أبي العلاء » بوجه عام إلى قسمين :

« أحدهما ما ينهب فيه مذهب الإنشاء والتنميق ، وهذا لا بد فيه من السجع والغريب ، والآخر ما يذهب فيه مذهب القصص التاريخى أو العلمى ، وهذا يقل فيه السجع والغريب» (٣) .

وهى ملاحظة تصدق على نثر الغفران جملة . وأما التفصيل فقد يمنع إطلاقه ، حيث يقول بوجه عام : « فأما ما كان من وصف الجنة ونعيمها ، أو النار وجحيمها ، فالسجع فيه لازم ، والغريب فيه موفور ، وأما ما وصف به الزنادقة ، فسهل مرسل ، يسيغه السمع ، ولا ينبو عنه الطبع » (٤) .

وقد أرى أن الأحاديث المرسلة تكثر فى القسم الأول من « الغفران » ، حيث الحوار مع الموعودين بالجنة . وتعليل هذا واضح نذكره عن قريب - على حين يغلب على القسم الثانى طابع الصنعة ، وتسوده روح التكلف . ولم يخلُ الزنادقة من النبو والغلو فى ترصيع الكلام بمختلف أنواع السجع والجناس ، والمطابقة والجمع والازدواج ...
وأقدم من القسم الأول ، مثلاً أو مثلين ، شاهداً لنثر أبي العلاء باليسر والجزالة دون تكلف أو إغراب :

(١) ابن بسام : الذخيرة / ١ / ٢٢٩ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام - الترجمة العربية - ص ٧٧ .

(٣) تجديد ذكرى أبي العلاء : ص ٣٣٤ - ط الثانية .

(٤) تجديد ذكرى أبي العلاء : ص ٢٢٤ - ط الثانية .

ذلك بعض حديثه فى المنافرة التى شَبَّها بين « الأعشى والجعدى » ، حيث يقول « النابغة » لأبى بصير :

(... ولقد وَفَّقْتَ الهِزَّانِيَّةَ فى تخليتك ، عاشرتُ منك النابجَ ، عَشِيَّ فطافَ الأَحْوِيَّةَ على العظامِ المتبذِّة ، وحرص على اتِّبَاطِ الأَجْدَاثِ المنفردة » ، فيغضب « أبو بصير » ويقول فيما يقول :

(.. ولكنك خُلِّقْتَ جباناً هداناً ، لا تدلج فى الظلماءِ الداجية ، ولا تهجرَ فى الوديعَةِ الصاخدة ، وذكرت لى طلاقِ الهِزَّانِيَّةِ ، ولعلها بانَتْ عني مُسِيرَةَ الكمد ، والطلاقِ ليس بمنكرٍ للسُّوقِ ولا للملوكِ .

« فيقول الجعدى : اسكتْ يا ضُلُّ بنِ ضُلِّ .. واستقللتَ بينى جعدة ، وليومٌ من أيامهم يرجح بمساعى قومك . وزعمتَنى جباناً وكذبتَ ، لأنا أشجعُ منك ومن أيبك ، وأصبر على إدلاجِ المظلمة ذات الأريز ، وأشدُّ إيغالاً فى المهاجرة أمُّ الصَّخْدَانِ » (ص ٢٢٧ : ٢٣١) . لا سجع ولا تكلف ولا قلق ، بل العبارة الجَزَلَةُ ، والسياق المطنئن ، كذلك النظم على لسان « أبى هدرش » شيخ الجن :

« ولقد لقيتُ منِ بنى آدمِ شرًّا ، ولقوا منى كذلك : دخلتُ مرةً دارَ أناسٍ أريدُ أن أصرَعَ فتاة لهم ، فتصورت فى صورة عضل - أى جرد - فدعوا لى الضيَّاون ، فلما أرهقتنى تحولتُ صيلاً أرقم ، ودخلتُ فى قَطيلِ هناك ، فلما علموا ذلك كشفوه عني ، فلما خفتُ القتلَ صرت ريجاً هفافة ، فلحقت بالروافد ، ونقضوا تلك الخشبَ والأجذال فلم يروا شيئاً . فجعلوا يَتَفَكِّنونَ ويقولون : ليس هاهنا مكان يمكن أن يستتر فيه ، فيناهم يتذاكرون ذلك ، عمدت لكعابهم فى الكيلة ، فلما رأتنى أصابها الصرع ، واجتمع أهلها من كل أوب ، وجمعوا لها الرقاة ، وجاءوا بالأطية وبذلوا المنفسات ، فما ترك راقٍ رقية إلا عرضها على وأنا لا أجيب . وغبرت الأساءة تسقيها الأشفية وأنا سدكُ بها لا أزل . فلما أصابها الحمامُ ، طلبتُ لى سواها صاحبةً ، ثم كذلك ، حتى رزق الله الإنابة وأتاب الجزيل ، فلا أفتأ له من الحامدين » - (٢٩٣ : ٢٩٤) .

مثل هذا فى « الغفران » مع ما سقنا إليه من عباراتها المسجوعة ، ونظُمها المتكلف ، قد يحمل على اضطراب أسلوب « الشيخ » ، لكن القراءة المتأنية للغفران تنفيه .

فأبو العلاء فى الغفران ، كان يتنقل بين عوالم متباينة ، ويُبجِرى حواراً على ألسنة شعراء وعلماء اختلفت أساليبهم وتباعدت عصورهم : فثم أحاديث طوال بين « ابن الفارح » - وهو حيثُذ فى القرن الخامس - وبين شعراء الجاهلية ، والإسلام . وثم محاورات أدبية بينه وبين لغويين من القرنين الثانى والثالث ، وثم منافرة يثيرها بين الأعشى والجعدى ، وهما مخضرمان أدركا الإسلام ، وأخرى بين المازنى والأصمعى ، من أخريات القرن الثانى وأوائل الثالث .

وَتَمَّ معركة أدبية بين عدَد من الشعراء والرجَّاز من عصر الاستشهاد اللغوى ، وبين « أبى على الفارسى » من القرن الرابع ، وثانية بين « ابن القارح » وبين رُجَّاز من القرن الأول .
وأخرى من أحاديث الجنِّ والحيات ، والوحش ، والطير ، والخور ...
فلو أن « أبى العلاء » تنقَّل بين هذه العوالم المتباينة لشخصٍ متفاوتة ، فى تلك الأزمنة المتباعدة ، بصيغة واحدة وطابع ثابت وأسلوب موحد ، لكان ذلك خطأً فنياً لا يُعتذر عنه ، إذ لا بد من أن يُنطق كلا من هؤلاء ، بما يجوز أن ينطق به مثله . وقد كان وُضَّاع الأحاديث ، ومزورو الرويات ، ومنتحلو الشعر ومقلدو الأعراب البداءة ، يحرصون على تقليد أسلوب من يقلدونه ، أو ما ينسبون إليه ويتقولون عليه ، لتجوز نسبة الأقاويل المتحللة أو المقلدة إليه .
و « أبى العلاء » هنا حريص على أن يخيل إليك - أو إلى نفسه - أن ما ترى وما تسمع فى رحلته إلى العالم الآخر ، حقيقة ماثلة ، ومن هنا اصطنع ما سميناه « فن التشخيص » ، واختار لدور البطل فى رحلته شخصية حقيقية معاصرة هى شخصية « ابن القارح » ، وجاء بأحاديثه متباينة تبعاً لتباين من يجريها على ألسنتهم .

فإن أنكر ناقد ما فى قصة « الغفران » من تباين الصيغ واختلاف الأساليب ، فليذكر أن هذا من « أبى العلاء » دليلُ براعة ، وسلامة الذوق الأدبى ، وإنما لندين لمثل هذا التصرف بتلك الأريحية الفنية التى نحس معها ، ونحن نشهد صور الغفران ، أنها حقاً من عالمه الآخر .

* * *

obbeikandi.com

٢ - المعالم الكبرى للنص

- مقدمة الغفران :
- القسم الأول : الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر .
- القسم الثاني : الرد على رسالة ابن القارح .

obbeikandi.com

مقدمة الغفران

أطيل الوقوف هنا عند مقدمة الغفران التي فاتني في دراستي الأولى للنص ، التنبه إلى ماتعطيه من الخصائص الأسلوبية للرسالة ، والاتفات فيها إلى مقدمة مسرحية تمهد لظهور شخص ابن القارح في رحلته إلى العالم الآخر .

* * *

والمقدمة هي مفتوح الرسالة ودياجتها ومدخلها ، وظاهر الأمر فيها أنها ، على طولها المسرف ، تحية إخوانية من أبي العلاء لابن القارح ، يعرب فيها عن مودة مشتاق للقاء صاحب حميم ، أو قد تبدو إملاء من أمالي أبي العلاء اللغوية موضوعه القلب ، تفنن فيه في عرض محفوظه من الألفاظ والشواهد من الشعر ، تفنن المتمكن منها القادر عليها ، وهو يصطنع في طريقة عرضها فن الإلغاز البديعي ، لما اختار من ألفاظ الحماسة ، والحضب ، والأسود ..

فمضى يصف لابن القارح ، ما يجده في قلبه من حماسة ، شوقاً إليه ، وما يضمه حُضبه من محبته ، وما يطويه أسوده من إعظامه .

وملغزاً بالحماسة ، وهي شجر تألفه الحيات ، عن حرقة القلب .

وملغزاً عن حبة القلب ، بالحضب الذي هو الضخم من ذكور الحيات .

وملغزاً بالأسود ، عن سويداء القلب .

ومستطرداً في ثنايا ذلك كله ، إلى ماتدعو إليه أدنى مناسبة من لفظ أو معنى أو شاهد ، من المشتركات اللغوية للحماسة والحضب والأسود ، وإنشاد الأشعار المفسرة للإلغازه ، وجمع الأعلام الذين جاء لفظ السواد في أسمائهم أو كناههم أو ألقابهم ، مثل سودان العرب وأغربتهم : عنترة ، والسلبيك ، وخفاف ، وسُحيم ، ونصيب ، والأساودة : ابن المنذر ، وابن معديكرب ، وابن يعفر وابن زمعة ، وابن عبد يغوث ؛ والأسودين اللذين ذكرهما الحارث بن حلزة في معلقته ؛ وأسودان الذي هو نيهان بن عمرو الطائي ؛ وأبي الأسود الدؤلي ، وسويد بن أبي كاهل ، وابن الصامت ، وابن صُميع ؛ وسودة بنت زمعة - أم المؤمنين رضى الله عنها - وسودة بن عدى ..

* * *

وهذه المقدمة ، تهيئنا بادئ ذي بدء لإلف أسلوب أبي العلاء ، ولح خصائصه المميزة في الصياغة .

ففيها هذا الولع بالأمالى اللغوية والأدبية ، فيما أملى من فصلٍ عن القلب .
وفيها ظاهرة الاستطراد إلى الشروح المعارضة ، التي لازمت أبا العلاء طول إملائه للرسالة .
وفيها شواهد على أن هذه الشروح المعارضة ونظائرها ، من أصل المتن ، وليست شروحاً
لتلاميذ أبي العلاء لم يقصد إلى إدراجها في متن رسالته إلى ابن القارح ، فمن الشروح المعارضة
في سياق استطراده من ذكر الحضب الذي هو ضرب من الحيات ، إلى الشرح المفسر للإلغاز
فيه ، قوله خطاباً لابن القارح :

« وقد علم - أدام الله جمال البراعة بسلامته - أن الحضب ضرب من الحيات ، وأنه يقال
لحبة القلب حضب » .

مما يؤكد أن الشرح الاستطرادي المعارض ، من أصل المتن .
ومن ظواهر الصياغة اللفظية في المقدمة ، إسراف أبي العلاء في اصطناع الزخرف البديعي ،
في هذه الجمل الموشاة بالسجع والجناس والطباق والتورية والإلغاز ، مجازاة لأسلوب عصره ،
وإعلاناً عن قدرته عليه وبراعته فيه . بل إن المقدمة كلها ، في صياغتها اللفظية ، تقدم محاولة
بارعة في فن الإلغاز البديعي ، يلغز عن حرقه الشوق بالحماطة ، ثم يحل اللغز بما يصرفها عن
دلائنها على الشجر الذي تألفه الحيات ، ويلغز عن حبة القلب بالحضب الذي هو ذكّر الحيات ،
ثم يحل اللغز بنفى صفات الحيات عن حضبه .

وقد نعد من الظواهر الأسلوبية في المقدمة - مما سوف يطرد إلى آخر الرسالة - تلك الجمل
الدعائية المعارضة التي توجه سياق الحديث إلى ابن القارح وعنه . وأبو العلاء يتفنن في هذه
الجمل الدعائية اتقاء تكرر جملة منها ، وقد أسعفه على ذلك ثروة لغوية نادرة ، واستجابة
الألفاظ له في مرونة وطواعية . وهو بهذه الجمل الدعائية ، قد ميز بمهارة فنية ، أن الحديث
موجه إلى ابن القارح أو عنه ، متخلصاً بمثل ذلك من اختلاط عود الضمائر في سياق
العبارات ، وفي المقدمة من الجمل الدعائية :

- كبت الله عدوه ، وأدام رواحه إلى الفضل وغدوه .

- ثبت الله أركان العلم بحياته .

- أدام الله جمال البراعة بسلامته .

ثم تمضى الرسالة فلا تكاد فقرة منها تخلو من جملة دعائية ، توجه إلى أن الحديث عن ابن
القارح أو إليه ؛ وهذا من مفاتيح فهم النص .

* * *

كذلك توجهنا المقدمة ، إلى حرص أبي العلاء على شرح الغريب من ألفاظه ، وتفسير المبهم
منها . وهذه أيضاً من الخصائص العلائقية ، لا في رسالة الغفران وحدها ، ولكن في أكثر

ما لدينا من آثاره . وقد أشرنا فى نفي دعوى الغموض عن أسلوب الغفران . إلى ما فى المكتبة
العلائية من شروح مفسرة لعدد من كبه ، ومنها ما يستقل الشرح فيه بكتاب مفرد ، كمنار
القائف وضوء السقط ، أو فى أكثر من كتاب ، كاللزوميات التى أُملى عليها أبو العلاء أربعة
كتب شارحة : زجر الناجح ، وبحر الزجر ، والراحلة ، وراحة اللزوم .
وقد تأنى الشروح مع المتن ، تعقيماً على كل فصل منه ، شعراً أو نثراً ، كصنيعه فى كتاب
الألغاز ، والفصول والغايات .

أو فى ثنايا المتن ، كما فى رسالة الغفران .
واستقراء هذه الظاهرة فى آثار أبى العلاء ، هو الذى وجّه إلى دفع دعوى الغموض فى
الرسالة ، ونقض ما قيل عن [عَمْدِهِ إِلَى الْإِلْغَازِ ، لِيُضَعَ طَلاْسَمٌ وَأَرْصَادًا تَحْجِبُ عَنَّا خَفِيَّ سِرِّهِ
وَتُخْفِي بَاطِنَ أَمْرِهِ] !

* * *

والمقدمة تأخذ فى ظاهرها ، صورة إملاء لغوى أدبى ، وشكل استهلالٍ بالتحية لرسالة
إخوانية .

لكن وراء هذا الظاهر القريب ، دلالاتٍ خَفِيَّتْ علينا وغابت عَنَّا من قبل .
وإذا لم أطل الوقوف عند قوله فى مستهل المقدمة : « اللهم يسّرْ وأعنْ » بما تشير إليه من
حالة نفسية لأبى العلاء فى هذا الطور من حياته ، حيث سيطر عليه شعوره بمشقة عبء الدنيا ،
وإحساسه بالحاجة إلى التيسير والمعونة يَلْتَمِسُهُمَا من الله عزّ وجلّ .

ولم نقف كذلك عند قوله فى المقدمة : « إن فى مسكنى حماطة .. وإن فى طمرى لحضباً ..
وإن فى منزلى لأسود .. » حيث يكنى بالمسكن والمنزل عن جسده ، شعوراً منه بأن الدنيا حوله
ضاقت به فى محنة عزله وعمائه ، فما له من مسكن أو منزل سوى هذا الجسد الهزيل المتعب ،
والطمر الخلق البالى .

أقول : إذا لم نقف طويلاً عند هذا ومثله ، فيجب أن نطيل الوقوف عند اختياره الغريب
لألفاظ الحماطة والحضب والأسود ، وكل سواد ، فى تحية أبى العلاء لابن القارح والتعبير عمّاً
يطوى له من مودة .

وإذا كان أبو العلاء قد بادر بحلّ الإلغاز فيها بما يصرفها عن دلالتها الأصلية المعجمية على
شجر الحماط الذى تألفه الحيات ، وعلى خبيث الثعابين ، والذكر الضخم منها ، فمن الواضح
أنه ركز اهتماماً خاصاً على هذه الدلالة الثعبانية ، وأغرق تحيته فى السواد .
ولا يمكن أن تأتى مثل هذه المقدمة عبثاً ..

ولا من الهين أن نتصور أديباً يرد على رسالة إخوانية تلقاها من أديب حلى ، فيلقاه بتحية

موشحة بالسواد ، مشحونة بأنفاس الحيات بمختلف ضروبها وأنواعها ، وحماطتها
وسمها وتلويها وتقبضها ، وظهورها واختفائها !
كلا .. ليس هذا بمألوف في التعبير عن المودة والاستهلال بالتحية ، ولا عهد لنا بمثله في
تراث الأدب العربي من الرسائل الإخوانية .. القصار أو الطوال التي تجرى مجرى الكتب
المصنفة .

وسرّ المقدمة لا ينجلى إلا إذا ربطناها بعصر أبي العلاء ومحنته به ، وفهمناها في ضوء شخصية
ابن القارح ، كما تبدو من رسالته ، فينحل اللغز الكبير ، لغز إيراد مثل هذه المقدمة الثعبانية
السوداء في مستهل رسالة الغفران .
لقد تمثل أبو العلاء - وهو يصغى إلى رسالة ابن القارح بما تنضح به من شر وخبث ونفاق -
الثعابين والحيات بتلونها وتلويها ونعومتها السامة ، فجاءت تحيته الرمزية ، استهلالاً تلقائياً
لرسالته إلى الرجل الذي قال عنه عندما ذُكر له : « أعرفه خبيراً .. هذا الذي هجا أبا القاسم
ابن المغربي » .

* * *

وفي القسم الثاني من الغفران ، يستهل أبو العلاء رده على ماجاء في رسالة ابن القارح ،
بفصل مثير عن النفاق ، تعليقاً على قول ابن القارح في مستهل رسالته ، يدعو لأبي العلاء :
« جعلني الله فداءه ! » .

القسم الأول

الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر

(جنة الغفران) :

موضوع الحياة الآخرة ، صادق الدلالة على النفس البشرية في عواطفها وأهوائها ، وطموحها وأشواقها ، وهمومها وهواجسها ، وأحلامها ورواها . لكنه ليس بحيث يدرس على هامش دراستنا للغفران ، وهو من الدقة والخصب والسعة بحيث يحتاج إلى الدرس المتخصص ، يفرغ له الدارس ليرى كيف تمثلت الإنسانية عالمها الآخر تفسيراً لما جاءها به الرسل عليهم السلام ، وكيف مثلته في مختلف عصورها وشتى أطوارها .

الذى احتاج إليه هنا إشارة خاصة إلى الحياة الآخرة التى يُظن أن صاحب « الغفران » قد ذكرها أو استحضرها وهو يمثل عالمه البعيد ، مؤثرين الصورة الإسلامية بوافر من عنايتنا لما نرى من تأثيره القريب بها فى تمثل حياته الآخرة .

* * *

فى « الغفران » ملامح واضحة من الجنة الإسلامية لا نتردد فى القول بأنها لم تكد تغيب عن « أبى العلاء » .

وأنبه هنا على لئس قد يوهم أننى أعنى - حين أقول بتأثر « أبى العلاء » بالصورة الإسلامية - أن آخرته نسخة من تلك أو تقليد لها ، إنما الذى أعنيه أنها كانت ماثلة أمامه ، يذكرها وهو ينقل بعض ما يختار من ملاحظها ، كما يذكرها وهو ينحى ملامح أخرى ويختار غيرها من عالمه ودينه ، وأحلامه ورواه . فالتأثر بالشئ ليس معناه التقليد الخالص ، ولا هو يقتضى التوافق التام أو التشابه القريب ، بل هو تمثل وتذكر ، تلتقى فيه صورتان أحياناً وتبتعدان أحياناً أخرى ، تبعاً للعالم النفسى الذى كان يعيش فيه « أبو العلاء » فى ذلك الحين ، حيث نراه يصوغ مادته صياغة فريدة ، تجعل العالم الآخر فى الغفران علائقاً خالصاً .

جنة الغفران

مادتها :

حين ننظر في جنة الغفران ، نستطيع أن نميز بوضوح ملامح من الجنة في القرآن الكريم . وهى الصورة المثالية للجنة فى عقيدة المسلم ووجدان العربى . ومن القدماء من التفت إلى هذا المعنى وقرر فيه أصلاً عاماً « كأبى الريحان البيرونى » فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » .

وما جاء فى القرآن الكريم عن الحياة الآخرة ، يوشك أن يكون من المعروف للمسلمين كافة من دينهم ، فى آيات الله البينات يتلونها ، وتلى عليهم ، صباح مساء . وغير متصور أن يتمثل مسلم الحياة الآخرة ولا يكون فكره ووجدانه عامراً بهذه الآيات .

* * *

من الجنة القرآنية أخذ أبو العلاء أكثر المادة التى صاغ منها جنته ، بحيث يخيل للقارئ المتعجل أن « أبا العلاء » قد نقل الصورة القرآنية ، ولم يزد على أن أضاف عنصرًا هنا أو زاد لونا هناك ، فقد تشابهت الصورتان فى الملاذ والنعم المَعْدَّة لأهل الجنة ، عرضها القرآن الكريم ببيانه المعجز ، وجاء بها « أبو العلاء » بعد أن بالغ فى إبرازها مبالغة تصل إلى الغلو فى أكثر الأحيان ، مضيفاً إليها من عنده كل ما تمثله خياله ، أو رنت إليه رؤاه .

ويطول بنا الحديث لو مضمينا نتبع المواضيع التى أخذت منها مادة الجنة العلامية من الصورة القرآنية ، فبحسبنا المثل والمثالن ، وأما الحصر فله غير هذا المكان .

قال فى (الغفران) فى الجنة المَعْدَّة لابن القارح جزاء افتتاحه رسالته إلى أبى العلاء بتمجيد الله :

« وتجرى فى أصول ذلك الشجر ، أنهارٌ تُخَلج من ماء الحيوان ، والكوثرُ يمدُّها فى كلِّ أوانٍ ، من شربَ منها النعبة فلا موت ، قد أمِنَ هنالك الفوت ، وسعدُّ من اللبن متخرقات ، لا تُغيَّرُ بأن تطول الأوقات ، وجعافرُ من الرحيق المختوم ، عزُّ المقتدر على كل محتوم ..

« ويعارض تلك المدامة أنهارٌ من عسل مُصْفى ، ما كسبته النحلُ الغادية إلى الأنوار ، ولا هو فى مؤمٍ مُتوارٍ ، ولكن قال له العزيزُ القادر : « كن » فكان ، وبكرمه أعطى

الإمكان . وأما لذلك عَسلاً ، لم يكن بالنار مبسلاً ، لو جعله الشاربُ المحرورُ غذاءه طولَ الأبد ، ما قدر له عارضٌ مؤمٍ ، ولا لبسٌ ثوبَ المحموم . وذلك كلهً بدليل قوله تعالى :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (١) .. ص ١٤١ : ١٥٣ (٢) .

* * *

« وكأني به - أدام الله الجمالَ ببقائه - إذا استحق تلك الرتبة يبقين التوبة ، وقد اصطفى له ندامي من أدباء الفردوس : كأخي ثُمالة ، وأخي دَوسٍ ، ويونسَ بن حبيب الضبي ، وابن مسعدة المجاشعي ، فهم كما جاء في الكتاب العزيز :

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرٍّ مُتَقَابِلِينَ . لَا يُمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا مُخْرَجِينَ﴾ (٣) :

فصدرُ أحمدَ بن يحيى قد غُسل من الحقد على محمد بن يزيد ، فصارا يتصافيان ويتوافيان ، كأنهما ندمانا « جُدَيْمة » مالك وعقيل ، جَمَعَهُمَا مبيت ومَقِيل . وأبو بشرٍ عمرو بنُ سيويه ، قد رُحِضَتْ سويداءُ قلبه من الضغن على علي بن حمزة الكِسائي وأصحابه ، لما فعلوا به في مجلس البرامكة . وأبو عبيدة صافي الطوية لعبد الملك بن قُريب ، قد ارتفعت خلتُهما عن الرئب ، فهما كأريدٍ وليدٍ أخوان ، أو ابني نُويرة فيما سبق من الأوان ، أو صخرٍ ومعاوية ولدى عمرو ، وقد أخذنا من الإخن كلَّ جمر .

﴿والملائكةُ يدخلون عليهم من كلِّ بابٍ . سلامٌ عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار﴾ (٤) .. ص ١٦٨ : ١٧١ .

« ويمر ملكٌ من الملائكة فيقول - ابن القارح - : يا عبدَ الله ، أخبرني عن الحور العين ، أليس في الكتاب الكريم : ﴿إنا أنشأناهنّ إنشاءً فجعلناهنّ أبكارًا . عُرْبًا أترابًا . لأصحابِ اليمين﴾ (٥) .

(١) من آية ١٥ سورة محمد .

(٢) الأرقام هنا وفيما يلي ، تشير إلى صفحات الغفران ، من نص رسالة الغفران : ذخائر .

(٣) سورة الحجر ، آيتا ٤٧ ، ٤٨ .

(٤) سورة الرعد ، آيتا ٢٣ ، ٢٤ .

(٥) سورة الواقعة ، الآيات من ٣٥ - ٣٨ .

فإذا مضى به المَلَكُ دليل الرحلة إلى شجر الحور ، وأخذ ثمرةً منها فخرجت له جارية حَوَراءَ عَيْنَاءَ .. سجد إعظاماً لله القدير وقال : هذا كما جاء في الحديث : أعددتُ لعبادى المؤمنين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، بَلَّغَ ما أطلعتهُم عليه « . ص ٢٨٨ .

* * *

والصور الإسلامية بوجه عام :

ومع القرآن الكريم ، ما امتلأت به كسبُ التفسير ، وما تناقله الرواة ، من وصف للجنة التي وُعدَ بها المؤمنون ، ولقد تلوْتُ عليك من قريب ، حديث « الغفران » عن تلك الثمار التي تصل إلى فم الموعود وهو مستلقٍ على الظهر ، وهو ترديد لأقوال مفسرين في تأويل قوله تعالى : ﴿لَهُمْ ما يشاءون فيها ولدينا مزيدٌ﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿فى جنةٍ عاليةٍ . قطوفها دانيةٍ﴾^(٢) .

وفى قصة الحشر وصعوبة الموقف (ص ٢٤٨) ، وعبور الصراط (٢٥٩) ، والشفاعة (٢٥٧) تسمع صدى الأقوال المرددة فى المجتمعات الإسلامية عن الحياة الآخرة فى مثل قول « أبى العلاء » على لسان ابن القارح :

« فجعلتُ أتخلل العالم ، فإذا أنا برجل عليه نور يتلألأ وحواليه رجال تأتلق منهم أنوار ، فقلتُ : مَنْ هذا لرجل ؟ فقيل : هذا حمزةُ بنُ عبد المطلب صريع وحشى ، وهؤلاء الذين حوله مَنْ استشهد من المسلمين فى أحد » (ص ٢٥٢) .

وقوله : « .. وهَمَمْتُ بالحوضِ فكُدت لا أصل إليه ، ثم نغبت منه نغباتٍ لا ظمأ بعدها ، وإذا الكفرةُ يَحْمِلون أنفسهم على الورد ، فتدوهم الزبانيةُ بعصى تَضْطرم ناراً ، فيرجع أحدهم وقد احترق وجهه أو يده وهو يدعو بويلٍ وثبور . فطفتُ على العترة المتنجسين ، فقلت : إنى كنت فى الدار الذاهبة ، إذا كتبت كتاباً وفرغت منه قلت فى آخره : وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى عترته الأخيار الطيبين ؛ وهذه حرمةٌ لى ووسيلة . فقالوا : ما نضع بك ؟ فقلت : إن مولاتنا فاطمة عليها السلام قد دخلت الجنةَ مذ دهر ، وإنها تخرج فى كل حين مقداره أربع وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية ، فتسلم على أبيها وهو قائم لشهادة القضاء ، ثم تعود إلى مُسْتَقْرَها من الجنان ، فإذا هى خرجت كالعادة ، فاسألوا فى أمرى بأجمعكم فلعلها تسأل أباه فى . فلما حان خروجُها ونادى الهاتف : أن « غَضُّوا أبصاركم يا أهل الموقف ، حتى

(١) سورة ق : آية ٣٥ .

(٢) سورة الحاقة : آيتا ٢٢ ، ٢٣ .

تعتبر فاطمة بنت محمد ﷺ « اجتمع من آل أبي طالب خلق كثير ، من ذكورٍ وإناث ، من لم يشرب خمرًا ، ولا عرف قط منكراً ..

» .. وكان فيهم علي بن الحسين ، وابناه محمدٌ وزيد ، وغيرهم من الأبرار الصالحين ، ومع فاطمة عليها السلام امرأةٌ أخرى تجرى مجراها في الشرف والجلالة ، فقيل : من هذه ؟ فقيل : خديجةُ ابنةُ خويلد بن أسدٍ بن عبد العزى ، ومعهما شبابٌ على أفراسٍ من نور » .. ص ٢٥٧ : ٢٥٩ .

ومعذرة عن الإطالة بنقل فقراتٍ أخرى من « الغفران » ، أراها تعكس ظلال المجتمع الإسلامي الأول ، مثل قول : أبي العلاء « على لسان أسدٍ كان يفترس ما شاء من قطعان البقر في الجنة^(١) :

« أتدرى من أنا أيها البزيع - والبزيع بغيام الظريف الذكي - ؟ أنا أسدُ القاصرة التي كانت في طريق مصر ، فلما سافر « عتبة بن أبي لهب » يريد تلك الجهة ، وقال النبي ﷺ : « اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك » ، ألهمتُ أن أتجوع له أيامًا ، وجئتُ وهو نائم بين الرقعة ، فتخللت الجماعةُ إليه ، وأدخلتُ الجنةَ بما فعلتُ .

« ويمرُّ بذئبٍ يقتنص طباء ، فيفنى السريةَ بعد السرية ، وكلما فرغ من ظبي أو ظبية ، عادت بالقدرة إلى الحال المعهودة ، فيعلم أن خطبه كخطب الأسد . فيقول : ما خبرك يا عبدالله ؟ فيقول : أنا الذئب الذي كلمتُ « الأسلمي » على عهد النبي ﷺ ، كنت أقيم عشرَ ليالٍ أو أكثر ، لا أقدر على العكرشة ولا القواع ، وكنتُ إذا هممت بعجبي المعيز ، أسد الراعي على الكلاب ، فرجعتُ إلى الصحابة مُحَرَّقَ الإهاب فتقول : لقد خَطَّبتُ في أفكارك ، ما خيّر لك في ابتكارك . وربما رُميتُ بالسروة فنشبتُ في الأقرب ، فأبيتُ ليلتي لما بي ، حتى تنتزعها السلقة وأنا بأخر النسيس ، فلحقني بركة محمد ﷺ » ص ٣٠٤ : ٣٠٦ .

والشعرُ الجاهلي :

يلى القرآن الكريمَ والمرويات الإسلامية ، في مصادر « أبي العلاء » لمادة الغفران . ويندر أن يخلو مشهد من مشاهد الجنة ، من إنشاد الشعر الجاهلي ، وتشخيص صورهِ فيما قرأت من هذا الشعر . والأمر هنا لا يقتصر على الشعر الذي أورده في (الغفران) شاهدًا على مسائل لغوية أو نحوية ، أو في سياق الحديث عن القضايا الأدبية ، بل يعنينا كذلك أن نلفت

(١) في (رسالة الغفران) طبعت الذخائر ، شرح الغريب من هذه الألفاظ والتعريف بالأعلام وتخرّيج الشواهد .

إلى الشعر الذى تمثل به أبو العلاء ابن القارح وهو يستمتع بنعيم الجنة : وهو مع ندامى الفردوس ، كما قال « الأعشى البكرى » :

نازعتهم قَضْبَ الرِّيحَانِ مَرْتَفِقَا وَقَهْوَةَ مِرْزَةَ رَاوِقَهَا خَضِلُ
لا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهِيَ رَاهِنَةٌ إِلَّا بِ«هَاتِ» ، وَإِنْ عَلَّوْا وَإِنْ نَهَلُوا
يَسْعَى بِهَا ذُو زَجَاجَاتٍ لَهُ نُطْفٌ مَقْلَصُ أَسْفَلَ السَّرِبَالِ مَعْتَمِلُ
وَمُسْتَجِيبٌ لَصَوْتِ الصَّنَجِ يَسْمَعُهُ إِذَا تُرْجِعُ فِيهِهِ الْقَيْنَةُ الْفَضْلُ

ص (١٧٢)

« وتهش نفوسهم للعب ، فيقذفون تلك الآنية في أنهار الرحيق ، ويصفقها الماذى المعترض أى تصفيق . وتترع تلك الآنية فيسمع لها أصوات تبعث بمثلها الأموات ؛ فيقول الشيخ - حسن الله الأيام بطول عمره - : أه لمصرع الأعشى ميمون ، وكم أعمل من مطية أمون ! ولقد وددت أنه ما صدته قريش لما توجه إلى النبي ﷺ . وإنما ذكرته الساعة لما تقارعت هذه الآنية بقوله فى الحائية :

وَشَمُولٍ تَحْسِبُ الْعَيْنُ - إِذَا صَفَّقَتْ - جُنْدُوعَهَا نَوْرَ النَّبِيِّ
مِثْلَ رِيحِ الْمِسْكِ ذَاكَ رِيحُهَا صَبَّهَا السَّاقِي إِذَا قِيلَ : تَوَحَّ
مِنْ زَفَاقِ التَّجْرِ فِي بَاطِنِيَّةٍ جَوْنَةَ حَارِيَّةٍ ذَاتِ رَوْحٍ
ذَاتِ غُورٍ مَا تُبَالِي يَوْمَهَا غُرْفَ الْإِبْرِيقِ مِنْهَا وَالْقَدْحِ

ص (الأيات) ١٧٣

ومن السمات الواضحة (للغفران) ، أن « أبا العلاء » يحشد فى جنته تلك الملدات التى تغنى بها الشعر القديم ، ويأتى بها مشخصة مثلة ، فيما يستمتع به ابن القارح وهو يترنم برؤى قدامى الشعراء ، أو ينشد أشواقهم ومواجدهم ومواجههم . فهو فى النزهة يرفع صوته متمثلاً بشعر « البكرى » :

لَيْتَ شِعْرِي مَتَى تَعَبُّ بِنَا النَّا قَةً نَحْوَ الْعَدِيْبِ فَالْصَّبِيُوْنَ ؟

ص ١٧٦

وهو فى الصيد ، يذكر قصيدتى « عدى بن زيد » :

وَلَقَدْ أَغْدُو بِطِرْفِ زَانِهِ وَجْهٌ مِّنْزُوفٍ وَخَدٌّ كَالْمِسْنِ

ص ١٩١

وَمَجُودٍ قَدْ اسْتَجَهَّرَ تَنَاوِيرِ كَلَوْنَ الْعَهُونَ فِي الْأَعْلَاقِ

ص ١٩٣

ويقدم من شعراء جنته « أبا ذؤيب الهذلي » يحتلب ناقةً في إثناء من ذهب ، ذاكراً
قوله في الدهر الأول :

وإن حديثاً منك لو تعلمينه جنى النحل في ألبان عوذٍ مطافل
مطافيل أبكارٍ ، حديثٍ نتاجها تُشاب بماءٍ ، مثل ماء المفاصل

ص ١٩٩

« ويعرض له - أدام الله الجمالَ ببقائه - الشوقُ إلى نظرِ سحابٍ كالسحابِ الذي وصفه
« عبيد » في قوله :

إني أرقْتُ ولم تارقْ معي صاحِبُ لِمُسْتَكِفٍ بُعِيدَ النَّوْمِ لَمَّاحِ

..
فينشئُ الله - تعالت آلاؤه - سحابةً كأحسن ما يكون من السُّحُبِ .

ص ٢٧٥

« .. ويخلو - لا أخلاه الله من الإحسان - بحوريتين له من الحور العين ، فإذا بهره ما يراه
من الجمال قال : أُعْزِزْ عَلَيَّ بِهَلَاكِ الْكَنْدِيِّ ! إني لأذكرُ بكما قوله :

كدأبك من « أم الحويرث » قبلها وجارتها « أم الرباب » بمأسل
إذا قامتَا تَصَوَّغَ الْمَسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيًّا الْقَرْنُفُلُ

..

« ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رُضابها ويقول : إن امرأ القيس لِمِسْكِينٍ مِسْكِينٍ !
تحترق عظامه في السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المدام وصبوب الغمام وريح الخرامى ونشر القطر
يعلُّ به بردُ أنيابها إذا غرَّد الطائرُ المستجرُ

ص ٢٨٤ : ٢٨٦

وقد بلغ من تشخيص « أبا العلاء » صورَ اللذة في الشعر الجهلي أن جعل إحدى الحوريات
تعى دورها على المسرح ، حين يقول لها صاحبها « ابن القارح » :

« .. فاتبعيني بين كتب العنبر وأتقاء المسك . فيتخلل بها أهاضيب الفردوس ورمال
الجنان ، فتقول : أيها العبد المرحوم ، أظنك تحتذى بي فعال الكندي في قوله :

بقمتُ بها أمشى تجر وراءنا على إثرنا أذيالَ مرطٍ مُرحلٍ
فلما أجزنا ساحة الحى واتحى بنا بطنُ خبثِ ذى قفاف عقتل
هصرتُ بفؤدى رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ربا المخلخل

١١٥

فيقول : العجبُ لقدرةُ الله ! لقد أصبتِ ما خطر في السويداء ، فمن أين لك علمٌ بالكندى ؟ « ص ٣٧٢ : ٣٧٣ .
على مثل هذا النحو ، ترى في جنة (الغفران) ، صوراً من الشعر الجاهلي جاء بها « أبو العلاء » ماثلة مُشخصة^(١) .

* * *

والأساطير :

وإذا كانت (الغفران) تدين بالكثير من مادتها إلى الصور الإسلامية لتعيم الآخرة ، وصور الشعر الجاهلي في الملمات المادية ، ففيها كذلك ملامح من الأساطير التي حفظتها الذاكرة العربية من تراثها القديم ، منها مثلاً : ما ذكره عن شجر الحور استجابة لطلب ابن القارح ، حيث يقوده إليه ملك من الملائكة ويقول : « خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها ، فإن هذا الشجر يُعرف بشجر الحور ، فيأخذ سفرجلةً أو رمانة أو تفاحة ، أو ما شاء الله من الثمار ، فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء ، تبرق لحسنها حوريات الجنان ، فتقول : من أنت يا عبدالله ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، فتقول : إني أمتي بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة » ص ٢٨٨ .

وقوله : « ويذكر - أذكره الله بالصالحات - الأبيات التي تنسب إلى الخليل بن أحمد ، وأنها تصلح لأن يُرَقصَ عليها ، فينشئ الله القادرُ بلفظِ حكمته شجرةً من عَفْرِزٍ - وَالْعَفْرِزُ : الجوز - فتونع لوقيتها ، ثم تنفض عددًا لا يحصيه إلا الله سبحانه ، وتنشق كل واحدة منه عن أربع جوارٍ يُرَقن الرأتين ، ممن قُرب والنائين ، يرقصن على الأبيات .. » ص ٢٧٩ .
وتستطيع في سهولة ويُسر أن ترد هذا المشهد ، إلى الأسطورة الشعبية عن شجر الحور الذي زعموا أنه ينبت في جزيرة الوقواق ، « تلك الشجرة التي تحمل ثمرًا من نساء ، يمتن إذا فصلن عن فروعهما » . ورد ذكر جزر الوقواق في (مروج الذهب للمسعودي) ، وفي (حديث السنديباد القديم - للأستاذ الدكتور حسين فوزي)^(٢) تفصيل لهذه الأسطورة وصددها في تراثنا ، كما نجد مثل هذه الأحاديث الأسطورية عن الوقواق ، والحورية التي خرجت من السمكة ، في كتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، لذكريا القزويني)^(٣) . وفي قصص (ألف ليلة وليلة) قدر من مثل هذه الأسطوريات غير قليل .

(١) انظر شواهد أخرى ، فيما يلي من مباحث (أبي العلاء في جنته) .

(٢) طبع في القاهرة - عام ١٩٤٣ م .

(٣) انظر صفحتي ١٢٦ ، ١٠٥ ط التقدم .

أبو العلاء في جنته

ذكرت أن «أبا العلاء» أخذ المادة التي صاغ منها جنته ، من القرآن الكريم والصورة الإسلامية للجنة ، ومن الشعر الجاهلي . والأساطير التي عرفها العرب ، وقد نبّهتُ - بادئ ذي بدء - إلى لبسٍ ربما يخيل للرأى المتعجل أن «أبا العلاء» جمع مادته من هذه المصادر ، ثم عكف على تنسيقها وإبراز بعض عناصرها أو إضافة لون إليها ، فالواقع أنه - وإن التمس مادته من المصادر التي أشرنا إليها - قد صاغ هذه المادة صياغة فريدة ، لها طابعها المميز ، وأفرغها في قالب الذي اختاره أو اختارته له ظروفه الخاصة بكل ما يفردا ويميزها عن سواها . فلم يكن ينقل ما ينقل من الصور القديمة إلا متأثراً بعالمه النفسى الخالص ، ولا يرسم ما اختار من أجزائها إلا بعد أن تعبر دنياه ، وتمر بكل ما تضطرب به من أشواق وهموم ، وما تنفعل به من عواطف وهواجس ، وما تحسه من آلام وآمال .

ولن تجد في جنته موضعاً لم تحف به ظلال من ذلك العالم النفسى ، ولم تميزه عناصر وألوان من تلك الدنيا الخاصة ، ومن ثم كانت صورة فريدة ، ميزها طابع أصيل أفسح للغفران مكانه في تراث الإنسانية للحياة الآخرة .

* * *

ولو أن جنة (الغفران) كانت نسخة جامعة لصور الجنة في الأفق العربى ، لما كان لها في تراثنا الأدبى هذا المكان المرموق ، وإنما هى جنة علائمة خالصة متميزة ، يستطيع المتأمل أن يرى فيها شخص صانعها . ولو عُرضت صورتها على خبير بالنفس الإنسانية وأخفى عنه اسمُ راسمها ، لحكم فى غير تردد بأنها :
جنة إنسان حبيس مقيد ، محروم ، ضريح ، أديب شاعر ، راوية .
وذلك هو أبو العلاء كما عرفته
وأضى فى تفصيل هذا الذى أجملته .

١ - جنة السجين المقيد :

وأول ما يلفت النظر فى جنة (الغفران) ، براءتها من الفراغ والسكون ، وخلوها من التعطل والجمود ، فهى حافلة بالحركة والحياة ، غنية بالعواطف الإنسانية ، زاخرة بالانفعالات النفسية العنيفة الحادة .

قَابُو العلاء يعقد في جنته مجالس المدامة ، وقد اصطفى لابن القارح فلاناً وفلاناً من أدباء الفردوس . « وَمَنْ أَحَبَّ مِنْ ظُرَافِ الندماء » ص ١٦٨ : ١٧٥^(١) .
 وهو يَأدب المآدب الخافلة ، والحفلات الفاخرة ، ويدعو للضيافة (٢٦٨ : ٢٨٠) ويخطر له شيء كان يسمى التزهة في الدار القانية ، فيركب نجيباً من نجب الجنة (١٧٥) . ويخرج للصيد (١٩٧) ، ويزور للتهنئة (١٩٥) .

ويملاً أرجاء الجنة غناء : فهذه إحدى الحور ترنم بقصيدة « النابغة » :
 مِنْ آلِ « مية » رَائِحٌ أَوْ مَعْتَدٍ عَجَلَانٌ ذَا زَادٍ وَغَيْرِ مَزُودٍ

ص ٢١٣

وأخريات يُلحَنُّ قَوْلَ « المخبّل السعدى » :
 ذَكَرَ الرِيَابَ وَذَكَرَهَا سَقْمٌ وَصَبَا ، وَوَلِيسَ لِمَنْ صَبَا عَزْمٌ
 وَإِذَا أَلَمَ خِيَالُهَا طَرِيفٌ عَيْنِي فَمَاءٌ شَمُونَهَا سَجْمٌ
 « والجرادتان » ، ترجعان قول القائل :

وَدَعَّ لَمِيسَ وَدَاعَ الوامِقِ اللّاحِي

ص ٢٧٥

وقينة تُسمع الندامى قولَ « جِرَانِ العَوْدِ النميري » :
 حَمَلَنَ جِرَانَ العودِ حَتَّى وَضَعَهُ بَعْلِيَاءَ فِي أَرْجَائِهَا الجِنُّ تَعْرِفُ
 نَهَ وَأَحْرَزْنَ مَنَا كُلَّ حُجْرَةٍ مَثَرٍ لَهْنٌ ، وَطَاحَ النَوْفَى المَزْحَرَفُ
 وَقَلْنَ : تَمَتَّعَ لَيْلَةَ النَّأَى هَذِهِ فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ غَدَاً ، أَوْ مُسَيِّفٌ

ص ٢٧٧

وجواري الفردوس يرقصن على أبيات منسوبة إلى الخليل (٢٧٩) .
 وفي جنته ، يقول ابن القارح للناطقة الجعدى : « يَا أَبَا لَيْلَى ، إِنْ اللهُ جَلَّتْ قَدْرَتُهُ قَدَمٌ مِنْ عَلَيْنَا بِهِوَلَاءِ الحور العين اللواتي حوّلن عن خلق الإوز ، فاختر لك واحدة منهن ، فلتنهب معك إلى منزلتك تلاحنك أَرْقُ اللَّيْحَانِ ، وتسمعك ضروب الألحان . فيقول لبيد بن ربيعة : إن أخذ أبو ليلي قينة ، وأخذ غيره مثلها ، أليس يتشر خيرها في الجنة فلا يؤمن أن يُسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز ؟ فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان » ٢٣٤ .
 وقد تشدد الحركة في الجنة فتصير ضجيجاً ، ويعلو الصوت فيصير صياحاً وجعجعة ، هنالك تسمع رُعَاءَ العُكْرِ وَيُعَارِ المَعْرِزِ ، وَوَتُوجُ الضَّانِ ، وَصِيَا حِ الدِّيَكَةِ (٢٧١) . كما تسمع

(١) الأرقام تشير إلى مواضع الفقرات في « رسالة الغفران » ط ثمانية ذخائر .

الأرجاء المنشأة على الكوثر، تُجمع لطحن بُرٍّ من بُر الجنة (٢٦٨) ، وتدور فيها البهائم من جمال وأبق و صنوف البغال والبقر وبنات صَعْدَةَ ، أى حمر الوحش (٢٧٠) .

بل قد تعنفُ الحركة حتى نصيرَ شجاراً وعريدةً ، ويشب « نابغة بنى جعدة » على « الأعشى » فيضربه بكوز من ذهب ، فيقول « ابن القارح » : « لا عريدة في الجنان ، إنما يُعرفُ ذلك في الدنيا الفانية بين السَفَلَةِ وَالْهَجَاجِ » (٢٣١) .

ولن نجد شيئاً لهذه الحركة في جنة القرآن الكريم التي يسودها السكون والسلام ، وهو قد لزم بيته تسعة وأربعين عاماً رهين مَحْبِسِيهِ ، لم يخرج منه إلا مرةً واحدةً يتيمةً ، حين سفر لقومه عند « صالح بن مرداس » ، فلا عجب أن يتخيل جنته عامرة بالحركة .

على أن هذه الحركة المادية الحسية ، لا تكاد تقاس إلى الحركة النفسية العنيفة التي تموج بها جنة « الغفران » ، وتضطرب بها نفوس الموعودين بها ، وينفعلون انفعالات حادة ، تبعدنا عن ذلك السلام الذي يسود جنة القرآن .

ذلك أن « أبا العلاء » لم يشأ أن يرى أهل جنته من التعجب (٢١٢ ، ٢٣١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٣٦٤ ، ...) .

ومن الحنين : هذا يمن إلى الصيد (١٨٦) وذلك يشاق الاحتلاب (١٩٩) .
ومن التشوف والانتظار والعتاب : « فإذا ضرب في غيطان الجنة ، لقيتهُ الجارية التي خرجت من تلك الشجرة - من شجر الحور - فتقول : إني لأنتظرُك منذ حين ، فما الذي شجك عن المزار ؟ ما طالت الإقامة معك ، فأملِّ بالخواورة مسمعك . قد كان يحق لي أن أوثر لديك على حسب ما تنفرد به العروس ، يَخُصُّهَا الرجلُ بشيء دون الأزواج .. » (٣٧٢) .

ومن الإشفاق : « عدى بن زيد » يدعو « ابن القارح » إلى الصيد فيقول مشفقاً : « إنما أنا صاحبُ قلمٍ وسلم ، ولم أكنُ صاحبَ خيل ، ولا مِمَّنْ يسحبُ طويلَ الذيل ، وما يُؤمِنُنِي إذا ركبتُ طرفاً زَعِلاً ، رتع في رياض الجنة قاضٍ من الأشرِ مُسْتَسْعِلاً ، وأنا كما قال القائل :

لم يركبوا الخيل إلا بعد ما كبروا فهم ثقَالٌ على أكتافها عُفُ

أن يلحقني ما لحق « جَلَمًا » صاحبَ « المتجردة » لما حُمِلَ على اليعقوم ... ويجوز أن يقذفني السابجُ على صخورٍ زُمُرْدٍ ، فيكسر لي عضداً أو ساقاً ، فأصير ضُحْكَةً في أهل الجنان » (١٩٦) .

ومن الحذر : كالذي رأيت من إضراب الندامى عن اقتسام القيان اللواتي كن إوزاً ، خشية أن يُسَمَّوا « أزواجَ إلاوز » (٢٣٤) .

ومثل الذي تسمعه حين تخاصم النابغة الجعدي والأعشى : « فيريد - بلغه الله إرادته -

أن يصلح بين الندماء فيقول : يجب أن يُحذر من مَلِكٍ يَعْبُرُ فيرى هذا المجلس ، فيرفع يديه إلى الجبار الأعظم ، فلا يجزُّ ذلك إلا إلى ما تكرهان ، واستغني ربنا أن تُرْفَع الأخبارُ إليه ، ولكن جرى ذلك مجرى الحفظة في الدار العاجلة ، أما علمتما أن آدم خرج من الجنة بذنب حقير ، فغير آمنٍ مَنْ وَكَدَ أن يُقَدِّرَ له مثلُ ذلك « ٢٣٣ .

ومن الإغراء : تقول إحدى حيات الجنة لابن القارح : « ألا تقيم عندنا برهة من الدهر؟ فإني إذا شئت انتقضتُ من إهابي فصرتُ مثلَ أحسنِ غواني الجنة ! لو ترشفتَ رُضاي لعلمتُ أنه أفضلُ من الدراية التي ذكرها « ابن مقبل » في قوله :

سقتني بصهباءِ درياقة متى ما تَلَّينَ عظامي تَلِّينُ

ولو تنفستُ في وجهك ، لأعلمتُك أن صاحبةَ « عنتره » تَفَلُّ صَدُوف - الصَّدُوف : الكريهة رائحة الفم - وإنما تعنى قوله :

وكان فارة تاجرٍ بتسيمية سبتتُ عوارضها إليك من الفم

ولو أدنيتَ وسادك إلى وسادي ، لفضلتني على التي يقول فيها القائل :

باتت رقوداً وسار الركب مُدْلِجاً وما الأوانسُ في فكرٍ لسارينا

... ..

« ولو أقمتَ عندنا إلى أن تخبر وُدنا وإنصافنا ، لندمتَ إن كنتَ في الدار العاجلة قتلتَ حيه أو عثماناً « ٣٧٠ .

ولا يكره « أبو العلاء » أن يذيقَ أهل الجنة الفزعَ ، والذعرَ ، فإن القارح يسمع إغراء الحية « فيذعرَ منها - جعل الله أُمَّه متصلاً - ... ويذهب مهرولاً في الجنة « ٣٧٠ .

كما يذيقهم الغيظَ ، والغضبَ : ترى « النابغة الجعدي » يغيظُ « الأعشى » وترى « الأعشى » يرد عليه مستثاراً ، وينهض نابغة بنى جعدة مغضباً ، وتسمع « المازني » يعرض بالأصمعي فيثور وينهض كالمغضب ٢٨٤ .

كما لا يمنعه وجودهم في الجنة من مواهبتهم بالخيبة ، مرةً بعد مرة : يخرج باين القارح للصبيد ، « فإذا نظر إلى ضوايرٍ ترتع في دقاري الفردوس - والدقاري : الرياض - ... صوبَ مولاى الشيخ المطرد - وهو أترج القصير - لأخنسَ ذبَّال ، قد رتع هناك طويلَ أيامٍ ولبالى ، فإذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيدُ ظُفُرٍ قال : أمسِكْ ، رحمتُ الله ، فإني لست من وحش الجنة التي أنشأها الله سبحانه ولم تكن في الدار الزائلة ، ولكنى كنتُ في مجلة الغرور أروود في بعض القفار ، فمرَّ بى ركبٌ مؤمنون قد أكرى زادهم ، فصرعوني واستعانوا بى على السفر ، فعوضنى الله - جلَّتْ كلمته - بأن أسكننى فى الخلود . فيكفَّ عنه مولاى الشيخ الجليل . ويعمدُ لعلج وحشى ، ما التلفُ عنده

بمخشي ، فإذا صار الخرصُ منه بقدرِ أنملة ، قال : أمسِكْ يا عبد الله ، فإن الله أنعم عليّ ورفع عني البؤس ، وذلك أني صادني صائدٌ بمخلب ، وكان إهابي له كالسلب ، فباعه في بعض الأمصار ، وصراهُ للسانية - أي السقاة - صار ، فاتخذَ منه عربٌ ، شفيَ بمائه الكربُ ، وتطهر بنزيعه الصالحون ، فشملتني بركة من أولئك ، فدخلتُ الجنةَ أرزقُ فيها بغير حساب « ١٩٧ .

ولم يُخلُ جنته من الخصام . كالذي يأتي من مشاهد مسرح الغفران بين « النابغة الجعدي والأعشى » وبين « المازني والأصمعي » .

ومن التنايز واللمز والتعير : فالأعشى يقول للجعدي : « قد طال عمرك يا أبا ليلى ، وأحسبك أصابك الفندُ ، فبقيت على فندِكِ إلى اليوم » . والجعدي يجيب : « أتكلمني بمثل هذا الكلام يا خليع بنى ضبيعة ، وقد مت كافرًا وأقررت على نفسك بالفاحشة ؟ !
وتشتد الخصومة بينهما فتشبه أن تكون منافرة يقول فيها الجعدي :

« أغرّك أن عدك بعضُ الجهال رابعَ الشعراء الأربعة ؟ وكذب مُفضُّلك ، وإني لأطولُ منك نفسًا ، وأكثرُ تصرفًا ، ولقد بلغتُ بعددِ البيوت ما لم يبلغه أحدٌ من العرب قبلي ، وأنت لاه بعفارتك تفتري على كرائم قومك ، وإن صدقتَ فخرًا لك ولمقارَكَ . فيغضب أبو بصير ويقول : أتقول هذا وإن بيتًا مما بنيتُ كيعدلُ بمائة من بنائك ؟ وإن أسهبتَ في منطلقك فإن المسهب كحاطب الليل ، وإني لفي الجرثومة من ربيعة الفرس ، وإنك لمن بنى جعدة ، وهل جعدة إلا رائدةٌ ظليم نفور ؟ أتعيرني مدحَ الملوك ، ولو قدرتَ يا جاهلُ على ذلك لهجرتَ إليه أهلك وولدك ، ولكنك خلقتَ جبانًا هذانًا ، لا تدلجُ في الظلماء الداجية ، ولا تهجرُ في الوديقة الصاخدة « ٢٣٠ .

كما تشتد الخصومة بين « المازني والأصمعي » ، فيتبادلان من التعريض والتعير ما لم تكن تنتظر أن تسمع مثله في الجنة (٢٨٣) .

ويمر « حسنُ بن ثابت » بمجلس الندماء ، فيقول قائلٌ منهم : « كيف جبنك يا أبا عبد الرحمن ؟ » ٢٣٤ .

ويبلغ الانفعالُ ببعض أهل الجنة أقصاه ، فيخرجهم عن طورهم ، وتراهم يتضاربون (٢٣١) ويتلاحون ويتشاتمون ، ويشمتون (٢٣٢) .

فمن عَجِبَ كيف يبلغ الانفعالُ بأهل الجنة العلائقية أقصى المدى ، وقد عرفنا أبا العلاء ساكنًا في محبسه ! فلنذكر أنه حلُم المقيد الحبيس .

* * *

٢ - جنة المحروم :

يشق علينا أن نتبع ما فى جنة « الغفران » من صنوف الم لذات ، فما الأمرُ فى هذا أمر إحصاء ، لأنه ملء هذه الجنة .

ولا تنتظر أن يُحرّم « أبو العلاء » الخمرَ واللحوم والنساء فى جنته كما فعل فى دنياه ، بل انظره يتفنن فى ملء هذه الجنة بما شاء له حرمانه من كل ذلك . وإنها لخمير لم يحلم بمثلها كل وُصافِ الخمر (١٤٩ ، ٣٧٧) .

ولحوم شهية من « الطير الرائعة فى رياض الجنة » ، ومن الضأن والمعز والبقرة والإبل ، وأبجاج العكارم وجوازل الطواويس ، والسمن من دجاج الرحمة وفراريج الخلد (٢١٠ - ٢٧١) .

وينقل من حديث المأدبة التى أديها ابن القارح فى الجنة :

« ويعبر بين الأكراس - أى الجماعات - طاووس من طاوويس الجنة يروق من رآه حسناً ، فيشتهيه أبو عبيدة مَوصُوباً ، فيتكون كذلك فى صحيفة من الذهب ، فإذا قضى منه وطراً انضمت عظامه بعضها إلى بعض ، ثم تصير طاووساً كما بدا .

« وتمر إوزة مثل البخية ، فيتمناها بعض القوم شواءً ، فتتمثل على خيوانٍ من الزمرد ، فإذا قُضيت منها الحاجة عادت بإذن الله إلى هيئة ذوات الجناح ! ويختارها بعض الحاضرين كَرْدَنَاجًا ، وبعضهم معمولة بِسْمَاقٍ ، وبعضهم معمولة بِلَبِنٍ وِخْلٍ ، وغير ذلك ، وهى تكون على ما يريدون .. » ٢٨٠ : ٢٨٣ .

والملاحظ هنا أن « أبا العلاء » إذ يخالف مذهبه فى تحريم ذبح الحيوان ، لم ينس أن يحتاط بمثل قوله حين ارتفع صياح الطير والغنم لرؤية المدينة قبل أن تذبح للمأدبة : (وذلك كله بمحمد الله لا ألم فيه ، وإنما هو جدٌ مثلَ اللعب) ٢٧٠ .

وقوله على لسان « أسد القاصرة » : « وكذلك أنا أفتس ما شاء الله ، فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ، ولكن تجد من اللذة كما أجد ، بلطف ربها العزيز » ٣٠٥ .

وأما النساء فى جنة « أبى العلاء » فلهن مكانٌ وأى مكانٌ !! « أين منهن ما وصف شعراء الغزل من قديم الزمان » ؟ ! إن الواحدة منهن لتفضل جميلات الدنيا ، « فضل الدرّة المختزنة على الحصاة الملقاة ، والخيرات الملتصمة على الأعراض المتقاة » ٢٢١ .

على أن الأمر فى (جنة الغفران) ليس مجرد حشدٍ لأصناف المتع المشتهاة ، بل إن فيها شهوات مصورة طافت بخيال المحروم وهو يتمثل ولع ابن القارح بالمتع الحسية ، فجاء بها ماثلة مشخصة . وقد نقلنا بعض مشاهد من ذلك فى حديثنا عن ظاهرة التشخيص فى أسلوبه . كذلك المشهد الذى نرى فيه « ابن القارح » مع صاحبه من الحور العين وهو يقول لها :

« فاتبعيني بين كتب العنبر وأثناء المسك ، فيتخلل بها أهاضيب الفردوس ورمال الجنان ، فتقول : أيها العبد المرحوم ، أظنك تحذى بي فعال « الكندى » فى قوله :

فَقَمْتُ بِهَا أَمْشَى تَجْرُ وَرَاءَنَا عَلَى إِثْرِنَا أَذْيَالَ مَرَطٍ مَرَحَلٍ

« ويعرض له حديثُ امرئ القيس فى دارة جلجل ، فينشئُ الله - جلَّت عظمته - جوراً عِيناً يتماقلن فى نهر من أنهار الجنة ، وفيهن من تفضلهن كصاحبة امرئ القيس ، فيترامين بالثرمد ، وإنما هو كأجل طيب الجنة ، ويعقرهن الراحلة ، فيأكل ويأكلن من بضيعها ، ما ليس تقع الصفة عليه من إمتاع ولذاعة » ص ٣٧٣ .

ومثل ذلك المشهد الذى يذكر فيه « الأبيات التى تنسب إلى الخليل بن أحمد - والخليل يومئذ فى الجماعة - وأنها تصلح لأن يُوقَصَ عليها ، فينشئُ الله القادر بلطف حكمته شجرة من عفز- والعفز : الجوز - فتزوع لوقتها ، ثم تنفض عددًا لا يحصىه إلا الله سبحانه ، وتنشق كل واحدة منه عن أربع جوارٍ يُوقِنُ الرائين ، ممن قرب والنائين ، يوقصن على الأبيات المنسوبة إلى « الخليل » وأولها :

إِن الْخَلِيطَ تَصَدَّعَ فَطَرْتُ بِدَائِكَ أَوْ قَعَّ

فتهتز أرجاء الجنة « (٢٧٩) .

« ويذكر - أذكره الله بالصالحات - ما كان يلحق أخا الندام ، من فتورٍ فى الجسد من المدام ، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن يتزف له لب ، ولا يتغير عليه حب ، فإذا هو يخال فى العظام الناعمة ديبب نعل ، أسرى فى المقمرة على رمل ، فيترنم بقول إياس بن الأرت :
أَعَادَلْ لَوْ شَرِبْتَ الْخَمْرَ حَتَّى يَظُلَّ لِكُلِّ أُنْمَلَةٍ دَيْبِبُ
إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَعَلِمْتَ أَنِّي لِمَا أَتَلَفْتُ مِنْ مَالِي مَصِيبُ

ص ٣٧٧ ، ٣٧٩

إلى مثل ذلك المدى البعيد ، استغرق المقيد الحبيس المحروم ، فى تشخيص اللذات المادية . وإذا كان فى كل ما ساقه من شهوات مصورة ، إنما يصور ما يُقدَّرُ أنه يرضى ابن الفارح ويلائم مزاجه وهواه ، فقد بقى أن ندرك ما لهذا التفتن فى تشخيص اللذات المادية والشهوات الحسية ، من دلالة على نفسية المحروم ، وأثر القيود الباهظة التى فرضها على نفسه منذ عاد محزوناً من رحلته إلى بغداد .

ولندكر معه أن أبا العلاء يؤثر أن تكون جنته جنة بشر .

ومن هنا حفلت جنة الغفران بأشواقِ البشرية وشهواتها ، وأهلها كما عرفهم فى الدنيا ، بكل

ما فى بشريتهم من ضعف وقصور وأهواء ، وما أكثر ما تراه يمعن فى تقرير هذه البشرية فيصف بعض أهل الجنة بعدم الفهم ، والنسيان ، والغفلة ، والعقوق ، والتماس المنوع . ولا يحول الوجود فى جنته دون أن تسمع من أهلها من يقول فى مجالس جنة الغفران : « ما أراك تفهم ما أقول » .

« أفنسيّت يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكرُ العرب ؟ » .

« لقد غفلتَ أيها المؤمن وأضعت ! » .

« أبيتُم - يا بنى آدم - إلا عقوقاً وأذية ! » .

« ألم تنهوا عن الشمات يا بنى آدم ؟ ولكنكم بحمدِ الله ما زُجرتُم عن شىء إلا ركبتموه » .

... ..

* * *

وقد يلفت النظرَ هنا أن « أبا العلاء » يُحب أن تكون فى جنته ملاحظ من دنيانا المألوفة . ومن ذلك ما تراه فيها من لافئات القصور ، ووجود أحياء سكنية بالجنة على النحو الذى ألفوه فى هذه الدنيا ، ذلك مثل قوله :

« وينظر الشيخ فى رياض الجنة فىرى قصرين مُنيفين ، فيقول فى نفسه : لأبلغن هذين القصرين ، فأسأل لمن هما ؟ فإذا قُربَ منهما رأى على أحدهما مكتوباً : هذا القصر لزهير بن أبى سلمى المزنى . وعلى الآخر : هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسدى .. » (١٨٢) .

« ويعرض لهم لبيد بن ربيعة ، فيدعوهم إلى منزله بالقيسية ، ويقسم عليهم ليذهبن معه .. » ٢٥٢ .

ومن ذلك أيضاً ، ما تراه عند « أبى العلاء » من ميل واضح إلى أن يتمتع أهل جنته بما ألفوه أو اشتاقوه فى دنياهم : « فعدى بن زيد » يسأله ابن القارح عن شعره فيجيب : « دعنى من هذه الأباطيل ، ولكنى كنت فى الدار الفانية صاحبَ قنص .. فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنة فنبعثهما على صيرانها ، ونخيطان نعامها ، وأسرابٍ ظيائها ، وعاناتٍ حُمُرُها ، فإن للقيص لذة ؟ » (١٩١ ، ١٩٥) .

« أبو ذؤيب » ، لا يمنعه وجود أنهار لبن فى الجنة ، من أن يشتهى أن يحتلب ناقة ، فيكون له ما اشتهى وأراد « ويقوم فيحتلب على العادة » .

وحين يحب الشيخ أن يصنع مأدبة فى الجنة ، « يخطر له أن تكون كمآدب الدار العاجلة » ١٩٩ .

ويأتى الشيخ أن يجيء الطعام لضيوفه جاهزاً ، ويختار أن تُنشأ أرحاء على الكوثر لطحن البرّ « فإذا اجتمع من الطحن ما يُظن أنه كاف للمأدبة ، تفرق خدمه من الولدان المخلدن ،

فجاءوا بالبقر والغنم والطيور لِتُعْتَبَطَ ، ثم قال : أحضروا منَ فى الجنة من الطهارة الساكنين بحلب على ممر الأزمان » ٢٧١ .

ويخطر له ذكر شراب الفُقَاع الذى كان يُعمل فى الدار الخادعة ، « فَيَجْرِى اللهُ بِقُدْرَتِهِ أَنْهَارًا مِنْ فُقَاعٍ ، الْجِرْعَةُ مِنْهَا لَوْ عُدَّتْ بِلذَاتِ الْفَانِيَةِ مِنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَى يَوْمِ تُطْوَى الْأُمَمُ الْآخِرَةُ ، لَكَانَتْ أَفْضَلَ وَأَشْفَى ، فَيَقُولُ فى نَفْسِهِ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ ، وَالَّذى أُرِيدُ ، نَحْوُ مَا كُنْتُ أَرَاهُ مَعَ الطَّوَّافِينَ فى الدارِ الذَّاهِبَةِ . فَلَا تَكْمَلُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ حَتَّى يَجْمَعَ اللهُ كُلَّ فُقَاعِيٍّ فى الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْبِلَادِ ، بَيْنَ أَيْدِيهِمُ الْوَلْدَانَ الْمَخْلُودِينَ بِحَمَلُونَ السَّلَالِ إِلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ .. » (٢٨٠) .

وللدراة النفسية مجالها هنا ، تقف عند لفظ (العادة) الذى يكره « أبو العلاء » فيما يشتهى أهل جنته من متع دنياهم ومألوف لذاتهم .

ولا يحتاج أحدهم إلى أن يعبر عما يشتهى ويطلب ما يشواق ، بل يكفى - كما ترى فى صفحات ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ من الغفران - أن تخطر له الخاطرة ، أو يهيج فيه الشوق ، حتى يجد ما يريد مائلاً بين يديه « فَعَزَّ إِلَهُنا الْقَدِيمَ الَّذى لَا يَعْجِزُهُ تَصْوِيرُ الْأُمَمِ ، وَتَكْوِينُ الْمَوَاجِسِ مِنَ الظُّنُونِ » (٢٧٦) .

هى جنة بشر ، مقيد ، قضى على نفسه بالحرمان من كل لذات الدنيا المادية ، فلما تمثل ابن القارح فى الجنة - وهو ممن عكفوا فى دنياهم على المتع الحسية - أغرقه فيما يمتعه . وأسعفته على تشخيص اللذات ، عزلته القاسية ، وحرمانه الباهظ .

* * *

٣ - جنة الضير :

على أن الجنة ، لن تكون جنة لأبى العلاء ؛ إذا لم يرتد بصيراً ! كل النعم لن تكون عنده شيئاً إذا كتب عليه أن يُحرم نعمة البصر فى الآخرة ، كما حرّمها فى الدنيا .

و « أبو العلاء » لا يجرو على أن يتمثل جنة بها تسمى ، وإنما لئلا يعلل نفسه بهذه الرحلة التى يطوف فيها بجنته بعينين مبصرتين أقوى ما يكون الإبصار .

ولن تسمع فى جنته شكوى من عاهة أو داء : كل من امتحن فى الدنيا بشيء من ذلك ، رُفِعَ عَنْهُ فى الآخرة ، بل إن أبى العلاء لا يكفيه أن تُرْفَعَ الحنة ، ويعود المبتلى كغيره من الناس ، لا يكفيه أن يرتد الأعمى بصيراً ، والأعشى أحور ، والمهرم شاباً ، والسوداء بيضاء ، وإنما يُعَوِّضُ الْمُتَمَحِّنَ فى الأولى تعويضاً لا يقترح مثله سوى المبتلى المحروم : فأحد أهل الجنة بصراً ، هم الذين حرّموا نعمة الإبصار فى الدنيا ؛ وأجملهم عيوناً ، عوران قيس ؛ وأطيب نسائها

نشرًا ، امرأة طُلقت لرائحةِ كرهها زوجها من فيها ؛ وأنصعهن بياضًا ، جارية سوداء كانت تخدم في دار العلم ببيغداد !

وصراحته هنا موجعة مثيرة : يأتي بالأعشى فإذا هو « شاب غرائق ، قد صار عَشاها حورًا معروفًا ، وانحناءُ ظهره قوامًا موصوفًا » ١٧٧ .

وينصرف ابن القارح « إلى حُمَيْدِ بن ثور فيقول : إيه يا حميد ! لقد أحسنت في قولك :

أَرَى بَصْرِي قَد رَابِنِي بَعْدَ صَحْوَةٍ وَحُسْبِكَ دَاءٌ أَنْ تَصَحَّ وَتَسَلَّمَ

... ..

فكيف بصرك اليوم ؟ فيقول : إني لأكون في مغارب الجنة . فألمح الصديق من أصدقائي وهو بمشارقتها ، وبينى وبينه مسيرة ألوف أعوام للشمس التي عرفت سرعة سيرها في العاجلة ، فتعالى الله القادر على كل بديع » ٢٦٣ .

« وبيننا هو يطوف في رياض الجنة ، لقيه خمسة نفر على خمس أبتق فيقول : ما رأيت أحسن من عيونكم في أهل الجنان ، فمن أنتم خلّد عليكم النعيم ؟ فيقولون : نحنُ عُوران قيس : تميم بن مقبل العجلاني ، وعمرو بن أحمز الباهلي ، والشماخ معقل بن ضيرار ، وراعي الإبل عبيد بن الحصين النميري ، وحميد بن ثور الهلالي » ٢٣٧ .

« ويخلو - لا أخلاه الله من الإحسان - بحوريتين له من الحور العين ، فإذا بهره ما يراه من الجمال ، قال : أعزز على بهلاك الكندي ! إني لأذكر بكما قوله :

كذأبك من « أم الحويرث » قبلها وجارتها « أم الرباب » بمأسل

إذا قامتا تَضُوعُ المسك منهما نسيم الصبا جاءت برّيا القرنفل

« فَتَسْتَعْرِبُ إِحْدَاهُمَا ضَحْكًا ، فيقول : مِمَّ تضحكين ؟ فتقول : فرحًا بتفضل الله الذي وهب نعيمًا وكان بالمغفرة زعيمًا ! أتدرى من أنا يا علي بن منصور ؟ فيقول : أنت من حور الجنان اللواتي خلقك الله جزاء للمتقين ، وقال فيكن : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾^(١) فتقول : أنا كذلك بإنعام الله العظيم ، على أني كنتُ في الدار العاجلة أعرف بحمدونة ، وأسكن في باب العراق بجلب ، وأبي صاحب رَحِي ، وتزوجني رجل يبيع السقط ، فطلقني لرائحةِ كرهها من فيّ ، وكنت من أقيح نساء حلب ، فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا الغرارة ، وتوفرت على العبادة ، وأكلت من مغزلي ومردني ، فصيرني ذلك إلى ما ترى ... »

« وتقول الأخرى : أتدرى من أنا يا علي بن منصور ؟ ! أنا توفيق السوداء التي كانت

(١) سورة الرحمن الآية ٥٨ .

تخدم في دار العلم ببغداد ، على زمان « أبا منصور محمد بن علي الخازن » ، وكنتم أخرج الكتب إلى النسخ . فيقول : لا إله إلا الله ، لقد كنت سوداء فصرت أنصع من الكافور .. فتقول : أتعجب من هذا والشاعر يقول لبعض المخلوقين ؟

لو أن من نسوره مثقال خردلية في السود كلهم لا بيضت السود

ص ٢٨٤ : ٢٨٧

ويلقى زهير بن أبي سلمى « فيجده شاباً كالزهرة الجنية .. كأنه ما لبس جلاباً هرم ، ولا تأفف من البرم ، وكأنه لم يقل في الميمية :

سمعت تكاليف الحياة ومَنْ يَعِشْ ثمانين حَوْلًا ، لا أبا لك ، يَسَامِرْ »

ص ١٨٢

« فبينما هم كذلك - أي المدعوون إلى مائدة ابن القارح من أهل جنة الغفران - إذ مرَّ شاب في يده محجنٌ ياقوتٍ .. ، فيسلم عليهم فيقولون : من أنت ؟ فيقول : أنا لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب . فيقولون : أكرمت أكرمت ، لو قلت : « لبيد » وسكت ، لشهرت باسمك وإن صمت ، فما بالك في مغفرة ربك ؟ فيقول : أنا بحمد الله في عيشٍ قصر أن يصفه الواصفون ، ولدى نواصف وناصفون ، لا هرم ولا برم . فيقول الشيخ : تبارك الملك القدوس ، ومن لا تدرك يقينه الحدوس ، كأنك لم تقل في الدار الفانية :

ولقد سمعتُ من الحياة وطولها وسؤالِ هذا الناس : كيف لبيد ؟

ولم تفه بقولك :

فمتى أهلك فلا أحفله بَجَلِي الآن من العيش بجل !

من حياة قد مللنا طولها وجدير طول عيش أن يُمل

ألا إنها لجنة ضرير !

* * *

٤ - جنة الأديب الشاعر اللغوي الراوية :

وإذا صحبت « أبا العلاء » في تلك الرحلة الطويلة بالجنة ، فلن تلقى هناك من غير الأديباء والشعراء واللغويين ، سوى رجل واحد هو آدم عليه السلام . وإنما جرى بأبينا « آدم » هنا ليحكم في قضيتين من القضايا الأدبية التي شغلت النقاد زماناً ، ولا تزال تشغلهم حتى اليوم ، وأعنى بهما قضيتي الانتحال ، ولغة أهل الجنة ، على ما نعرض له بعد في الحديث عن المسائل الأدبية في (الغفران) .

واختار « أبو العلاء » للمنادمة في الفردوس : ثعلبًا ، وابنَ دريد ، ويونس بن حبيب الضبي ، وابنَ مسعدة المجاشعي ، والمبرد ، وسيبويه ، والكسائي ، وأبا عبيدة ، والخليل بن أحمد .

واجتمع بالشعراء : الأعشى ، وزهير ، وعبيد ، وعدى بن زيد ، والنابتين ، وحسان ،
ولبيد ، وجران العود .

كما لقي أبا عمرو بن العلاء ، والشيباني ، وأبا عثمان المازني . وقابل عوران قيس :
وحاورهم ، ومر بأبي ذؤيب ، والحطيئة ، والخنساء .

وفى مآدبة ابن القارح بالجنة « يجمع - له أبو العلاء - فيها من أمكن من شعراء
الخصومة والإسلام ، والذين أصلوا كلام العرب وجعلوه محفوظاً في الكتب ، وغيرهم
من يتأنس بقليل الأدب » .

« فإذا أتت الأطعمة افترق غلمانه الذين كأنهم اللؤلؤ المكنون ، لإحضار المدعوين ،
فلا يتركون في الجنة شاعراً إسلامياً ولا مخضرمًا ، ولا عالماً بشيء من أصناف العلوم ،
ولا متادباً ، إلا أحضره » ٢٦٨ : ٢٧٢ .

* * *

وإذا كان « أبو العلاء » قد جعل في جنته ركنًا للحيات ، وآخر للعفاريت ، فلا تعجب
أن يكون هؤلاء وهؤلاء ، أدياء شعراء ، أو ممن خلد الأدب في الشعر .

لقد مضى يلتمس عند العفاريت ما لعله يوجد لديهم من أشعار المردة ، ويسألهم عن أشعار
الجن التي جمع منها المعروف بالمرزباني قطعة صالحة (٢٩١) ، فإذا « الخيتور أحد بني
الشيصان » ينشده من شعره قصيدتين عدة أبياتهما نحو تسعين بيتا ، وهما من طريف روائع
أبي العلاء براعة ولطف جس (٢٩٣) . بل إن « الخيتور » ليس شاعراً فحسب ، إنما هو أيضاً
يقراً ويملي : « وأنا الذي أنذرتُ الجن بالكتاب المنزل .. أدلجتُ في رفقة من الخابل نريد
اليمن ، فمررنا بيثرب في زمان المعو - أي الرطب - فسمعنا قرآنا عجبا ، يهتدى إلى الرشد
فأمانا به ولن نشرك برئنا أحداً ^(١) ، وعدت إلى قومي فذكرت لهم ذلك ، فتسرعت منهم
طوائف إلى الإيمان ، وحشهم على ما فعلوه أنهم رُجموا عن استراق السمع بكواكب
محرقات .. » .

وفى روضة الحيات .. تلتقى بحية شاعرة راوية ، يسألها الشيخ : ما تفعل حية في الجنة ؟
فتقول إنها « ذات الصفا » التي قال فيها « النابتة » قصيدته :

وإني لألقى من ذوى الضغن منهم وما أصبحتُ تشكو من البثِّ ساهره
كما لقيتُ ذات الصفا من خليلها وكانت تديهِ المالَ غيًّا وظاهره

وتروى القصيدة كاملة (٣٦٤) غفران .

ثم تعرض له حية أخرى ، فقيهة قارئة ، تقول إنها كانت تسكن دار « الحسن البصرى »
فتلقتُ منه الكتاب - قراءته للقرآن - فلما مات انتقلت إلى جدار في دار « أبي عمرو بن العلاء » ،

(١) سورة الجن الآية ٢ .

ثم انتقلت إلى الكوفة فأقامت في جوار « حمزة بن حبيب » . وقد سمعت هؤلاء جميعاً ، ونقلت عنهم القراءات . وهى إلى جانب ذلك عالمة بأسرار العربية ، فقيهةً بالنحو (٣٦٧) . ولم ينس « أبو العلاء » الأديبُ وهو يقسم جنته ، أن يجعل مكانَ الرَّجَزِ منها متواضعاً فى الأطراف . يناسبُ درجتهم فى الشعر ، فإن الرَّجَزَ عنده لمن سفسافِ القريض (٣٧٤) . هكذا تراها جنةُ أدباء وشعراء ، يُنزِلهم « أبو العلاء » منها منازلهم التى اختارها .

* * *

ولنذكر أن فى الجنة من غير الشعراء وأهل الأدب :
القيان اللواتى لم ينس أن تكون منهن « أم عمرو » التى يقول فيها الشاعر :

تُصَدُّ الكَأْسَ عِنا « أم عمرٍ »
وكان الكَأْسُ مجراها اليمينا
وما شرُّ الثلاثةِ أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبِحينا

ص (٢٧٨)

وفىها الحورُ، والنساء .. ومن أهل الطرب والغناء : القريضُ ، ومَعْبَدٌ ، وابنُ مِسْجِحٍ ، وابن سُرَيْجٍ ، وإبراهيم وإسحق الموصليان ، وَيَصْبُصُ ، ودنانير ، وعنان ، والجرادتان .
لكن هؤلاء جيء بهم لإحياء مجلس غناء فى المأدبة الكبرى التى دعا إليها « ابن القارح » كلُّ شاعر فى الجنة ومتأدب وعالم بأصناف العلوم - (٢٧٢ : ٢٧٣) .
وشأن هؤلاء المغنين والمغنيات ، والحور والقيان ، شأنُ الغلمان (٢٦٩) ، والطهارة والسقاة ، والولدان المخلدن الذين جيء بهم لخدمة أهل جنة الغفران من الشعراء والأدباء واللغويين . (٢٧١ : ٣٠٩) .

* * *

وقد عقد « أبو العلاء » فى جنته مجالسَ أدبية حافلة ، آثار فيها طائفة من المسائل اللغوية والقضايا الأدبية ، وحقق بعض مسائل هامة من تاريخ الأدب ، واستنشد الشعراء ما أحبَّ من روائع قصائدهم ، وسأل اللغويين عما أراد ، مما يأتى فى مكانه .
ولم يشأ « أبو العلاء » أن تحول رهبةُ الحشر دون عقد أحد هذه المجالس ، كالذى ذكره ابن القارح قال : « وكنت لقيت فى الحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى على الفارسي ، وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون : تأولت علينا وظلمتنا . فلما رأتى أشار إلى يده فجنته ، فإذا عنده طبقة منهم « يزيد بن الحكم الكلابي » وهو يقول :
ويحك أنشدت عنى هذا البيت يرفع الماء ؟ ، يعنى قوله :

فليت كفافاً كان شرُّك كله وخيرُك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

ولم أقل إلا الماء .. » (٢٥٤) .

وعلى هذا النحو يتقدم الشعراء والرجاز ، محاسين منكرين ، يلومونه على تأويله ، فيتدخل « ابن القارح » لنجدته :

« فقلتُ : يا قوم ، إن هذه أمورٌ هينة فلا تُعْتَبُوا هذا الشيخ ، فإنه يَمُتُ بكتابه في القرآن المعروف بـ (كتاب الحجة) ، وإنه ما سَفَكَ لكم دماً ، ولا اَحْتَجَنَ عنكم مالأً . فتفرقوا عنه » (٢٥٥) .

إلى هذا المدى من النشاط والحركة والطرافة ، تبلغ المجالس الأدبية التي عقدها « أبو العلاء » في عالمه الآخر ، وإن منها ما يضعه بين المخرجين المشهود لهم بالبراعة والقدرة ، وبحسبى أن أشير إلى حديث الضيوف في مأدبة الجنة (٢٧٩) وإلى مجلسه الأدبي مع أبي هدرش في جنة العفاريث (٢٩٠ : ٢٩٣) ، وقصة الحية الفقيهة (٣٦٧) ، وعراكه الأدبي مع الرَجَز (٣٧٥) ، وغيرها مما حفلت به (رسالة الغفران) شاهداً للحيوية التي بثها الأديب في عالمه الآخر ، والفردوس الذي تمثله الأديب .

* * *

وعلى كثرة ما حشد « أبو العلاء » في جنته من صنوف الملاذ الحسية والمتع المادية ، تراه قد جعل للأديب واللغة المكانة الرفيعة في عالمه الآخر :

فحديثُ الندامي شعر ولغة .

وحديثُ الطعام في مأدبة الجنة لغة وأدب ورواية ..

والجوارى يرقصن على توقيع شعر « الخليل » :

إن الخليط تصدغُ فَطِرٌ بدائك أو تَعُ

ص ٢٧٩

والقيان يترنمن بفائية « جران العود » .

حملن « جران العود » حتى وَضَعْنَهُ
وبحائية « أوس » :

هبت تلومُ وليست ساعة اللاحي
هلا انتظرتِ بهذا اللومِ إصباحي !

٢٧٥

ودالية « النابغة » :

أمن آل « مية » رَائِحٌ أو مغنِدِ
عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوِّدِ

٢١٣

وميمية « المخبل السعدي » :

ذَكَرَ « الرباب » وذكرها سَقَمُ
وصبًا ، وليس لمن صبًا عزَمُ

٢٢٤

بل يتخاصم المتخاصمون ويتنافر المتنافرون بالشعر والأدب .

* * *

و « أبو العلاء » الأديب الشاعر ، هو الذى جعل الشعر فى جنته وسيلة إلى الغفران : فحُرمة
« الأعشى » قصيدته الدالية :

ألا أيهدا السائلى : أين يَمَمْتُ فإنَّ لها فى أهل يثربَ موعدا

١٧٨

و « الحطيئة العبسى » وصل إلى الشفاعة بالصدق فى قوله :

أبتُ شفتاى اليومَ إلا تكلمًا بهجرٍ ، فلا أدرى لمن أنا قائله

٣٠٧

و « عبيد بن الأبرص » يُطَلِّقُ من القيود والأصفاد ، وينقل من الهاوية إلى الجنة بقوله :

من يسأل الناسَ يجرموه وسائلُ الله لا يخيبُ

١٨٦

* * *

وفى الحشر ، نرى « ابن القارح » يتوسلُ إلى خزنة الجنة ، بقصائد ينظمها فيهم ويسمها
بأسمائهم : (٢٤٩ ، ٢٥١) .

و « لبيد بن ربيعة » يدعو صحبه فى الجنة ، إلى منزله بالقيسية ، - أحد أحياء
الفردوس - ويقسم عليهم ليذهب معه « فيمشون قليلاً ، فإذا هم بأبيات ثلاثة ليس فى الجنة
نظيرها بهاءً وحسنًا ، فيقول لبيد : أتعرف أيها الأديب الحلبى هذه الأبيات ؟ فيقول : لا والذى
حجَّت القبائل كعبته ، فيقول :

أما الأولُ فقولى :

إن تقوى ربنا خيرُ نَقَلْ وبإذن الله ربى وعَجَلْ

وأما الثانى فهو قولى :

أحمدُ الله فلا نَدُّ له بيديه الخيرُ ، ما شاء فَعَلْ

وأما الثالثُ فقولى :

مَنْ هَدَاهُ سَبِيلَ الخيرِ اهتدى ناعمَ البالِ ، ومن شاءَ أضلَّ

صيرها ربي اللطيف الخبير أبياتاً فى الجنة ، أسكنها أخرى الأبد ، وأنعم نعيم المخلد

. (٣١٥)

* * *

و « أبو العلاء » ، يرى لذته الكبرى فى الأدب واللغة ، وهو حريص عليها ، يلقن ابن القارح

١٣١

أن يدعو الله ألا يحرمه منها ، إذ يقول له « عدى بن زيد » : لقد رزقت ما يجب أن يشغلك عن القريض . فيجيب ابن القارح : « إني سألتُ ربى - عز سلطانهُ - أن لا يحرمنى فى الجنة تلذذى بأدىبى الذى كنت أتلذذ به فى عاجلتى ، فأجابنى إلى ذلك : ﴿وله الحمدُ فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾^(١) .

ويسأل « الشماخُ عن قصيدتين له فيقول « الشماخُ » : لقد شغلنى عنهما النعيمُ الدائم فما أذكر منهما بيتاً واحداً . فيقول لفرط حبه الأدب وإيثاره تشييد الفضل : لقد غفلت أيها المؤمنُ وأضعتَ ! » .

ويعجب شعراء الجنة من كثرة حفظ ابن القارح حتى يقول قائلهم : « وإن حفظك لبقى عليك ، كأنك لم تشهد أهوال الحشر ! » .

هكذا لم يطق « أبو العلاء » أن يُحرم هذه المتعة الكبرى ، وهكذا شاء الأديب اللغوى أن تكون جنته .

وسوف تراه فى زيارته القصيرة للنار ، لا يريد أن يُحرم متعته الأدبية ، فكانت له هناك مشاهدٌ ومواقف أدبية ولغوية ونقدية ، انفصلها فى الحديث عن « جحيم الغفران » .

* * *

(١) سورة الروم الآية ١٨ .

جحيم الغفران

نذكر هنا ما ذكرناه في الجنة من تأثر «أبي العلاء» في تصويره للعالم الآخر، بالصورة الإسلامية، والشعر القديم، والأساطير، يبدو تأثره بالقرآن واضحاً في الألفاظ والصور: فلقد سمي دار العذاب في عالمه الآخر، بأسماء أربعة وردت جميعاً في القرآن: النار، والجحيم، وجهنم، وسقر.

كما نقل إلى جحيمه من الألفاظ القرآنية:

الزبانية، والأغلال، والسلاسل، ومقامع الحديد، والسعير.

وهو يستحضر مشاهد بعينها من «القرآن» في رحلته بابين القارح إلى الجحيم فيقول: «ويدو له أن يَطَّلِعَ إلى أهل النار فينظر إلى ما هم فيه، ليعظم شكره على النعم، بدليل قوله تعالى: ﴿قال قاتل منهم إني كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون . قال هل أئنم مُطَّلعون . فاطَّلِع فرآه فى سواء الجحيم﴾^(١) « (٢٨٩).

وفى الحوار الذى أجراه بين ابن القارح وإبليس: يقول اللعين للشيخ:

« وإن لى إليك حاجة، فإن قضيتها شكرتك يدُ المنون . فيقول: إني لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت فى أهل النار، أعنى قوله تعالى: ﴿ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا إن الله حرّمهما على الكافرين﴾^(٢).

على هذا النحو، يتمثل «أبو العلاء» بآيات القرآن الكريم، فى وصف الجحيم، وهو إذ يجاور إبليس، ويخاطب أهل النار ويجادلهم، ويُذكَرُ «الأخطل» بخطئاته، لا يبعد عمّا فى القرآن، حيث يتراءى أهل الجنة وأهل النار ويتخاطبون، فذلك قوله تعالى:

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقاتُ للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، يُنادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّكمُ الأمانى حتى جاء أمرُ الله وغرّم بالله الغرور، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ماؤاكم النار هى مولاكم وئس المصير﴾^(٣).

* * *

(١) سورة الصافات: الآيات ٥١ : ٥٥ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٠ .

(٣) سورة الحديد: الآيات ١٣ : ١٥ .

كذلك يستعير « أبو العلاء » هنا - كما فعل في الجنة - صوراً من الشعر القديم ، ويمثلها في جحيمه مشخصة .

يمضى « فإذا هو بامرأة في أقصى الجنة ، قريبة من المطلع إلى النار ، فيقول : من أنتِ ؟ فتقول : أنا الخنساء السلمية ، أحببت أن أنظر إلى صخر فرأيتك كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه . فقال لي : « لقد صحَّ مَرَعْمُكَ فَيَّ » ، يعني قولي :
وإن « صخرًا » لتأتمُّ الهداةُ به كأنه عَلَّم في رأسه ناراً

(٣٠٨)

« وينظرون فإذا عنترة العبسي مُتَلَدِّدٌ في السعير ، فيقول : ما لك يا أبا عبيس ؟ كأنك لم تنطق بقولك :

ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركد الهواجرُ ، بالمشوف المُعَلَّم
بزجاجةٍ صفراء ذاتِ أسيرةٍ قُرنت بأزهرَ في الشمال مُقَدَّمُ

(٣٢٢)

وسأل عن الشنفرى الأزدي « فألفاه قليلَ التشكي والتألم لما هو فيه ، فيقول : إني لا أراك قَلِقًا مثل قَلِقِ أصحابِكَ ، فيقول : أجل ، إني قلتُ بيتاً في الدار الخادعةِ ، فأنا أنادُبُ به حيرى الدهر ، وذلك قولي :

غوى فغوتُ ، ثم ارعوى بعدُ وارعوتُ وللصبرِ إن لم ينفع الشكو أجملُ

(٣٥٨)

على أنه إذا كانت مادة الجحيم في (الغفران) مستمدة كما رأينا من القرآن الكريم ، والشعر القديم ، فإن أبا العلاء صاغها على طريقته ، فجاءت معبرة عن عالمه النفسى بكل ما يضطرب فيه من هواجس وهموم ومخاوف ، جاءت تحمل طابعه الخاص : طابع بشر ، محروم ، ضير ، أديب لغوى ناقد . .

* * *

وأول ما يلفتك فيها ، غلبة الطابع الإنساني عليها :
فأبو العلاء يقتصد في تصوير العذاب ، إلى حد لا نعرف له مثيلاً فيما بين أيدينا من صور الجحيم : لقد رأيناه يستحضر آيات النعيم في القرآن ، ويستعير صور اللذة من شعر الأقدمين ، ثم يجرى خياله فيها ملء عنانه ، ويمضى في رحلته بالفردوس إلى « أبعد ما يناله الوهم ، وأقصى ما يدركه الخيال » .
فإذا ما مضى بابن القارح في الرحلة إلى الجحيم ، رأيناه يوجز في وصف مشاهد العذاب ،

ويكتفى منها بقدر قليل لا يمثل ذلك الهول الأكبر الذي وُصِفَتْ به الجحيم في غير (الغفران) .

ومشاهد العذاب في جحيم الغفران معدودة محدودة ، لا يكاد أطول مشهد منها يتجاوز الأسطر المعدودات ، إذا استثنينا مشهد عذاب الحشر ، الذي اختار له « أبو العلاء » الشوس الجبارة من الملوك ، والنسوة ذوات التيجان ، والشباب من أولاد الأكاسرة ، وهذا - كما قلنا في حديثنا عن سوء الحياة السياسية في عصره - صدى لسخط « أبي العلاء » على فسادها ، وقبح رأيه في الحكام ، وقد ختم المشهد القاسي بقوله : « فهتف داع من قبل العرش : ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ^(١) . فكنتم في لذات الساخرة واغلين ، وعن أعمال الآخرة متشاغلين ، فالآن ظهر النبا ، لا ظلم اليوم ، إن الله قد حكم بين العباد » (٢٤٨) غفران .

ومن أقصى مشاهد العذاب في جحيمه ، قوله : « فيطلع - ابن القارح - فيرى إبليس لعنه الله وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ، ومقاطع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية . « فلا يسكت من كلامه إلا ورجل في أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلايب من نار ، وإذا هو بشار بن برد » .

وتم مشهد آخر امتحن به شاعر من أحب الشعراء إلى أبي العلاء ، وهو « أوس بن حجر » لكنه جاء بهذا العذاب ، في صيحة شكوى اليممة مرة ، حيث يجيب « أوس » عن سؤال « ابن القارح » في أبيات رويت لأوس وللنابغة : « قد بلغني أن نابعة بنى ذبيان في الجنة ، فأسأله عما بدا لك ، فلعله يخبرك ، فإنه أجدر بأن يعي هذه الأشياء ، فأما أنا فقد ذهلت ، نار توقد ، وبنان يُعقد ، إذا غلب على الظمأ رفع لي شيء كالنهر ، فإذا اغترفت منه لأشرب وجدته سعيراً مضطرباً .. » (٣٤١) .

هذه هي أقصى مشاهد العذاب التي عرضها « أبو العلاء » في جحيمه ، واختار لأولها الجبارة ومن إليهم ، وللتاني إبليس ، وأما الثالث فكان صرخة شكوى .
وفيما عداها ، نرى « أبا العلاء » يوجز في وصف العذاب ، ويُلجم خياله عن المضى في تصويره وتشخيصه . فهو أحياناً يقدم لنا الشعراء في جهنم بعبارات تصف عذابهم وصفاً سريعاً موجزاً :

فالشاعر « علقمة بن عبدة » عابسٌ يُستضحكُ (٣٢٨) .

وعترة العبسي متلدد في السعير (٣٢٢) ، وطرفة يشتهي الهدوء والسكون (٣٣٩) ، وأبو كبير الهذلي يقول : وإنما كلامُ أهل سقر ويلٌ وعويل (٣٤٤) ، والأخطل التغلبي

(١) آية ٢٨١ سورة البقرة .

يتضور ، وإن بقي له من خَلْو البال ما جعله يحنُّ لأيام « يزيد » ، ويروى لابن القارح ذكرياته معه (٣٤٥) . وقد يقدم لنا عددًا من شعراء الجحيم دون أن يشير بكلمة واحدة إلى عذابهم ، كما فعَل مع : امرئ القيس ، والحارث البشكري ، ومهلhel - عدى بن ربيعة - ويقدم « الشنفرى الأزدي » مُحملاً للعذاب فى الجحيم ، « قليل التشكى والتألم مما هو فيه » .

* * *

أين هذه الصورة لجحيم الغفران فى إيجازها ، وهونها ، من الصور الأخرى للجحيم فى الأديان والأساطير والفتون ؟

أين هى من جحيم البرهيين المملوءة بأخبث أنواع العقارب والحيات وجوارح الطير ؟ أو من جحيم الأساطير اليونانية ، وجحيم « دانتى » بأهوالها وظلماتها المتراكمة المتراكبة ؟ أو من جحيم أهل الكتاب ، « تلك المهواة المرعبة التى نارها لاتطفأ ، ودودها لا يموت » ؟ بل أين هى من صورة الجحيم فى القرآن الكريم ؟

﴿إن المجرمين فى ضلال وسعر . يوم يُسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ (القمر : ٤٧ - ٤٨) .

﴿فالذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار يُصَب من فوق رؤوسهم الحميم . يُصهر به ما فى بطونهم والجلود . وهم مقامع من حديد﴾ (الحج : ١٩ - ٢١) .

﴿إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يُسحبون . فى الحميم ثم فى النار يُسجرون﴾ (غافر : ٧١ - ٧٢) .

وأما وقود هذه النار الكبرى ، فهو هؤلاء الذين حقت عليهم اللعنة ، وبأوا بغضب من الله . ﴿فكانوا لجحيم حطباً﴾ (الجن : ١٥) .

﴿وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ (التحريم : ٦) .

﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أتم لها واردون﴾ (الأنبياء : ٩٨) .

هم للنار وقود دائم متجدد ، لا يربحهم الملاك ، ولا ينتهى عذابهم بالاحتراق والفتناء : ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (النساء : ٥٦) .

ولأهل النار مهاد ، وطعام ، وشراب ، ولباس . ولكنه مهاد وبتس المهاد : وثياب قُطعت من نار .

﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوة بئس الشرابُ وساءت مُرتَفَقاً﴾
(الكهف : ٢٩) .

﴿هل أتاك حديثُ العاشية . وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية . تُسقى من عين آتية . ليس لهم طعامٌ إلا من ضريع﴾ (العاشية : ١ - ٦) .

﴿ثم إنكم أيها الضالون المكدبون . لآكلون من شجرٍ من زقوم . فمالتون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شربَ الهيم﴾ (الواقعة : ٥١ - ٥٥) .

﴿إنها شجرةٌ تخرج في أصل الجحيم . طلُعها كأنه رؤسُ الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالتون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم﴾ (الصفافات : ٦٤ - ٦٧) .

﴿إن شجرةَ الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى في البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذُق إنك أنت العزيز الكريم﴾
(الدخان : ٤٣ - ٤٨) .

وفي جهنم ظلٌّ ، لكنه ﴿مِن يَحْموم . لا بارد ولا كريم﴾ (الواقعة : ٤٣ - ٤٤) .

﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذى ثلاث شُعَب . لا ظليل ولا يُغنى مِنَ اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالات صُفْر . ويلٌ يومئذ للمكذنين﴾ (المرسلات : ٢٩ - ٣٤) .

وليس لهذا العذاب عنهم دافع ، ولا لهم عن الجحيم مفر : ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق﴾ (الحج : ٢٢) .

والقرآن الكريم يُجرد من جهنم شخصية واعية ، مُريدة ، نهمة ، تطلب الخاطئين :
﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفرور . تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾ (الملك : ٧ - ٨) .

﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد﴾ (ق : ٣٠) .

... ..

هذا بعض ما وصف به القرآن الكريم الجحيم وعذابها ، فأين منها وصف العذاب فى جحيم الغفران ؟ على أنه مهما يكن من ترفق أبى العلاء فى وصف جحيم الغفران ، فإن الجحيم تبقى جحيماً .

* * *

والمُتحدِّثُ عن الطابع البشرى فى جحيم (الغفران) ، لا يفوته أن يلاحظ صنيع « أبى العلاء » ، فى الإبقاء على بشرية المعذنين من أصحاب النار ، يأبى أن يجردهم منها ، أو يجعل العذاب يُخرجهم عن مألوف عاداتهم ، ويستل منهم أهواءهم :

هذا الشنفرى الأزدى « قرين مع تابط شراً كما كان فى الدار الغرارة » - (٣٥٨) . وذلك

« الأخطل » يحن لأيام « يزيد » - بن معاوية ، ويروى من كفرياته ، ما يقول معه ابن القارح :
« عليك البهلة ! قد ذهلت الشعراء من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب ، وما شُدِهتَ عن
كفرِكَ ولا إساءتِكَ » (٣٤٩) .

و « أبو العلاء » ، يرق لمن أحب من شعراء جحيمه ، وإن تمثل شخصية ابن القارح في
تعريضه بأهل النار ، والشماتة فيهم ، ولعنهم ، وشتهم .

يسمع حديث الأخطل ثم يلعنه ، ويتعرض لإبليس شاتماً لا عناً شامئاً .

ثم إذا سمع إبليس لعنة « ابن القارح » للأخطل ، أغرى به الزبانية قائلاً في خبث
شيطاني :

« ما رأيتُ أعجزَ منكم إخوانَ مالك ! فيقولون : كيف زعمتَ ذلك يا أبا مرّة ؟ فيقول :
ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ؟ قد شغلتم وشغل غيركم عمّاً هو فيه ، فلو أن فيكم
صاحبَ نحيزة قوية ، لوثب وثبةً حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر . فيقولون : لم تصنع شيئاً
يا أبا زويعة ، ليس لنا على أهل الجنة سبيل ! » (٣٤٩) غفران .

ومن أهل النار ، من يزجرون « ابن القارح » ، وهو السعيد المغفور له ، ويقولون له في تأنيب
وإنكار :

« فعليك شغلك أيها السليم » .

« إنك لقرير العين لا تشعر بما نحن فيه ، فاشغل نفسك بتمجيد الله » .

« فاذهب لطيتك ، واحذر أن تشغل عن مطيتك » .

« ألم تُهوا عن السماتِ يا بني آدم ؟ ولكنكم بحمد الله ما زُجرتُم عن شيءٍ إلا ركبتموه » .

وإذا كان نعيم الجنة في الغفران لم يهدر بشرية أهلها ، فكذلك ترى « أبو العلاء » لا يهدر

بشرية أصحاب النار ، ولا يخلى جحيمه - كما رأيت - من الحقد ، والشتم ، والشماتة ،

والتحريض ، والندم ، والشكوى ، والنسيان .

هذه جحيم بشر ، وإنها أيضاً :

جحيم الضرير :

يأبى هنا - كما فعل في الجنة - إلا أن يُرد الأعمى بصيراً ولو أرتته عيناه أهوال العذاب ،

فأول شاعر تلقاه في رحلة الجحيم « بشار بن برد » ، جاء به « أبو العلاء » في أول العرض ،

مبصراً « قد أعطى عينين بعد الكَمِّ ، لينظر إلى ما نزل به من النكال » ٣١٠ .

وهي صورة على قسوتها ، لا تُخفى شخصية راسمها ، وما أحسب أبو العلاء هنا قد غاب

عنه قوله تعالى في سورة طه : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة

أعمى . قال ربُّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ .

لكن البشرية غلبته ، فشق عليه أن يتصورَ علمه الآخر بغير إبطار ، ولو كان ذلك في أطباق الجحيم .

* * *

جحيم الأديب الشاعر اللغوي ، الراوية الناقد :

من أمتع المواقف في جحيم الغفران وأدناها على شخصية « أبي العلاء » ، تلك المشاهد الأدبية الحافلة التي قدمها في جحيمه . لا تلقى فيها من غير الشعراء سوى إبليس ، وشخصيته التي شخّصه بها « أبو العلاء » هنا ، شخصية شرير أديب ، قارئ ، راوية ، يتلو آيات من القرآن الكريم ، ويروي شعرَ بشار !

على أنه لا يكاد يذكر « بشاراً » حتى يبدأ موكبُ الشعراء ، فلا تعود ترى على المسرح غيرهم ، اللهم إلا ما يقتضيه الموقف من شخصيات أخرى كالزبانية .

ثم إن « أبا العلاء » يُقى لكثير منهم على أدبه وحفظه ، ويدع لهم في الجحيم ، من الذاكرة والجلد والوعى ، ما يستطيعون معه أن يناقشوا ويحاوروا ويجادلوا ، ويدفعوا عن شعرهم عبثَ النقلة وأخطاء الرواة .

وفي جحيم (الغفران) ، من الحوار الأدبي الممتع كثير ، وقد يطول أحياناً حتى يستغرق صفحات ذات عدد . كهذا الذي كان مع « امرئ القيس » (٣٢٢ : ٣٢٧) ، كما طال الحوار الأدبي مع مهلهل ، وعترة العبسي ، والأخطل ...

وترى بين شعراء الجحيم من يُلقى الرأي ناقدًا : فعنتره يسمع شعراً لأبي تمام فيقول : « أما الأصلُ فعربي ، وأما الفرعُ فنطق به غبي ، وليس هذا المذهبُ على ما تعرف قبائل العرب » . و « تأبط شراً » ، يُسأل عمًّا روى عنه من نكاح الغيلان ، فيقول : « لقد كنا في الجاهلية نتقول ونتخرص ، فما جاءك عنا مما يُنكره المعقولُ فإنه من الأكاذيب ، والزمن كله على سجية واحدة ، فالذي شاهده معدُّ بنُ عدنان ، كالذي شاهده نضاضة ولد آدم » .

و « مهلهل » ، يصغى إلى أقوال النحويين في بيته :

أرعدوا ساعة الهياج وأبرقنا كما تُوعِدُ الفحولُ الفحولاً

فيسأل عما أنكروا منه ؟ فيقول له ابن القارح : « زعم الأصمعي أنه لا يقال : أرعد وأبرق ، في الوعيد ولا في السحاب . فيقول مهلهل : إن ذلك لخطأ من القول ، وإن هذا البيت لم يقله إلا رجلٌ من جذم الفصاحة : إما أنا وإما سوى ، فخذ به وأعرض عن قول السفهاء » (٣٥٦) .

وقد يزهّد بعضُ شعراء الجحيم في الحديث عن الشعر واللغة ، لكنه لا يلبث أن يغضب شعره فينبى مدافعاً عنه ، كما فعل « عمرو بن كلثوم » حين سُئل عن السناد في قوله :

كأن متوتهن متونٌ غدّيرٌ تصفّقها الرياحُ إذا جرينا

فيقول : « إنك لقريرُ العين لا تشعر بما نحن فيه ، فاشغل نفسك بتمجيد الله واترك ما ذهب فإنه لا يعود . وأما ذكركُ سينادى فإن الإخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة ، ويكون فيهم الأعرجُ والأبختُ فلا يعابون بذلك ، فكيف إذا بلغوا المائة في العدد ؟ » (٣٣٠) .

كذلك قد يسكت بعضهم عن الجواب ، كما فعل الحارث اليشكري وبيشار ، وصخر الغي ، والمرقس الأصغر ، لكن « أبو العلاء » لا يصرفه عن بغيته منهم صمتهم وسكوتهم ، بل يمضى في سؤالهم عما يشغله من شعرهم وأخبارهم ، وإن بدا له من حال المسئول أنه مشغول عنه بما هو فيه . حتى إذا أتم حديثه كما شاء ، انتقل إلى سواه غيرَ منتظر جواباً .

تراه مثلاً يسأل « علقمة » عن بعض شعره ، فإذا قال له علقمة : « إنك لتستضحك عابساً ... فعليك شغلك أيها السليم » لم يمض عنه ، وإنما استمر في سؤاله ومناقشته على هذا النحو :

« ولو صادفتُ منك راحةً لسألتك عن قولك :

كأس عزيز من الأعناب عتقها لبعض أربابها حانية حوم

فقد اختلف الناس في قولك : حوم ، فقيل : أراد حوماً أى سودا ، فأبدل من إحدى الميمين واوا . وقيل أراد حوماً أى كثيراً ، فضمّ الحاء للضرورة ؛ وقيل : حومٌ يُحام بها على الشرب أى يُطاف . وكذلك قولك :

يُهدى بها أكلفُ الخدين مُختبرٌ من الجمال كثيرُ اللحم عثوم

قروى (يهدى) بالدال غير المعجمة ، و (يهدى) بذال معجمة . وقيل : (مختبر) من اختبار الحوائل من اللواحق ، وقيل .. ، « - (٣٢٧ : ٣٢٩) .

ثم يدعه غير منتظر جوابه إلى « عمرو بن كلثوم » .

وتراه في موقف آخر ، يسأل « أوس بن حجر » عن الأبيات التي تروى له وللنابغة ، فإذا صاح به « أوس » أن يسأل النابغة ، فإنه - في الجنة - أجدر بأن يعي مثل هذه الأشياء ، لم ينصرف « ابن القارح » . بل استمر يقول : « إنما أردتُ أن آخذ عنك هذه الألفاظ ، فأتحفَ بها أهلَ الجنة ، فأقول : قال لى أوس ، وأخبرنى أبو شريح ، وكان في عزمى أن أسألك عما حكاه سيبويه في قولك ... » (٣٤١) .

يطيل « أبو العلاء » في هذه الأحاديث ، لا يصرفه عنها انصرافُ شعراء النار عنه ، ولا يلهيه هولُ عذاب يشهده ، أو قسوة مشهد يراه .

وجحيم الغفران تبدو أحفلَ من جنتها بهذه الأحاديث الأدبية الممتعة . ولعل حشد الملاذ المادية لابن القارح في الجنة هو الذى جعل هذا الجانب الأدبي لا يبرز بينها فى مثل القوة والكثرة التى يظهر بها فى الجحيم ، حيث لا تلمح فى صورتها المظلمة العبوس ، غير هذا اللون المشرق من المتعة الأدبية ، متفرداً متميزاً .

وما أكثر ما تسمع فى الفردوس عن نسيان الشعراء لشعرهم ، واشتغالهم عنه بما ينعمون به من لذائذ لا تخطر على بال !

« النابغة الجعدى » مثلاً ، يُنشده « ابن القارح » بعض قصائده البديعة فيقول : « فى هذا الشعر ألفاظٌ لم أسمع بها قط . فيقول الشيخ : يا أبا ليلى ، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء ، وشغلك شرابٌ ما جاءتك بمثله بابلٌ ولا أذرعات ، وثنتك لحوم الطير الراتعة فى رياض الجنة ، فنسيت ما كنتَ عرفتَ » .

و « لبيد » يُصيرُ على هجر الشعر فى الجنة ويقول : « هيهات هيهات ، إني تركتُ الشعر فى الدار الخادعة ، ولن أعود إليه فى الدار الآخرة ، وقد عُوِّضتُ عنه ما هو خير وأبر » . و « الشماخ » ، يسأله الشيخ أن ينشده قصيدته اللتين على الزاى ، وعلى الجحيم ، فيقول : « لقد شغلنى عنهما النعيمُ الدائمُ فما أذكر منهما بيتاً واحداً » .

و « تميم بن أبيّ » ، يُسأل عن لفظ المرانة فى بيت له ، فيجيب : « والله ما دخلتُ الجنة ومعى كلمة من الشعر ولا الرجز » .

و « الخليل بن أحمد » يُسأل عن أبيات له ترُقِّص عليها الحور ، فلا يذكر منها شيئاً ، وقد كان أذكر العرب فى عصره .

وغيره ، وغيره

وإننا لنسمع « ابن القارح » ، يقول بعد أن همَّ بانتساخ شعر الجن : « ولست بموفقٍ إن تركتُ لذاتِ الجنة وأقبلتُ أنتسخ آدابِ الجن ، ومعى من الأدب ما هو كافٍ ، لاسيما وقد شاع النسيان فى أهل الجنة » .

أجل شاع النسيان فى أهل الجنة ، وشغل الشعراء بلذاتها ..

* * *

وأما فى النار فقد بقى لأهلها حفظٌ كثير ، لا لأن النسيان يمتنع عليهم ، فأبو العلاء حريص على أن يبقى على بشرتهم ، بل لأن أكثر الناس منهم يشتركون فى الحوار بوعى وإدراك ، ويلقون القول الفصل فيما يعرض لهم من القضايا النقدية .

فالشاعر مهلهل مثلاً ، لا يمنعه نسيانه بيته الذى اختلفوا فيه ، عن الحكم على ما أنكره النحاة منه فيقول : طال الأبدُ على لبد ، لقد نسيتُ ما قلتُ فى الدار الفانية ، فما الذى أنكر منه ؟ « فلما حُدِّثَ بذلك عقب على النقاد بقوله : « إن ذلك لخطأ من القول ، وإن هذا

البيت لم يقله إلا رجلٌ من جذمِ الفصاحة ... » إلى آخر ما سمعت من رأيه ، وقد نقلناه
أنفاً .

وأنشيدَ « المرقش الأكبر » أبياتاً رويت له وليست في ديوانه :

تخيرتُ من نعمانَ عودَ أراكِهُ لهندي ، ولكن من يُلغِه هند ؟

فقال : « لقد قلتُ أشياء كثيرةً منها ما نقل إليكم ، ومنها ما لم ينقل . وقد يجوز أن أكون
قلت هذه الأبيات ولكني سِرقتها لطول الأبد . ولعلك تنكر أنها في هند ، وأن صاحبتى
« أسماء » ، فلا تنفر من ذلك ، فقد ينتقل المشببُ من الاسم إلى الاسم ، ويكونُ في بعض عمره
مستهتراً بشخص من الناس ثم ينصرف إلى شخص آخر . ألا تنظر إلى قولي ؟ :

سَقَه تَذَكُّرُهُ « خويَلة » بعدما حالت ذُرّاً نجرانَ دون لقاها »

... ..

(٣٥٧)

* * *

هل لي أن أتساءل عما إذا كان « أبو العلاء » قد شعر في قرارة نفسه بألم هؤلاء المعذبين ،
وهم شعراء أعزاء عليه ، أثيرون لديه ، فاستبقي لهم في هذه النعمة الواحدة عزاءً ورحمةً ؟ !
أبو العلاء ، الشاعر الإنسان ، لم يكتم عطفه على عدد من شعراء الجحيم ، ولم يُخفِ ألمه
لما حاق بهم من عذاب ، وإنه ليواسيهم ويرق لهم ، في صراحة مؤثرة :

يرى « بَشَّاراً » في أصناف العذاب فيلقن ابن القارح قوله : « يا أبا معاذ ، لقد أحسنتَ في
مقالك ، وأسأتَ في مُعتَقِدِكَ . ولقد كنتُ في الدار العاجلة أذكرُ بعضَ قولك فأترحمُ عليك ،
ظناً أن التوبة ستلحقك » (٣١٠) .

ويصغى إلى حديث « عنترة » في بعض المسائل الشعرية فيقول : « لقد شقَّ علىّ دخولُ مثلك
إلى الجحيم ، وكان أذنى مصغيةً إلى قينات الفسطاط وهي تغرد بقولك :

أمن سُمِيَّةٍ دُمِعَ العينَ تذيِفُ لو أن ذا منك قبلَ اليومِ معروفُ »

(٣٢٥)

وينظر فإذا « علقمة بن عبدة » ، فيقول : « أعزُّ عليّ بمكانك ، ما أغنى عنك سِمطاً لؤلؤك
- يعنى قصيدتيه التي على الباء : * طحا بك قلبٌ في الحسانِ طروبُ *

والتي على الميم : * هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتومُ *

فبالذي يقدر على تخليصك من العذاب ، ما أردت بقولك ... ؟ » (٣٢٧)

ويسأل عن « عمرو بن كلثوم ، فيقال : ها هو ذا من تحتك ، إن شئت أن تحاوره فحاوره .

فيقول : كيف أنت أيها المصطبح بصحن الغانية ؟ ... أعزّز على أنك قصّرت على شرب حميم « ٣٢٩ .

ويعمد لسؤال « طرفة بن العبد » ، فيقول : « يا بن أخي يا طرفة ، خفف الله عنك ... لو لم يكن لك أثرٌ في العاجلة إلا قصيدتك التي على الدالٍ لكنت قد أبقيت أثرًا حسنًا » (٣٣٤) .

وينادي : أين « عدى بن ربيعة » المعروف بمهلل ؟ ثم يقول له : « أعزّز على بولوجك هذا المولج ! لو لم آسف عليك إلا لأجل قصيدتك التي أولها :

أليتننا بذي حُسمٍ أنيرى إذا أنت انقضيتِ فلا تحورى
لكانت جديةً أن تطيل الأسفَ عليك ، وقد كنت إذا أنشدتُ أياتك في ابتك
المزوجة في « جنب » تغزورق من الحزن عيناى « (٣٥٣) .
ويسأل عن « المرقش الأكبر » ، فإذا هو فى أطباق العذاب ، فيقول :
« خفف الله عنك أيها الشابُّ المغتصبُ ، فلم أزل فى الدار العاجلة حزينا لما أصابك به الرجلُ
الغفلى ... » (٣٥٥) .

* * *

مثل هذا ، يصور العالم الأدبى الذى كان « أبو العلاء » يعيش فيه وهو يشخص ناره وجنته ، كما يصوره التقدير الذى تحسه منه وهو يضع الأدب فى مكانة رفيعة من النار . فيجعله جديراً بأن يشفع لصاحبه ، وينيله رحمة الله ، فذلك قوله لعلمة :
« لو شفعت لأحد أبيات صادقة ليس فيها ذكرُ الله سبحانه ، لشفعت لك أياتك فى وصف النساء ، أعنى قولك :

فإن تسألونى بالنساء فإننى بصيرٌ بأدواء النساء طبيبٌ
إذا شاب رأسُ المرء أو قلَّ ماله فليس له فى وُدِّهن نصيب
يُردن ثراءَ المالِ حيث وجدنه وشرخُ الشبابِ عندهن عجيبُ

(٣٢٨)

وقوله لبشار : « ... ولقد كنت فى الدار العاجلة أذكر بعضَ قولك فأترحم عليك ، ظناً أن التوبة ستلحقك ، مثل قولك :

ارجعْ إلى سكنِ تعيش به ذهبَ الزمانِ وأنت منفرد
ترجو غداً ، وغدٌ كحاملةٍ فى الحى ، لا يدرون ما تلد

وقولك :

وأها لأسماءَ ابنةِ الأشدِّ قامتُ تراءى إذ رأتنى وحدى

الآيات (٣١١)

وقد يمتزج هذا الإعزاز للأدب ، بظرف « أوى العلاء » فيبدو المشهد رائعاً جذاباً ، كهذا الذى تراه حين يقف الشيخ سائلاً خزنة النار عن « مهلهل » ، معرفاً إياه بأبيات من شعره ، فهو هناك « ينادى : أين عدىُّ بنُ ربيعة ؟ فيقال : زدْ فى البيان . فيقول : الذى يستشهد النحويون بقوله :

ضربتُ صدرها إلى وقالت يا عدياً لقد وتقتك الأوقى

وقد استشهدوا له بأشياء كقوله :

ولقد خبطن بيوت يشكرُ خبطة أخواننا ، وهم بنو الأعمام

وقوله :

ما أرجى بالعيش بعد ندامى كلهم قد سقوا بكأس حلاق

فيقال : إنك لتعرف صاحبك بأمر لا معرفة عندنا منه . ما النحويون ، وما الاستشهاد ، وما هذا الهذيان ؟ نحن خزنة النار ، فبين غرضك تجب إليه . فيقول : أريد المعروف بمهلهل التغلبى ، أحنى كليب وائل الذى كان يضرب به المثل . فيقال : ها هو ذا يسمع حوارك فقل ما تشاء » (٣٥١) .

هى جحيم أديب ، شاعر راوية ، ولا بد أن تكون كذلك ، فأبو العلاء ، وقد كان الأديب واللغة متعته الواحدة فى دنياه المحرومة الموحشة ، لا تجرؤ أحلامه على أن تصوّر له عذاباً ينسيه الأدب واللغة ، ولو كان عذاب جهنم ، ولا يطيق خياله أن يحوم حول مكان صفر من هذه المتعة ، ولو كان فى الدرك الأسفل من النار .

* * *

القسم الثاني

الرد على ما في رسالة ابن القارح عن :

١ - الزندقة .

٢ - المسائل اللغوية والقضايا النقدية .

بعد تلك الرحلة الطويلة العجيبة إلى العالم الآخر الذي أحضره أبو العلاء مشخصاً ، يبدأ في الرد على (رسالة ابن القارح) مستجمعاً كل وعيه وحضور ذهنه ، لكي يلتقي كاتبها بما ينبغي أن يلقاه به .

ولا نخطفىء حس السخرية في كل ما يجيب به أبو العلاء عما جاء في رسالة ابن القارح ، ابتداء من فقرتها الأولى التي قال فيها يدعو لأبي العلاء : « كتابي - أطال الله بقاء مولاي الجليل ، ومد مدته ، وأدام كفايته وسعادته ، وجعلني فداءه ، وقدمني قبله ، على الصحة والحقيقة ، وبعد القصد والعقيدة وليس على مجاز اللفظ ومجرى الكتابة ، ولا على تنقص وخلافة وتجب ومساحة .. » .

ما من جملة لأبي العلاء ، رداً على ابن القارح ، لا تشي بحس السخرية المرة والتهكم اللاذع ، رغم تلطف أبي العلاء في مواجهة ابن القارح بصريح رأيه فيه ، وحرصه على أن يحتال له بأقنعة ساترة من أماليه اللغوية والأدبية التي تشد الاهتمام وتثير العجب العجائب بغناها وحيويتها .

* * *

من العسير أن نقدم هنا دراسة موضوعية لهذا القسم الثاني من الرسالة . حيث تناول أبو العلاء فيه موضوعات شتى حددتها له رسالة ابن القارح ووجهته إليها^(١) .

(١) انظر فهرست الموضوعات ، في نسختنا المحققة من رسالة الغفران ، مع رسالة ابن القارح ، ط الدخائر .

وإذا شق على قارئى القسم الثانى من الغفران أن يلمحوا وحدة سياق تربط بين شتى الموضوعات ، فالأمر فيها لا يعدو أن يكون متابعة واعية من أبى العلاء ، لابن القارح فى رسالته .

على أنه مهما يكن من تعدد هذه الموضوعات ، ففي الإمكان أن نخص بالعناية منها ، حديثه الطويل الحافل عن الزندقة ، وأن نختار نماذج مما عرض له أبو العلاء من مسائل لغوية وقضايا أدبية ونقدية .

* * *

١ - الزندقة في الغفران

- الغفران وعقيدة أبي العلاء .
- لمَ تحدث في الغفران عن الزنادقة .
- آراء لأبي العلاء في الإلحاد والزندقة .

الزندقة من الموضوعات التي تستحق أن تفرد بالدرس وتخص بالناية ، فيرجع بها الدارس إلى مناقشها القريبة في نشاط علم الكلام ، وتصادم الملل والنحل ، وتعارض المصالح والأهواء ، باحثاً عن صلتها الوثيقة بحركة الشعوبية التي عرفها العالم الإسلامي من عهد مبكر ، وأسلم لها قياده بعد انتصارها الحاسم في المعركة الكبرى بين « الأمين » وأشياعه من العرب ، و« المأمون » وأنصاره من الفرس ، وهي صلة تنبه إليها أستاذنا العميد « الدكتور طه حسين » من زمن ، وردَّ إليها حركة الزندقة المعروفة في الإسلام .

بل يمضي الدارس المتخصص إلى ما قبل ذلك ، باحثاً عن بذورها فيما داخل الفهم الإسلامي للدين والقرآن ، من إسرائيليّات حملها إليه أولئك الذين دخلوا الإسلام - مخلصين أو كائدين - بترائهم الفكرى والروحى من الدين والأساطير ، ومن تاريخهم المشتت الذى مزقته شتى التفريعات والهجرات .

وقد يُبعد الباحث ، فينقب فى أغوار الزمن القديم عن الجذور الغائرة للزندقة ، فى تلك التيارات التى اضطرب بها الشرق ، حافلة بأقوال عن الكون والخلق ، والنور والظلمة ، ومقرراتٍ عن مصير العالم وحياته الآخرة .

لكننا نلتزم هنا حدوداً معينة ، فى بحث يُتناول فى غير تخصص ، ضمن دراستنا للغفران ، وهى حدود لا تجاوز بيئة الغفران وصاحبها ، إلا أن تقتضينا دواع لا نملك الإغضاء عنها أو الغض منها ، فماذا نعنى بالزندقة هنا ؟

إذا قلنا (الزندقة) فى الغفران ، فذلك تعميمٌ يجاوز المدلول الاصطلاحى للفظ (زنديق) الذى عُرف فى صدر الدولة العباسية ، وأطلق على من اعتنقوا « المانوية » التى ترد العالم إلى أصلين من نور وظلمة . والمرجح أن هذا المدلول هو الذى طُبّق فى حركة المطاردة التاريخية المعروفة أيام الخليفة « المهدي » بعد منتصف القرن الثانى ، حيث عهد فى كتابه إلى ابنه « الهادى » بالتمرد لهذه العصابة التى ما تزال بالناس حتى تخرجها إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة . وقد جاء فى هذا الكتاب : « فارع فيها الخشب ، وجردها فيها السيف ، فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلبنى بسيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين » .

ورسالة الغفران تتعرض لهؤلاء ، ولغيرهم من أصحاب النحل والمذاهب ، والمرائين ،
والخلعاء رقيقى الدين ، مما يبعد عن هذا المدلول المحدود الذى أشرنا إليه ، ولكن المتبع
لحركة الإلحاد فى الإسلام ، يلحظ أن لفظ (زنديق) لم يقف عند ذلك المعنى الاصطلاحي ،
بل اتسع وشمل كل من اتهم فى عقيدته أو اشتهر بركة دينه ، وقد قام المستشرق « ماسينيون »
بهذا التبع ، مبتدئاً بالأصل الفارسى الأول للكلمة .

وتكفى النظرة إلى (دائرة المعارف الإسلامية) ، وفى كتاب (محنة الحلاج) لمعرفة
ما أضيف إلى المدلول الأول من معانٍ استحدثت على الأيام ، حتى تناولت العبث والمجون .
وهذا المدلول الواسع العام ، هو الذى نعنيه حين نتكلم عن (الزندقة فى الغفران) .
ومع أن « أبا العلاء » قد عرّف الزنادقة فى رسالته هذه بأنهم « الذين يسمون الدهرية ،
ولا يقولون بنبوة ولا كتاب » (٤٢٩) . إلا أننا نعرض فيما يلى ، لما جاء فى (الغفران)
عن هؤلاء ، وعن غيرهم من أصحاب النحل ، والمتهمين بركة الدين .

* * *

الغفران وعقيدة أبي العلاء

كانت عقيدة «أبي العلاء» موضع الاهتمام ومثار الأقاويل منذ كان حتى يومنا هذا ، تحدث فيها معاصروه ، ولا يزال أهل زماننا فيها يتحدثون ، بحيث يندر أن ترى كتاباً عن «أبي العلاء» لم يتعرض لعقيدته ومذهبه .

واختلفوا فيه كما اختلف من قبلهم :

منهم من أمسكوا عن الجزم باتهامه تحرجاً ، أو أشكل عليهم أمره لكثرة ما قال في تمجيد الله ، وما ألف من مصنفات في المواعظ ، وما شاع وذاع من ورعه ، وزهده ، فاكفوا بنقل أقوال من جرّحوه ، ونقلوا معها أقوال من شهدوا له بصدق الإيمان وقوة اليقين ، ثم عقبوا بالكلمة المأثورة : «الله أعلم» .

وقذفه أحدهم بالزندقة والإلحاد وسقم الدين ، وتقربوا برجمه ولعنه إلى الله تعالى . يتوارثون ذلك خلفاً عن سلف ، ويتناقلونه تقليداً ، جيلاً في إثر جيل .

حتى رؤيا المنام ، ساقوها في اتهامه ، وتتابع الإخباريون منهم يرددونها ناقلين في معرض الكلام عمّا تذاكر به متهموه في إلحاده^(١) . وظلموه ميئاً كما ظلموه حياً .

تقولوا عليه شعراً لم يرد في ديوانيه ، «سقط الزند» و«اللزوميات» ، وقد تم تدوينهما في حياته ، وكتبهما عنه مباشرة ككتاب له أمان . وتحديث الألسن بإساءته ، لكتابه «الفصول والغايات» الذي زعموا أنه عارض به القرآن !

ثم ظهر الكتاب فإذا هو في تمجيد الله والمواعظ .

وأخرون دافعوا عن عقيدته دفاعاً حاراً ، منهم القفطى في «إنباه الرواة» .

وابن العديم في «الإنصاف والتحرى» ، في دفع الظلم والتجرى ، عن أبي العلاء المعرى .

وابن الوردى في «تمة المختصر في أخبار البشر» .

وابن فضل الله المعرى في «مسالك الأبصار» وقد ختم دفاعه عنه بقوله :

«والناس فيه بين مكفرٍ ومعتقٍ له الولاية ، وما بين بين هذه الغاية» .

* * *

(١) اقرأ ما نقلناه من هذا بمزيد تفصيل في كتاب «أبي العلاء المعرى» ص ٢٣٢ وما بعدها ، ط أولى ، أعلام العرب .

ولمن شاء أن يرجع إلى الفهرس الخاص باعتقاد أبي العلاء ، فى (تعريف القدماء) - وهو يشغل منه مكاناً غير صغير - ليعلم كيف شغل هؤلاء القدماء بعقيدته .
وفى عصرنا هذا ، أفرد « الدكتور طه حسين » فى (ذكرى أبى العلاء) فصلاً للحديث عن « اتهامه بالزندقة » ، كما أفسح العلامة « أحمد تيمور » نحو ربيع كتابه عن أبى العلاء ، لبحث فى « معتقده »^(١) .
وكذلك فعلتُ ، فى كتابى (أبو العلاء المعرى : سيرة ذاتية^(٢)) .

* * *

ورسالة الغفران ، مسئولة - إلى حد غير قليل - عما أتهم به « أبو العلاء » . والشعور بذلك قديم ، يرجع - فيما وصل إلينا - إلى القرن السابع ، حيث شغل « ياقوت » بالقضية ، ومن ذلك الحين ، وهى تشغل مكانها فى آثار « أبى العلاء » التى تذكر وتمتحن ، حين يبحث فى عقيدة الرجل .

جاء فيما رواه « ياقوت » (من شعره الدال على سوء عقيدته) ما نصه :
« وقال فى رسالة الغفران : ولما أجلي عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال فى ذلك :

يصول « أبو حفص » علينا بدرّة رويدك ، إن المرء يطفو ويرسبُ
كأنك لم تتبع حمولة ماقطٍ لتشيع ، إن الزاد شىء محبب
فلو كان « موسى » صادقاً ما ظهرتم علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا

وعلق ياقوت : « وهذا يشبه أن يكون شعره ، قد نخله هذا اليهودى ، أو أن إirاده لمثل هذا واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه »^(٣) .

ولم يمض إلا قرن واحد بعد ياقوت ، حتى جاء « الذهبى » فقال كلمته المشهورة : « له رسالة الغفران فى مجلد ، قد احتوت على مزدكة واستخفاف »^(٤) .

وظل من بعدهم ينظرون إليها بعين الاتهام ، حتى إذا اتجه الدارسون فى عصرنا إلى « أبى

(١) « أبو العلاء المعرى » ط . لجنة التأليف ١٩٤٠ م ،

(٢) سلسلة أعلام العرب - ط أولى ص ٢٣٢ : ٢٤٥ الهيئة العامة للكتاب .

(٣) معجم الأدباء ١٦٥/٣ : ١٦٦ ط دار المأمون .

والنص المشار إليه يقع فى ص ٤٤١ من رسالة الغفران - ذخائر .

(٤) ترجمة الذهبى لأبى العلاء - مع (رسائل أبى العلاء) ، ص ١٢٩ طبع أكسفورد .

العلاء» وآثاره ، لم يفهم الالتفات إلى (رسالة الغفران) بين الآثار العلائية التي يُحتكم إليها في الحكم على عقيدة الرجل .

والعرب والمستشرقون في ذلك سواء .

اتجه النظر في اتهام (الغفران) إلى أمرين :

(أ) وصفها الجنة والنار ، وما اتهم به من سخرية بالمعتقدات الدينية ، أو اعتراض على الخالق عز شأنه .

(ب) حديثها عن الزنادقة ، وما قيل من نسبة بعض أشعاره إليهم ، أو تلذذه بإيرادها .

والمستشرقون أكثر تعلقاً بالقسم الأول : جاء في (دائرة المعارف الإسلامية) :

(ولقد عرّف المؤلف الشعراء الزنادقة الذين غفر لهم ! ومن هنا اشتق اسم الرسالة ، والذين رُفِعوا إلى الجنة ، وهي مشهد حوادث القصة . أو هي في الحقيقة قصة جريئة ، خلط فيها الجدل بالهزل ، وسخر فيها من العقائد الإسلامية التي تتعلق بالحياة الأخرى » .

وقال نيكلسون : « والسبب الأول في السمعة السيئة للغفران ، أن ليس من المستطاع إنكار أن أبا العلاء صور جنة المؤمنين ، صالوناً فخماً عامراً بيوميين خالدين ، ولكن غير خالقين » .
It cannot be denied that Abu - L - 'Ala depicted the Parsdise Of the faithful as glorified salon haunted by immortal but immoral.

وقال « ميغيل أسين بلاثيوس »^(١) : « ودعاوى الصوفية - في هذا الميدان - أخذت صبغة دينية ، على حين أخذ هذا في الميدان الأدبي صبغة ساخرة لا دينية ، وواضح أنه لا يوجد من هذا إلا قليل .. وكتاب واحد فقط هو الذي وصل إلى أيدينا .. وهو رسالة الغفران .

« فمسحة من السخرية ، دقيقة حتى لا تكاد تظهر .. يحتاج على تعذيب عدد من رجال الأدب - الشعراء منهم بخاصة - اشتهروا في الجاهلية والإسلام ، برغم إلحادهم وخطيئاتهم » .

« وبغير أن يقتحم المشكلة الدينية مباشرة ، يحاول أن يعرض بمهارة أدبية ، عددًا من هؤلاء الشعراء عفى عنهم أخيرًا ، وأدخلوا الجنة »^(٢) .

وقال « آدم متر » : « .. ورسالة الغفران : يتجلى فيها التهكم الخفي على أئمة »^(٣) .

وهي أحكام لا يستطيع دارس (الغفران) أن يسلم بها على إطلاقها . فقد يُقبل منهم ما ذكروه عن السخرية في (الغفران) . وعن « هذا الصالون الفخم » الذي جعله جنة المؤمنين ، وأما الزعم بأن « أبا العلاء » قد أدخل الجنة الزنادقة والملاحدين ، فهو زعم باطل تنفيه

(١) Miguel Asin : Islam and the Divine. P. 55. ed. London 1926

(٢) المصدر السابق .

(٣) الحضارة الإسلامية (الترجمة العربية) : ١١٢/٢ .

(الرسالة) ، واتهام ظالم لا يجد « أبو العلاء » أدنى مشقة في البراءة منه ، إذ يكفي أن تراجع ثبت الشعراء الذين جاء بهم في جنته ، لتعلم أن ليس فيهم ملحد أو زنديق ، بل لم ينس « أبو العلاء » - مع الشعراء الجاهليين الذين لم يدركوا الإسلام - أن يقدم بين يدي كل منهم وسيلة للمغفرة : « عدى بن زيد » ، شفع له أن « كان دين المسيح ، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، وإنما التبعة على من سجد للأصنام » .

و « زهير بن أبي سلمى » غفر له - وقد كان في زمان الفترة - « لأن نفسه كانت من الباطل نفوراً ، وكان مؤمناً بالله العظيم ، ورأى فيما يرى النائم حياً نزل من السماء ، من تعلق به سلم ، فعلم أنه أمر من أمر الله ، فأوصى بنيه عند الموت : إن قام قائم يدعوهم إلى عبادة الله فليطيعوه ، ثم هو القائل في الميمية ، والجاهلية على السكينة^(١) ، والسفّه ضاربٌ بالجران :

فلا تكتُمَنَّ الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومهما يُكتم الله يعلم
يُؤخَّرُ فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب ، أو يُقدَّم فينقم

والنابعة الذيباني « كان مُقرّاً بالله وحج البيت في الجاهلية .. قال :

فلا لعمر الذي قد زرتُه حججاً وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطيرَ يمسحها ركباً مكة بين الغيل والسند

ولم يدرك النبي ﷺ فتقوم الحجة عليه بخلافه .

و « عبيد بن الأبرص » الجاهلي : مرّ به « أبو العلاء » على الهاوية قبل أن يُدخله الجنة ، ثم شفع له قوله في أيام الحياة :

من يسأل الناسَ يجرّموه وسائلُ الله لا يخيّبُ

« وسار هذا البيت في الآفاق ، فلم يزل يُنشد ويخف عنه العذاب حتى أُطلق من القيود والأصفاد ، ثم كرّر إلى أن شملته رحمة الله .

« وأما « الأعشى » - وقد أدرك المبعث ومضى يطلب الإسلام فصدّته قريش وحبه للخمير - فقد تحايل « أبو العلاء » لإدخاله الجنة بعد أن أوقفه على شفا الهاوية ، ولم يترك وسيلة يستشفع له بها إلا التمسها : جعل له حرمة من داليتة في مدح الرسول عليه السلام ، وشفاعة منه ﷺ ، وأنه كان يؤمن بالله ويصدق بالبعث .

وتأتى - في القراءة الجديدة الملحقّة بهذه الدراسة - قصة « الأعشى » كما يرويها في (الغفران) .

هذه وسيلة « أبي العلاء » مع الجاهليين ، وأما الشعراء الإسلاميون فليس فيمن جاء بهم إلى

(١) أى : على أحوالهم التي كانوا عليها . يقال تركّهم على سكّبتهم . انظر رسالة الغفران بتحقيق الدّارسه ص ١٨٣ - ط دار المعارف .

جنته ، من أتهم فى دينه أو أثرت عنه زندقة ، بل فيهم من صح إسلامه وحسن بلاؤه : « لبيد ، والجعدى ، وحسان ، والخنساء ، و ... » بل إنه كره أن يأتى بمن عُرفت عنهم رقة فى الدين ، وإن لم يُتهموا بزندقة أو إلحاد ، ولعل هذا سبب سكوته عن عدد من أمراء الشعر الأموى ، مع أنه أدرك شعراء عصرهم فى رحلته ، وجاء بأحدهم ، وهو الأخطل ، فضلاه الجحيم ، بل جاء كذلك بيشار ، وهو من مخضرمى الدولتين .

فادعاء المستشرقين أن أبا العلاء جاء فى الجنة بالشعراء الزنادقة الذين غفر لهم ، ومن هنا اشتق اسم الرسالة (دائرة المعارف ، وميجويل أسين بلاثيوس) ينفيه نص (الغفران) كما رأيت . ومن اليسير أن نلتبس منشأ هذا الادعاء الباطل ، فنحن إذا فرضنا حسن النية فيهم ، وأحسنا الظن بتزاهتهم وتجردهم وإخلاصهم للبحث - وهذا فى كثرتهم بعيد - رددناه إلى عجزهم عن فهم (الغفران) ، وبعدهم عن روح العرية . ولَمَن شاء أن يطالع ما جئتُ به فى مقدمة نسختى المحققة للغفران من أخطاء « نيكلسون » فى فهم النص^(١) ، ثم ما سوف أشير إليه بعد^(٢) من أخطاء « أسين بلاثيوس » فى فهم (الغفران) . وأكفى بما نقلت وأنقل فى هذا الباب ، من أخطاء تتصل بموضوعنا فى الزندقة ، وتؤيد ما تقرره من عدم استطاعتهم هذا الفهم . وذلك فى حديثنا عن :

الجانب الثانى الذى اتجه إليه اتهام رسالة الغفران ، وهو :

حديثها عن الزندقة :

والعرب أكثر تعلقاً بهذا من المستشرقين ، وإنما أنكروا من أبى العلاء « أنه نشر من أشعار كفرهم ما كان مطوياً » ولم يستبعد « ياقوت » أن يكون منها ما نظمه هو ، ثم نخله سواه ، أو أن إيرادها لمثل هذا واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه^(٣) .

وهذا الشعور المستريب بترديد « أبى العلاء » لكفريات الزنادقة ، قديم مبكر ، سبق « ياقوت » بنحو قرنين من الزمان ، وجهر به بعض من عاصروا الشيخ ، واعترضوا عليه منكرين ، ففيما أبقى لنا التاريخ من الرسائل التى تبودلت بينه وبين « داعى الدعاة »^(٤) أنشد الشيخ فى رسالته الثانية بعض أشعار الملاحدة ، فكان رد « الداعى » يشعر بما رابه من ذلك ، وإن تكلف اللباقة فى تعبيره عن ارتيابه ، قال :

(١) مقدمة الغفران : ص ١٠١ : ١١٢ ، تحقيق الدارسة . ط أولى ذخائر .

(٢) انظر مبحث : « الغفران والكوميديا الإلهية » فى سياق من هذه الدراسة .

(٣) معجم الأدباء : ٣ / ١٦٦ ط دار المأمون .

(٤) أوردها ياقوت بتصريف ، فى معجمه (الجزء الثالث : ط دار المأمون) ونشرها مرجليوث "D.H. Margoliouth" فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (علم ١٩٠٢) نقلا عن نسخة خطية فى « البودليانا » "Bodeliana Library" .

« وأما إنشاده : * أَلَمْتُ بِالتَّحِيَةِ أُمُّ بَكْرٍ *

وما بعده من الأشعار ، وذمُّه من قال ولعنه ، فمن الذى اتهمه بشيء من ذلك ؟ حاشاه !
وما الذى أوجب الإذكار بكفريات أشعارهم»^(١) .
والأشعار التى يشير إليها الداعى ، هى قول أبى العلاء فى رسالته إلى « داعى الدعاة » :
« وأعوذ بالله وأتبرأ من قول الكافر :

أَلَمْتُ بِالتَّحِيَةِ أُمُّ بَكْرٍ فَحَيَّوْا أُمَّ بَكْرٍ بِالسَّلَامِ

الآيات

« ولعن الله القائل ، ويقال إنه الوليد بن يزيد بن عبد الله :

أَدْنِيَا مَنِي خَلِيلِي عَبْدَ لَا دُونَ الْإِزَارِ

الآيات

« وويل لابن رغبان إن كان قال :

هِيَ الدُّنْيَا وَقَدْ نَعَمُوا بِأُخْرَى وَتَسْوِيفُ الظُّنُونِ مِنَ السُّوَافِ^(٥)

الآيات

وهذه الآيات جميعاً ، قد وردت أيضاً فى (رسالة الغفران) ، والأسلوب واحد : هنا وهناك^(٢) . لكن مع تفاوت السياق .

والدكتور « طه حسين » ، يرى أن موقف « أبى العلاء » هنا مريب :

« ... وكَمْ ضَحَّيْ مِنْ زِنَادَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ بِضَحَايَا لِيَعْلَمَنَّ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ، وَلَكِنْ هَذَا الْكَيْدُ كُلُّهُ لَمْ يَزِدْ النَّاسَ إِلَّا عِلْمًا بِهِ وَاتِّهَامًا لَهُ »^(٣) .

هذا مع أن جحيم الغفران ، ليس فيها من شعراء العباسيين غير واحد فقط ، هو بشار !!
وأما غيره من المتهمين بالزندقة ، فالحديث عنهم فى القسم الثانى من (الغفران) رداً على ما جاء فى رسالة ابن القارح من أخبارهم .

* * *

وأما المستشرقون فلم يقفوا عند الذى راب العرب ، وإنما مرَّ أكثرهم بأخبار الزنادقة فى (الغفران) مروراً سريعاً عابراً ، كقول دائرة المعارف الإسلامية : « وفيها حديث عن الزنادقة بنوع خاص ، وآراء فى طبيعة معتقداتهم » .

- (١) ياقوت : معجم الأدباء ، ٨٧ / ٣ .
(٥) السواف ، بفتح السين وضمها : مرض المواشى وهلاكها . ويُطلق على الهلاك بعامة . انظر ص ٤٤٦ من رسالة الغفران - طبعة عشرة - بتحقيق الدارسة .
(٢) انظرها فى صفحات : ٤٢١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، على التوالى ، من الطبعة الثامنة لرسالة الغفران : ذخائر .
(٣) تجديد ذكرى أبى العلاء : ١٣٣ .

وقول « آدم متز » : « وتناول الكلام عن الجنة والنار ، والزندقة ، والعقل »^(١) .
 وسكت « ميجيل أسين » عن هذا الجانب من (رسالة الغفران) ، إذ كان مشغولاً عنه
 بالنظر فى القسم الأول ، الرحلة إلى الآخرة ، لأنه الجانب الذى يتصل بالكوميديا الإلهية .
 ولعل « نيكلسون » هو الذى أفاض فى الحديث عن الزندقة فى (الغفران) ، وهو أقرب
 إلى حسن الظن بعقيدة أبى العلاء ونفى التهمة عن الغفران ، وإن تردد فى بعض عبارات بها
 أعوزه فهمها .

بدأ فقال : إن سلوك « أبى العلاء » نحو الزنادقة ، لا يقدم أساساً لاتهامه بالعطف عليهم ،
 واستظهر المستشرق على ذلك ، بأمور ثلاثة :

- ١ - أن الشيخ يدعو الله أن يثيب « ابن القارح » بما لعن من عقائدهم .
- ٢ - أنه يبارك « محمداً » - ﷺ - لما أباح من استعمال السيف ضد الكفر .
- ٣ - أنه يعجب لمحاولة « ابن الراوندى » تقليد القرآن .

ثم قال عن أبى العلاء والزنادقة ما ترجمته : وفى الحق لم يقل شيئاً فى جانبهم ، وإن كان
 أحياناً يعرب عن أملة فى ألا يكونوا من السواد كما صبغوا أنفسهم ، وأنهم إنما يولون
 ما لا يفعلون .

“... Though he sometimes utters the hope that they are not so black as they painted
 themselves, and that they preopess what they do not actually believe

ثم أضاف :

« قد يتهمه تقى بمثل عدم تيقنه من دخول بشار فى النار ، إذ يدعه فى أيدى الله الذى
 لا يقنط من رحمته إلا الكافرون .

« وربما وقف المحقق inquisitor عند تعبير صدر منه بغير احتراص unguarded - مثل قوله :
 وما يحفل ربه بالعبيد صائمين للخيبة أو مفطرين - ولكنه فى الجملة ، لا يمكن عدلاً أن يتهم
 هنا بالفتور وعدم الاكتراث ، وبالتأكيد ، لا يمكن اتهامه بالكفر »^(٢) .

ونقف لحظة هنا لننظر فيما وهب « نيكلسون » هنا ، أن التقى يتهم به « أبى العلاء » أو أن
 المحقق يقف عنده : يشير فى أمر « بشار » إلى ما جاء فى القسم الثانى من (الغفران) حيث
 قال « أبو العلاء » :

« وبشار إنما أخذ ذلك عن غيره ، وقد روى أنه وجد فى كتبه رقعة مكتوب فيها :
 إبنى أردت أن أهجو فلاناً ابن فلان الهاشمى ، فصفحت عنه لقرابته من الرسول ﷺ .

... ويقال إن يعقوب بن داود وزير المهدي ، تحامل على بشار حتى قُتِلَ ... والله العالم
 بحقيقة الأمر ، ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار ... » ص ٤٢٩ : ٤٣٢ .

١) احضارة الإسلامية (الترجمة العربية : ١١٢ / ٢) .

J.R.A.S. 1902, P. 7 K (٢

وموقف « أبى العلاء » من بشار هنا يبدو مناقضًا لما ذكر في القسم الأول من الغفران ، حيث لم يتردد في إلقاء بشار في الجحيم ، بل إن صورة « بشار » كانت أول ما طالعنا في موكب الشعراء المعذنين : « فلا يسكت من كلامه إلا ورجل في أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلايب من نار ، وإذا هو بشار بن برد قد أعطى عينين بعد الكمه ، لينظر إلى ما نزل به من النكال » (٣١٠) .

والواقع أن في (الرسالة) نفسها تفسير هذا التناقض - إن كان لنا أن نسميه تناقضًا - فالجو مختلف في الحالين ، والمؤلف ينتقل بين عالمين :

الحديث الأول يُعرض في جو فنى خالص ، والحديث الثانى يقال فى سياق تاريخى ، فأبو العلاء هناك أديب متفنن يعرض مشاهد متصورة ، ويروى ما لم يحدث فى الواقع ، وأما هنا فهو يشبه أن يكون ناقدًا محققًا ، يذكر الوشاية التى نقلت إلى يعقوب بن داود قول بشار :

بنى أمية هبوا من رقادكم إن الخليفة يعقوب بن داود

ليس الخليفة بالموجود فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

وأن يعقوب تحامل عليه حتى قتل (٤٣٢) .

وما كان لأبى العلاء - حتى لو صح ما اتهم به بشار - أن يحكم عليه بأنه من أهل النار ، إلا تصورًا شعريًا ، وأما فى هذا السياق التاريخى الواقعى ، فحسبه أن يقول : « والله العالم بحقيقة الأمر » ، وكان المعانى تداعت هنا ، فذكره هذا المقام بالصورة التى عرضها من قبل لبشار ، فى جحيم الغفران فقال متحرجًا : « ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار ، وإنما ذكرت ما ذكرت - من لقائه فى النار - لأنى عقده بمشيئة الله » (٤٣٢) ، يشير إلى الاحتياط الذى صدر به رحلته إلى العالم الآخر جملةً ، قال : « فقد غرس لمولاي الشيخ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء على الله - شجرٌ فى الجنة لذيذ اجتناء » (١٤٠) .

وبدأ الرحلة .

هكذا ترى أن فهم « نيكلسون » لموقف أبى العلاء من « بشار » هنا ، تعوزه الدقة ، ومتابعة أقوال الشيخ فى هذا الأمر ، وإدراك العوالم المتباينة التى كان الشاعر ينتقل بينها ، والعوامل المختلفة التى كانت تتحكم فيما يقول .

وأما قول أبى العلاء : « وما يحفل ربه بالعبيد صائمين للخيفة أو مفطرين » فلا يصدم الحس المؤمن أبدًا ، ولا يجد فيه تقى أو محقق ما يريه كما ذهب « نيكلسون » ، وإنما الأمر هنا كما فى الآية الكريمة : ﴿ قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ - الفرقان .

وفى كل حال ، نجد نيكلسون - مع قوله باحتمال أن يكون فى الحديث عن الزنادقة ما يريب - قد انتهى فى هذا الموقف إلى أنه لا يمكن عدلا إتهام الشيخ بالفتور نحو الزنادقة ، وأما الكفر فقد أكد أن هذا الحديث لا يقدم أساسًا لاتهامه به .

فلنذكر هذا ، ثم فلنمض مع « نيكلسون » لنراه بعد قليل يستريب في أمر أبي العلاء ، ولكن بغير ما استراب به الدارسون العرب . فعنده أن السمعة السيئة للغفران ترجع أولاً إلى « هذا الصالون الفخم الذى جعله جنة المؤمنين ، وملاؤه بيوهيميين خالدين ، لكن غير خلقين » ، ثم إلى ما أذاع من قصص الزنادقة وأشعارهم « فمن يشك فى أنه زميل ماكر لهم ؟ إنه فى الواقع قد يشير إلى صحة ما اتهم به فى مثل قوله : « ويقال إننى من أهل الدين ، ولو ظهر ما وراء السدين ما اقتنع لى الواصفُ بسبِّ ، وود أن يسقيني جَوْزلاً بسبِّ - » ٣٨٧ .

ثم يعلق « نيكلسون » على هذه العبارة قائلاً : « ما نصيبُ هذا من الصدق ؟ أم لعلها حيلة ماهرة فى تحقير نفسه ؟ لا أستطيع أن أجزم » .

لكنه اطمأن فى الوقت نفسه إلى اتهام « أبى العلاء » ، فصرح على الهامش بقوله : « وأعترف بأنى أشك جدياً فى صدق المؤلف . لقد قال إن الرياء سبيل الدنيا ، وكرّر هذا القول كثيراً ، وإن الإنسان ليخشى أن يكون هو نفسه قد عالج الرياء فناً جميلاً » . ولو أتاحت لنيكلسون وسائلُ فهم الغفران ، لما تعلق بمثل هذا .

لِمَ تحدث في الغفران عن الزنادقة ؟

الواقع أن قوما كانوا أهدي حساً ، حين اشتبه المشتبه منهم فيما أورد « أبو العلاء » من أشعار الزنادقة ، وحين رابهم ما نشر من مطويات كفرهم ، وهو اتهام لا يُعده النص إذا قرئ منفرداً مستقلاً ، بعيداً عن ظروفه ، فأما إذا رجعنا (رسالة ابن القارح) - التي نرى فيها بحق مفتاح فهم الغفران - فإننا نجد أسباباً مباشرة ، دعت إلى مثل هذا الموقف من « أبي العلاء » :

١ - فهو لم يُطل الحديث عن الزنادقة استلذاً ، أو إذاعةً لمطوى أخبارهم ، وإنما ذلك رد على حديث لابن القارح ، استطرد فيه إلى ذكر الزنادقة - لغير ضرورة ظاهرة لنا ، في الرسالة كما وصلت إلينا - وقد ملأ ابن القارح بحديثه هذا عن الزنادقة ما يقرب من ثلث رسالته - وليست قصيرة - وإنه ليسترسل في ذلك استرسالاً مريباً . ويروي أخبار الإلحاد وأشعار الملحدين ، فهو الذي أثار الموضوع ، وبدأ بالكلام عن : « بشار ، وصالح بن عبد القدوس ، والقصار الأعور ، والصناديقي ، والوليد بن يزيد ، والجنابي ، وعلوى البصرة صاحب الزنج ، والحلاج ، وابن أبي العزاقر ، والشلمغاني » .. وهو الذي سبق « أبا العلاء » إلى ذكر مؤلفات « ابن الراوندي » ، فجاء « أبو العلاء » يعلق على ما جاء في رسالة صاحبه في إفاضة ، مضيقاً إليه ما جهل « ابن القارح » ، ومشيراً إلى ما وراء هذه الدعاوى من تصيد للرزق ، والتماس للمنفعة .

٢ - ودفاع الشيخ عن « المنتبي » لم يأت عرضاً ، ولا دعاه إلى إقراره دعواه ، وإنما رأى ابن القارح يقحم الحديث عن المنتبي ، متعسفاً في تأويل قوله :

« أذم إلى هذا الزمان أهله »

ذاهباً به إلى أبعد مما تحتمله العبارة ، قال :

« صغرهم تصغير تحقير غير تكبير ، وتقليل غير تكثير ، فنفت مصدوراً وأظهر ضميراً مستوراً .. وما يسحق زمان ساعده بقاء « سيف الدولة » أن يطلق على أهله الدم ، وكيف وهو القائل :

أسير إلى إقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه

ولا يجب أن يشكو عاقلاً ناطقاً ، إلى غير عاقل ولا ناطق ، إذ الزمان حركات الفلك ، إلا أن يكون ممن يعتقدون أن الأفلاك تعقل وتعلم وتفهم وتدرى بمواقع أفعالها بقصود وإرادات ، ويحمله هذا الاعتقاد على أن يقرب لها القرابين ويدخن الدخن فيكون منافضاً لقوله :

فتباً ليدن عبيد النجو م ومن يدعى أنها تعقل

أو يكون كما قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾^(١) ، ويوشك أن تكون هذه صفته^(٢) .

ومثلُ هذا الاعتساف الشاذ ، وذلك التأويل الفاسد ، جدير بأن يثير رجلاً كأبي العلاء ، دفاعاً عن شاعر كالمثنبي ، كان يحبه ويقدره ، فراح يفسر ويصحح ، ويوضح ويدافع : بدأ أولاً بتنبيه ابن القارح إلى أن « هذا البيت الذي أوله » :

* أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ *

إنما قاله في « على بن محمد بن سيار بن مكرم » بأنطاكية ، قبل أن يمدح سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان . والشعراء مطلق لهم ذلك .. « (٣١٦) . ثم دافع عن « المثنبي » فقال : وحُدِّثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة اللقب قال : هو من النبوة ، أى المرتفع من الأرض . وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير ، يديرها فى العلو مدير ، وقد دلتُ أشياء فى ديوانه أنه كان متألماً ، ومثل غيره من الناس متدلماً ، فمن ذلك قوله :

* وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا *

ما أقدر الله أن يخزى بريته ولا يصدق قومًا فى الذى زعموا

وإذا رُجِعَ إلى الحقائق ، فنطق اللسان ، لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان « ٥٨ / غفران .

ثم مضى ينكر على ابن القارح تعسفه فى تأويل شكوى « المثنبي » أهل زمانه :

« وأما شكيتهُ أهلَ الزمانِ إليه ، فإنه سلك فى ذلك منهاج المتقدمين ، وقد كثر المقال فى ذم الدهر حتى جاء فى الحديث : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » وقد عُرف معنى هذا الكلام ، وأن باطنه ليس كظاهره ، إذ كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يذهب أحد منهم إلى أن الدهر هو الخالق ولا المعبود .

« والذين قالوا : وما يهلكنا إلا الدهر ، وغير ذلك من المقال .. لم يُدْعَ أن أحدًا منهم كان يقرب للأفلاك القرايين ، ولا يزعم أنها تعقل ، وإنما ذلك شيء يتوارثه الأمم فى زمان بعد زمان « ٤٢٦ .

وهكذا تجد فى (رسالة ابن القارح) تفسير دفاع أبى العلاء عن « المثنبي » .

على أن ذلك التقدير العميق الذى كان « أبو العلاء » يكنه للشاعر ، لم يمنعه - فى هذا الدفاع الحار - من أن يسخر بدعوى التنبى ، ويكشف عن زيفها ويطلائها .

٣ - وسخرية « أبى العلاء » بيدع الملل والنحل ، وحملته على النفاق والرياء ، مصدرها حزن صادق للبشر فى غفلتهم وحققهم ، واحتقار عميق للمرائين والمنافقين . ويكفيه عذراً عن اندفاعه فى تلك الحملة ، ما تنضح به (رسالة ابن القارح) من النفاق والرياء ، وتظاهري

(١) سورة النساء الآية ١٤٣ .

(٢) رسالة ابن القارح ص ٢٨ - مع رسالة الغفران ط ٨ ذخائر . وانظر الآية ١٤٢ من سورة النساء .

بالغضب على الزنادقة يوشك أن ينم عنه : لقد خرج من حديثه الذى سمعت عن « المتنبى » قائلاً : « وهذا غير قادح فى طلاوة شعره ورونق ديباجته ، ولكنى أعتاظ على الزنادقة والملاحدين الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون إدخال الشُّبه والشكوك على المسلمين ، ويستعذبون القدح فى نبوة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين » .

واندفع يروى أخبار الزنادقة ويتلو كفرياتهم .. ثم قال :

« ولو استقصيتُ القولُ فى هذا الفن لظال جداً ولكن :

لا بد للمصدر أن ينفثا وللذى فى الصدر أن ينعنا

وأستريح إلى أن أنشد :

ليس يشفى كلوم غيرى كلومى ما به به ، وما بى بى ^(١)

هذا الرجل الذى تكاد أقواله تنم عليه ، سمع أن « أبا العلاء » ذكر هجاءه لأبى القاسم المغربى ، فراعته ذلك وخشى أن يستشرَّ أبو العلاء طبعه ، وأن يتصوره بصورة من يضع الكفر موضع الشكر ، فقال فى رسالته إلى أبى العلاء يبرر هجاءه أبا القاسم .

« وبُعْضِي لَه - شَهِدَ اللهُ - حَيًّا وَمَيِّتًا ، أَوْجِبَهُ أَخْذُهُ مَحَارِبَ الكَعْبَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَضَرْبُهَا دَنَانِيرَ وَدِرَاهِمَ سَمَاهَا الكَعْبِيَّةُ ؛ وَأَنْهَبَ العَرَبَ الرَّمْلَةَ ، وَخَرَّبَ بَغْدَادَ ؛ وَكَمَ دَمَ سَفْكَ ، وَحَرِيمَ انْتَهَك ، وَحُرَّةَ أَرْمَل ، وَصَبِيَّ أُيْتِم ^(٢) »

فذلك هو النفاق الذى لا يحتمله رجل مثل أبى العلاء !! يالهدا الغضب للدين ، وللأرامل ولليتامى ، لم يظهر إلا بعد أن انقطع عنه برُّ « أبى القاسم » ، فأما حين كان مرجو العطاء ، فقد كان رأى « ابن القارح » فيه وفى دنائره الكعبية غير ذلك .

وهذا يفسر لك حملة « أبى العلاء » على النفاق والمنافقين والرياء والمرائين ، وعبهه باين القارح

وما يُظهر من تدين ، وسخريته من توبته المدعاة وحججه الخمس !

« وإذا تسامعت المحافل بتوبته ، اجتمع عليه الشبان المقتبلون ، والأدباء المكتهلون ، وكل أشيب لم يبق من عمره إلا ظمء حمار ، كما اجتمع لسمر أصناف السمار .. وجلس لهم فى بعض المساجد بجلب حرسها الله . وإذا كان ذلك بتفضل الله ، أعدَّ معه خنجرًا كخنجر ابن الرومى .. فيكون ذلك الخنجر قريبًا منه ، يجأ به أعناق زقاق الخمر ، وقرأ هذه الآية : ﴿ إِنْ الحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ^(٣) .

« .. ما يفعل ذلك مرة أو اثنتين ، إلا وحملة الذوارع قد اجتنبت تلك الناحية ، كما اجتنبت

أبو سفيان بن حرب طريقه من خوف النبي ﷺ ..

(١) رسالة ابن القارح ص ٤٣ - مع رسالة الغفران طبعات الذخائر الثانية فما بعدها

(٢) ص ٨ رسالة ابن القارح ص ٥٨ - مع رسالة الغفران طبعات الذخائر ، الثانية فما بعدها.

(٣) من الآية ١١٤ : سورة هود .

« وإذا صحت الأخبار المنقولة بأن أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة ؛ فلعل حواريه المعدات له في الخلد ، يسألن عن أخباره مَنْ يَرُدُّ عليهن من الصلحاء ، فيسمعن مرة أنه بالفسطاط ، وتارة أنه بالبصرة ، ومرة أنه ببغداد ، وخطرة أنه بحلب ، فإذا شاع أمرُ التوبةِ ومات ناسكٌ من أهل حلب ، أخبرهن بذلك فسررن وابتهجن ، وهنأهن جارتهن » (الغفران ٥١٧ - ٥٢٠) .

« وأما حججه الخمس ، فهو إن شاء الله يستغنى في المحشر بالأولى منهن ، وينظر في المتأخرين من أهل العلم ، فلا ريب أنه يجد فيهم من لم يحجج فيصدق عليهم بالأربع .. ولعله ذكر عند الفِرِّ وتفرق الناس هذين البيتين :

وَدَعَى الْقَلْبَ يَا قُرَيْبَ وَجُودِي لِحَبِّ فِرَاقِهِ قَدْ أَحْمَا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُم فَتَزَمَا
وقول قيس بن الخطيم :

ديار التي كادت ونحن على منى تحل بنا ، لولا نجاء الركائب
ولم أرها إلا ثلاثاً على منى وعهدى بها عذراء ذات ذوائب
تبدت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب
« وليت شعري أقارناً أهل أم مفرداً ، وأرجو أن لا تكون لقيته بمكة شهلةً تعرض عليه فتياً
« ابن عباس » ، تحلّف ما بها من بأس ، فتذكّر قول القائل :

قالت وقد طفتُ سبعةً حول كعبتها : هل لك يا شيخُ في فتيا ابن عباس (١)
(٥٤٤)

* * *

قيمة حديثه عن الزندقة :

ونظر في حديثه عن الزندقة من الناحية التاريخية والأدبية ، فنقد ان الغفران تضع بين أيدي الدارسين للملل والنحل في التاريخ الإسلامي ، قدرًا من أخبار الزنادقة فيه إضافة إلى المعروف عنهم في الكتب المتداولة للملل والنحل والقليل الذي سلم منها ، مروى غالبًا عن خصومهم ، لاعتبارات تاريخية وسياسية من التقية والتصوف . « نيكلسون »

ولعل أقرب مثل يتصل بموضوعنا اليوم ، أن كتب ابن « الراوندى » - وقد ذكر « ابن القارح » منها سبعة :

(١) يعنى بفتيا ابن عباس : إباحة زواج المتعة . ولعل « نيكلسون » لو قرأ « رسالة ابن القارح » - وهو لم يقرأها ولا عرف من يكون ابن القارح - أقول : لعله لو قرأها ، لما خشى من أن يكون « أبو العلاء » نفسه قد مارس الرياء فنا جميلا .

(التاج ، والزمرد ، ونعت الحكمة ، والدامغ ، والقضيب ، والفريد ، والمرجان) ،
وذكرها « أبو العلاء » ماعدا (الزمرد ونعت الحكمة) .

لم يصل منها إلينا سوى فقرات من كتاب (الزمرد) ، عثر عليها المستشرق « باول
كراوس » فى (المجالس المؤيدية ، للحميدى) ونشرها فى مقال له بالألمانية ، فى (مجلة
الدراسات الشرقية : مجلد ١٤ عام ١٩٣٤) ، ومقتطفات أخرى من كتاب (الدامغ) عثر
عليها « ريتز : Ritter » فى كتاب (المنتظم لابن الجوزى) ، ونشرها مرفقة بترجمة لها عام
١٩٣٦ م .

وأما بقية الكتب السبعة لابن الراوندى ، فلم أقف فى مكتبتنا لها على أثر ، وكذلك شأن
كتبه الأخرى التى أحصوها بنحو مائة وبضعة عشر كتاباً^(١) ، سمعنا ببعضها فيما كتب خصومه
نقضاً لها أو ردّاً عليها ، مثل :

- كتاب (اجتهاد الرأى) رد عليه « أبو سهل النوبختى » أحد شيوخ الإمامية .
 - كتاب (إمامة المفضول) نقضه « الخياط » ، و « أبو بكر البردعى » المعتزلى .
 - كتاب (فضيحة المعتزلة) رد عليه ، « الخياط » بكتاب (الانتصار) .
 - كتاب (أدب الجدل) رد عليه « أبو القاسم البلخى » ، والفارابى .
- وغيرها مما لا نتوفر الآن على تتبعه وجمعه .

ويكفينا هذا المثل الواحد ، فى سياق ما فى « الغفران » من مرويات عنهم ، ردّاً على رسالة
ابن القارح وما فيها من رياء وزندقة .

* * *

تحدث « أبو العلاء » فى القسم الثانى من (الغفران) عن غير قليل من الشعراء
المتهمين ، وروى بعض أشعارهم ، استدراكاً على من ذكرهم ابن القارح ، وجاء بأخبار
عدد من الزنادقة وأصحاب النحل ومدعى الربوبية يلعنهم ويسفه أحلامهم ، ومنهم من
لم أقف عليه .. مثل شاباس ، وأبى جوف ، وسمير بن أدكن الشاعر اليهودى .

كما أشار إلى كثير من الطوائف والنحل والفرق المعروفة فى أيامه ، ومنها :
غلاة الشيعة ، والكيسانية ، والباطنية ، والنصيرية ، والإمامية ، والمعتزلة ، والزنج ،
والقرامطة ، والدهرية ، والصابئة .

وهاجم الإلحاد ، والحلولية ، والتناسخ ، وردّ الزندقة والإلحاد إلى الجهل والحمق وتضليل
العوام .

* * *

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٢ / ٢٣٥ .

وكان فى برنامج « المهرجان الألفى لأبى العلاء^(١) أن يقدم أستاذنا الجليل : « عبد الحميد العبادى » - رحمه الله - بحثاً فى (ناحية التاريخ من أدب أبى العلاء) رجوت أن يكون « للزندقة فى الغفران » عناية من أستاذنا المؤرخ الأديب ، لكنه مر بها مروراً سريعاً ، واكتفى بالإشارة إليها بقوله : (وكثيراً ما يورد أبو العلاء فى رسالة الغفران تلميحات وإشارات إلى الفرق والنحل الإسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئة^(٢) ، كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار^(٣) بن أبى عبيد ، والمنتصور اليمنى ، والحلاج) .

على حين لفتت نواح أخرى من الغفران نظر الأستاذ العبادى ، أكثر مما لفته هذا الحديث الطويل عن الزنادقة ، فوقف عند إحدى قصيدتين على لسان الجنى « أبى هدرش » وما فيها من ذكر لوقائع تاريخية كغزوات بدر وأحد والخندق ، ووقائع اليرموك والجمل وصفين ، والنهروان . كما سجل الأستاذ قيمة تاريخية لحديث (الغفران) عن دنائير « ابن القارح » فقال : « ومن الطريف أنه ساق فى آخر رسالة الغفران كلاماً على الدنائير والعملية الإسلامية ، فيه تفصيلات لانجدها فى كتب التاريخ التى بأيدينا » .

واكتفى « المستشرق نيكلسون » بأن قرر أن « أبى العلاء قد أعطانا هنا ملاحظات - فى الزندقة - على هامش التاريخ »^(٤) .

(١) المهرجان الألفى ، ص ١٩٥ . دمشق .

(٢) ليس فيما بين ايدينا من نسخ الغفران ، ذكر للمرجئة .

(٣) ليس فى الغفران ذكر للمختار بن ابى عبيد .

(٤) JR. A.S 1902. P. 77.

آراء لأبي العلاء فى الإلحاد والزندقة

والى جانب هذه الاضافة التاريخية والأدبية ، تقدم رسالة الغفران إلى الدارسين آراء لها قيمتها فى طبيعة الإلحاد ، ودواعيه ونشأته ، وأسباب شيوعه فى إقليم بعينه :

الإلحاد داء قديم :

من ذلك مثلاً أن « أبأ العلاء » يرى أن الزندقة داء قديم . وبلىة خلقت مع الشمس ، وأن الإلحاد « لم يزل فى بنى آدم على مرّ الدهور ، حتى أن أصحاب السير يزعمون أن آدم (ﷺ) بُعثَ إلى أولاده فأنذرهم بالآخرة وخوفهم من العذاب ، فكذبوه وردوا قوله ، ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم .. »
« وهذه المذاهب قديمة ، تنتقل فى عصر بعد عصر ، ويقال إن فرعون كان على مذهب الحلولية ، فلذلك ادعى أنه رب العزة » .

(٤٥٧)

أسباب الإلحاد :

وليس ذلك لأن الإلحاد هو الأصل الفطرى ، فإن « أبأ العلاء » يقرر أن « الثأله موجود فى الغرائز » .

(٤٦٤)

ولكن ثمة أسباباً يرد إليها « أبأ العلاء » ظهور الإلحاد من قديم العصور ، وفى كل زمان : من رياء الناس وملقهم ، أو غفلتهم وحمقهم ، وعجزهم عن الصبر على أحكام العقل ، وإسراعهم إلى الباطل ، وشيوع الكذب فيهم ، قال :

« وبنو آدم بلا عقول .. هم كما قال الشاعر :

وَأَيُّا ، وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ رَبَّنَا لَكَالْبُدُنِ ، لَا تَدْرِى مَتَى حَفُّهَا الْبُدُنُ
« بل هم كأنهم غير مقتاد » .

« والناس إلى الباطل سراع ، ولهم إلى الفتن إشراع » .

« وليس ذلك يبدع من جعل الناس ، ولو عبّد عابداً ظمى كناس ؛ فقد نزل حظُّ على قرى ، فظفر بأكرم الورى . وقالت العامة : اسجد للقرى فى زمانه » .

(٤٥٤)

« والعالم مجبول على الخداع » وعلى الكذب والنفاق :

« والكذب كثير جم ، كأنه في النظر طود أشم ، والصدق لديه كالحصاة ، تُوطأ بأقدام عُصاة .

« والكذب غالب ظاهر ، والصدق خفي متضائل » .

« وللكذب سوق ليست للصدق » .

« من خبر هذا العالمَ حكم عليه بفجورٍ وميّن ، وأخلاقٍ تبعد من الزين » .

(٣٨٦)

« وإذا المعقول جعلَ هادياً ، تقع برّيه صادياً ، ولكن أين من يصبر على أحكام العقل ، ويصقل فهمه أبلغ صقل ؟ هيهات ! عُدِم ذلك في مَنْ تطلع عليه الشمس ، ومن ضَمِنه في الرمم رمسٌ ، إلا أن يشذ رجل في الأمم ، يُخص من فضلِ بعمم » .

(٤٦٤)

وقد سجل « أبو العلاء » ، كيف استغل المستغلون هذا الجهل من الناس ؛ وكيف استعبدوا العامة والطعام بألوان من الخديعة ، وفنون من الأكاذيب ، التماساً للمال وطلباً للدنيا ، فاتبعهم المتبعون جهلاً ، أو تقليداً ، أو تعصباً .
« وهذه الطبقة - لعنها الله - تستعبد الطعام بأصناف مختلفة .. وإذا علمت أن في الإنسان تميزاً ، أرتته إلى ما يحسن تحيزاً » .

(٤٣٩)

« وحكي لي أن للقرامطة بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم يخرج منه ، ويقيمون على ذلك البيت فرساً بسرج ولجام ، ويقولون للهمج والطغام : « هذا الفرس لركوب انتهى ، بركبه متى ظهر بحق بدى » ، وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل ، وتوصل إلى المملكة وتضليل »

(٤٤٢)

ويقدر « أبو العلاء » أثر التلقين ، والتقليد ، والعادة ، والتعصب ، في شيوع المذاهب وانتقالها جيلاً بعد جيل :

« ... وهذا أمر يُلقنه صغير عن كبير ، فيكون بالهلكة أو في صبير : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

الفرقان : ٤٤

« وقد تجد الرجل حاذقاً في الصناعة ، بليغاً في النظر والحجة ، فإذا رجع إلى الديانة ألقى كأنه غير مقتاد ، وأتما يتبع ما يعتاد » .

(٤٥٨)

« ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه من الأكبر ، فيلبث معه في الدهر الغابر . والذين يسكنون في الصوامع ، والمتعبدون في الجوامع ، يأخذون ما هم عليه كمثل الخبر عن المخبر ،

لا يميزون الصدق من الكذب لدى المعبر ، فلو أن بعضهم ألقى الأسرة من المجوس لخرج
مجوسياً ، ومن الصابئة لأصبح لهم قريباً سيئاً .
وإن البشر لكما جاء في الكتاب العزيز : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (١).
ومن تنبّه « أبى العلاء » إلى قدم هذا الداء وعمومه ، أن لم يخص به ملة دون غيرها ، لأن
البلية عامة ، « ولا ملة إلا ولها قوم ملحدون » .

(٤٢٩)

كما أنه لا يقصر الإلحاد على هذه الفئة التي اشتهرت به في العصر العباسي ، فقد ظهر في
قريش من قديم :
« وبعض العلماء يقول إن سادات قريش كانوا زنادقة ، وما أجدرهم بذلك ! وقال شاعرهم
يرثى قتلى بدر... » .

(٤٢١)

وظهرَ في عهد الخلفاء الراشدين :
« وكان ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي جَرَى له مع أبى بكر الصديق - رحمه
الله - خَطَب ، فلحق بأرض الروم . ويروى أنه قال :
لحقت بأرض الروم . غير مفكر بترك صلاةٍ من عشاءٍ ولا ظهر
فلا تتركونى من صبوح مدامة فما حَرَمَ الله السلاف من الخمر
فإن يك إسلامى هو الحق والمهدى فإنى قد خلّيته لأبى بكر !
... .. .

(٤٤٠)

« ولما أجلي عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه - أهلَ الذمة عن جزيرة العرب ،
شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن ، قال
فى ذلك :

يصول أبو حفص علينا بديرٍ رويدك ، إن المرء يظنّو ويرسب

الآيات : ٤٤١

... .. .

وظهر فى الدولة الأموية :

« وقد رويت لوليد بن يزيد أشعار ، يلحق به منها العار .. »

(٤٤٣)

* * *

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٣ .

عوامل انتشار الإلحاد :

على أن الإلحاد ، وإن ظهر في الإسلام مبكرًا ، فإن ظهوره كان يختلف قوة وضعفًا بحسب الأوضاع ، وتبعًا لظروف الزمان والمكان : فهو في الأطراف البعيدة عن مركز الخلافة أقوى منه في الوسط ؛ وهو بعد أن مزج العرب غيرهم ، أشد استفحالاً مما كان وهم في جزيرتهم ؛ وهو في عهود الحكام الضعاف أو المقبلين على الدنيا ، أظهر منه في عهود الخلفاء الأقوياء والأتقياء :

« وذلك أن العرب جاءها النبي ، ﷺ ، وهي ترغب إلى القصيد ، وتقصر هممها عن القصيد ، فاتبعه منها متبعون ، والله أعلم بما يوعون . فلما ضرب الإسلام بجرانه ، واتسق ملكه على أركانه ، مزج العرب غيرهم من الطوائف ، وسمعوا كلام الأطباء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق ، فمالت منهم طائفة كثيرة . »

« وما زال اليمن منذ كان معدناً للمتكسبين بالتدين ، والمحتالين على السحت بالتزني ، وحدثني من سافر إلى تلك الناحية ، أن به اليوم جماعة كلهم يزعم أنه القائم المنتظر ، فلا يعدم جباية من مال ، يصل بها إلى خسيس الآمال .. »

(٤٤٢)

* * *

ويقدر كتمان الإلحاد نفاقاً ومداراة وتقية : وحرصاً على المنفعة ، قال :
« ورُبَّ زارٍ بالجهالة على أهل ملة ، وعلته الباطنة أدهى علة ، وإن البشر لكما جاء في الكتاب العزيز : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾^(١) . » ويحضر المجلس أناس طاغون ، كأنهم للرشد باغون ، أولئك - علم الله - أصحاب البدع والمكر ..

« كم متظاهر باعتزال وهو مع المخالف في نزال ، يزعم أن ربه على الدرّة يخلد في النار ، بلة الدرهم وبله الدينار ، وما ينفك يحنق من المآثم عظام ، ويقع بها في أطائم . وينهمك على العهار والفسق ، ويظعن من الأوزار بأوفى وسقى .. قد صير الجدل مصيدة ، ينظم به من الغنى قصيدة . »

(٤٦٥)

وقال عن « الوليد بن يزيد » :

« فالعجب لزمانٍ صير مثله إمامًا ، وأورده من المملكة جمامًا ، ولعل غيره ممن ملك مثله أو قريبًا ، ولكن يسائر ويخاف تريبًا . »

وروى « أبو العلاء » قصة لها دلالتها على التكتم والرياء ، قال :

(١) من آية ٥٣ - سورة المؤمنون ٣٢ : الروم .

« .. وكان في ذلك العصر رجل له أصدقاء من الشيعة وصدیق زنديق ، فدعا المتشيعة في بعض الأيام فجاء الزنديق فقرع حلقة الباب وقال :

أصبحتُ جَمَّ بلابل الصدر مُتَقَسِّمَ الأشجان والفكرِ

فقال صاحب المنزل : ويحك مِمَّ ذا؟ فتركه الزنديق ومضى . فلقية صاحب المأدبة فقال له : يا هذا ، أردت أن توقعني فيما أكره - خوفاً من أن يظن أصدقائهُ أنه زنديق - فقال : ادعُهُم ثانيةً وأعلمني بمكانِهِم . فلما حصلوا عنده جاء الزنديق فقال :

أصبحتُ جَمَّ بلابل الصدر مُتَقَسِّمَ الأشجان والفكرِ

فقال : ويحك ، مِمَّ ذا؟ فقال :

مِمَّا جناه على « أبي حَسَنٍ » « عُمَرُ » ، وصاحبُهُ « أبو بكرٍ »

وانصرف ، فقرح الشيعة بذلك . ولقيه صاحب المنزل فقال : جَزَيْتَ عني خيراً فقد خلصتني من الشبهة .

(٤٤٣)

ونقل « أبو العلاء » رأى من قالوا بعدم قبول توبة الزنديق الخائف من القتل قال : « وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجل إذا ظهرت زندقته ثم تاب فرعاً من القتل لم تقبل توبته ، وليس كذلك غيرهم من الكفار .. » .

(٤٣٦)

وعلق « أبو العلاء » على توبة « صالح بن عبد القدوس » ساعة الأمر بقتله : « وأما رجوعه عن الزندقة لما أحس بالقتل ، فإنما ذلك على سبيل الختل . فصلى الله على محمد ، فقد روى عنه أنه قال : (بعثت بالسيف) الحديث . حديث آخر : (لا تزال أمتي بخير ما حملت السيوف) . والسيف حَمَلَ « صالحاً » على التصديق ، وردّه عن رأى الزنديق » .

(٤٣٦)

الظاهر بالمذهب تزلفاً أو نظرفاً :

وكما قدر « أبو العلاء » وجود من يكتمون الزندقة رياء وتستراً ، أو خوفاً وتقيّةً ، قدر كذلك أن هنالك نفراً غيرهم ، يتظاهرون باعتناق مذهب لا يؤمنون به ، إما مجوناً ونظرفاً ، أو ملقاً وتزلفاً ، أو على مذهب الشعراء : يقولون ما لا يفعلون .

(٤٣٤)

وفى الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقدّه ، يتوصل به إلى الدنيا الفانية .

(٤٦١)

« وقالت العامة : أَسْجُدْ للقرد في زمانه » ، وأنا أتخوَّب من ذكر القرد الذى يُقال إن القُوَادَ في زمن « زبيدة » كانوا يدخلون لسلام عليه ، وأن « يزيد بن مزيَدَ الشيبانى » دخل فى جملة المُسَلِّمِينَ فقتله .

(٤٥٤)

« وربما كان الجاهل أو المتجاهل ، ينطق بالكلمة ، وَخَلَدُهُ بَضْدُهَا أَهْلٌ . وإنما أقول ذلك راجياً أن أبا عيسى - ابن الرشيد - ونظراءه ، لم يتبعوا فى الغنى أُمَرَاءَهُ ، وأنهم على سِوَى مَا عَلَنَ يَبْتَغُونَ .
« ورأى بعضهم عبدَ السلام بن رَعْبَانَ المعروف بديك الجن ، فى النوم وهو بِحُسْنِ حال ، فذكر له الأبيات الفائية :

هى الدنيا وقد نعموا بأخرى وتسويفُ الظنون من السواف !

أى الهلاك . فقال : إنما كنت أتلاعب بذلك ولم أكن أعتقده .
« ولعل كثيراً من شهرٍ بهذه الجهالات تكون طَوَيْتُهُ إقامةَ الشريعة ، والإرتاع برياضها المرِيعة ، فإن اللسان طَمَّاح ، وله بالفنْدِ إِسْمَاح » .

(٤٤٦)

مفتريات وتقوليات :

ولم يغفل « أبو العلاء » ، عمَّا داخلَ المروىَّ عن الزنادقة ، ورؤساء الطوائف والمذاهب ، من مفتريات وتقوليات وأكاذيب ، إما كيداً وانتقاماً ، كما حدث لبشار من يعقوب بن داود (٤٢٩) ، وإما تزييداً وتقولاً ، كالكثير مما افترى للحلاج ، وما قيل على لسان العلوى البصرى (٤٨٨ : ٤٥٣) .

ولم تمنعه مكانة « على » كرم الله وجهه - وقلمما يفوته أن يذبل اسمه بالسلام عليه ، ويجعله فى رحلة الغفران إلى العالم الآخر شفيحاً عند الرسول ﷺ فى الشفاعة للأعشى ، كما يجعل آله رضى الله عنهم وسيلةً إلى « فاطمة » عليها السلام ، ، ويخصِّمهم يوم الحشر بموقف كريم من رِضَا الله . ويعرض « تميم بن أُنَيْب بن مقبل » لحسابٍ شديد ، لأنه كان فيمن قاتل على بن أبى طالب (٢٤٧ : ٢٥٢) .

أقول : لم تمنعه مكانة على كرم الله وجهه ، من أن يحمل على غلاة الشيعة ، ويرفض ما ادعوه لأُمير المؤمنين ، مما لا يقبله عقل .

« وكذلك ادعاء من يدعى أن علياً عليه السلام قال : « تهلك البصرة بالزنج » ، فصَحَّفَهَا أهل الحديث « بالريح » . لا أو من شىء من ذلك . ولم يكن على عليه السلام

من يُكشَف له عِلْمُ الغيب ، وفي الكتاب العزيز : ﴿ لا يعلم مَنْ فى السموات والأرض الغيبَ إلا اللهُ ﴾ (١) .

« وأما الذين يدعون فى عِلْمٍ ما يدعون ، فتلك ضلالةٌ قديمة ، ودِيمةٌ من الغواية تتصل بها ديمة ..

« واعتقادُ الكيسانية فى « محمد بن الحنفية » عجيب ، لا يصدقُ بمثله نجيب . وقد روى أن أبا جعفر المنصور رُفِعَتْ له نارٌ فى طريق مكة فى الليلة التى مات فيها فقال : قاتل الله الحِميرى ، لو رأى هذه النارَ لظنَّ أنها نار محمد بن الحنفية .

(٤٩٣ - ٤٩٤)

« وتؤدى هذه النحلة إلى التناسخ ، وهو مذهب عتيق ، يقول به أهل الهند ، وقد كثر فى جماعة من الشيعة » (٤٥٨) .

« وبعض الشيعة يحدث أن سلمان الفارسى فى نفر معه ، جاءوا يطلبون على بن أبى طالب سلاك الله عليه ، فلم يجدوه فى منزله ، فبينما هم كذلك جاءت بارقةٌ تتبعها راعدة ، وإذا على قد نزل على إجر البيت ، فى يده سيف مخضوب بالدم ، فقال : « وقع بين فتنتين من الملائكة ، فصعدت إلى السماء لأصلح بينهما » . فحاق بهم العذاب الأليم . أفلا يرى إلى هذه الأمة كيف افتنت فى الضلالة كافتنان الربيع فى إخراج الأكلاء » .

(٤٩٧ - ٤٩٨)

موقف أبى العلاء من يدعى الربوية :

ولا أرتاب فى صدق « أبى العلاء » فى الحملة على أباطيل المُدَّعين ، وأكاذيب أصحاب البدع والنحل ، ولعل أشدَّ ما كان يغيظه من هذا ، التجاسُّر على ادعاء الربوية : « وهذه الطبقة - لعنها الله - تستعبد الطغام بأصناف مختلفة ، فإذا طمعت فى دعوى الربوية لم تتَّيب^(٢) فى الدعوى ، ولا لها عمًا قُبِح رعى .

« وإذا طمع بعض هؤلاء ، فإنه لا يقتنع بالإمامة ولا النبوة ، ولكنه يرتفع صُعدًا فى الكذب .

« ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة فى الدهر القديم ، لما حضرته المنية جمع أصحابه ، وجعل يقول لهم لما أحس بالموت : « إني قد عزمت على النقلة ، وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمدًا ، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء » . فعليه اللعنة !! لقد كفر أعظم الكفر ، فى الساعة التى يجب أن يؤمن فيها الكافر ، ويثوب إلى آخرته المسافر »

(٤٤٢)

* * *

(١) من آية ٦٥ سورة النمل .

(٢) أى : لم تَسْتَح .

وأما موقف أبي العلاء من ادعاء النبوة ، فهو يابها إباء صادقاً مخلصاً ، ويرأها من مُدعيها أكذوبة سافرة ، فمضى يكشف عن زيف « معجزات المتنبي » على الرغم مما يُكِنه للشاعر من تقدير .

(٤٤٢)

وقال : « ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه العظام ، والأمور غير النظائم ، بل كانت عقولهم تجنح إلى رأى الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء ، إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بِنبي ، وينظرون إلى من زعم ذلك بعين الغبي » .

(٤٤٠)

« .. وافتنَّ الناس في الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية ، فكان ذلك تنطساً في الكفر ، وجمعاً للمعبصية في المزداد الوفر ، وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجاوزون ذلك إلى سواه » .

(٤٤١)

* * *

بعد هذا العرض السريع لما تقدم (رسالة الغفران) من آراء في طبيعة الإلحاد ، ومنشئه ، ودواعيه ، وعوامل انتشاره ، أرى أن « نيكلسون » لم ينصف الغفران حين قال : « وأبو العلاء لا يحاول أن يتعمق ويمضى إلى ما تحت السطح ، بل إن ملاحظاته في أصل الزندقة جزئية تافهة . فهو لا يقدم نظرية كذلك التي قدمها Chwolson فكان من الممكن أن تقوم عليها قضية قوية ، وهي أن كثيراً من هذه النحل قد تسرب إلى الإسلام منتشراً عن طريق الفرس ، لإفساد المحمدية وتطعيمها بعناصر وأفكار فارسية ، ولكي تعيد إقامة الدين القديم على أنقاض مضطهده :

To honey comb Muhammadanism with, ideas and finally to re-establish the old faith upon the ruins of its oppressor.^(١)

والتمس « نيكلسون » العذر لأبي العلاء فيما ذهب إليه من « سطحية ملاحظاته » ، فقال : « ومع كل ، فكيف يستطيع رجل الآداب ، وإن يكن مفكراً وشاعراً ، أن يستوعب التصور الفلسفي للتاريخ ، وهو ما يندر وجوده عند مؤرخي الإسلام المختصين ؟ »^(٢) . وهو اعتذار يحمل دليل اتهامه ، فقد نظر المستشرق إلى أفكار « أبي العلاء » بعين لا يُرضيها تفكير مؤرخي الإسلام بعامة ، وحكم بلسان قوم يتهمون العقل الإسلامى بالعجز عن استيعاب التصور الفلسفي .

(١) J.R.A.S. 1902 P. 77

(٢) J.R.S. 1902. P. 77

ولعله لو عرض أقوال « أبي العلاء » في الزنادقة ، على النقد الحر والنظر المجرد عن العصبية ، لَقَدَّر ما تقدمه « الغفران » من أخبار عن الزنادقة ، وآراء في طبيعة معتقداتهم ، ليست من التفاهة والسطحية كما يقول ؛ ولا هي أقل قيمة تاريخية اجتماعية ، مما عده نظرية « شوانسون » .

* * *

على أن في (الغفران) إلى جانب هذه الأقوال عن الزنادقة والإلحاد ، أقوالاً أخرى لها اتصال بالموضوع من بعيد ، كالفراسة ، والتنجيم ، والطيرة ، والشعوذة . وموقفه منها مثل موقفه من النحل : حزنٌ لجهل البشر وحمقهم ، وسخطٌ على ريائهم ونفاقهم ، واحتكامٌ إلى العقل وإلى ضوابط المنهج النقلي ، في قبول ما يقبل من هذه الأخبار ، ورفض ما يرفض منها .

* * *

٣ - المسائل اللغوية والقضايا النقدية

- مكانها في الغفران .
الشعر ، والعروض ، والموسيقا .
الأمالي اللغوية :
النحو والصرف ، الأدب ، النقد ، الرواية .

مكانها في الغفران :

لم يأت « أبو العلاء » بهذه المسائل درساً متميزاً في القسم الثاني من الرسالة ، أو موضوعاً مفرداً بحيث تلقاها مجتمعة في مكان ، وإنما ساقها شتى متناثرة ، في ثنايا الرد على رسالة « ابن القارح » ، علي حين تراه يفرغ في القسم الأول لرؤيا الجنة والنار ، كما يأتى الحديث عن الزندقة ، متميزاً في موضعه من الرد على ابن القارح .

وهذا الصنيع من « أبي العلاء » يشبه أن يكون تناولاً عَرَضِيًّا للمسائل اللغوية والأدبية ، غير مقصود لذاته ، وهذا هو ما دعا الأستاذ « الدكتور طه حسين » إلى الحكم بأن « أبا العلاء قصد إلى الفن الخاص ، وأما العلم فجاء عرضاً » .

غير أننا لو رجعنا البصر في هذه المقولة لترددنا في الحكم بأن ما أملاه « أبو العلاء » منها في (الغفران) قد جاء عرضاً ، بل لعلنا لا نكتفى بالقول بأنها عنصر جوهري من عناصر الرسالة ، وموضوع هام من مواضعها الكبرى ، بل يقرب أن تكون الموضوع الأول في (الغفران) ، حيث المطلب الشاغل لأبي العلاء عرض هذه المسائل اللغوية ، اعتزازاً بما يحفظ منها ، وإدلالاً بما له من رأى فيها . وقد كان عالمه الآخر عالم أديب ، لغوى ، شاعر ، ناقد ، لم يرض أن يشغله شاغل عن حوار الأدبي وأماله اللغوية وأحكامه النقدية ، ولم يحتمل أن ينصرف عن هذا في جنة أو جحيم ، وطالما سمعناه يتعرض للشعراء واللغويين في الجنة ناقداً مناقشاً ، أو حافظاً راوية ، وإن يكونوا « في شغل هذه الأباطيل » .

كما رأيناه في موقف الهول حين الحشر ، يثير معركة أدبية يسوق فيها مأخذه على الرواة والنحاة « ومنادى الحشر يقول : أين فلان بن فلان ، والشوس الجابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم ، والنسوة ذوات التيجان يُصَرَّنَ بالسنّة من الوقود ... والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغون في سلاسل النار » (٢٤٨) .

ثم لما رحل بابن القارح إلى الجحيم ، ألقيناه يلتمس الشاعر بعد الشاعر ، ليسأله ويحاوره ، على مرأى من الزبانية والنار ومقامع الحديد .

وكذلك كان صنيعه في القسم الثاني من الرسالة ؛ لا يكاد يتناول مسألة من المسائل التي تعرض لها « ابن القارح » في رسالته ، إلا اتخذها سبيلاً لمناقشة رأى أدبي ، أو تحقيق مسألة لغوية ، أو عرض نقد فني ، أو إملاء فصل في مسألة بعينها من اللغة . ولعل مثل هذا يكفي للقول بأن الجانب اللغوي في (الغفران) يكاد يكون موضوعها الأول ومطلبها المقصود ، ومن هنا لم يتناولها « أبو العلاء » في مكان بعينه من (الغفران) ، ولم يخصص لها فصلاً من فصول رسالته ، بل بثها في كل مناسبة ، ويشغل بها في كل فصل .

وقد كانت (رسالة الغفران) من هذه الناحية ، موضع تقدير النقاد ، المتقدمين منهم والمتأخرين : أشار الذهبي إلى ما فيها من « أدب كثير » . وقال « الصفدي » في (الغيث المسجم) : « ومن وقف على كلام أبي العلاء المعري في رسالة الغفران في ذينك البيتين اللذين للنمر بن تولب ... وكيف غير القوافي منهما ونزلها على سائر حروف المعجم ، خلا حرف الطاء^(١) ، عَلمَ تمكنَ أبي العلاء من الأدب ، وإطلاعه على اللغة » .

وقال أستاذنا الدكتور طه حسين : « فإذا قرأت رسالة الغفران ، عرفتَ مقدار حذقه في استظهار الغريب وتحقيقه ، وحفظ ما كان بين العلماء من الاختلاف »^(٢) .

كما قال بعد أن عرض لصنيعه ببيتى النمر : « فهذه القصة تظهرك على حظ أبي العلاء من الغريب وروايته ، وقدرته على الفقه به والتأول فيه ، كما أنها تظهرك على مقدار ما كان له من الصبر الشديد على البحث والاستقراء »^(٣) .

والتفت « ميغيل أسين بلاثيوس » إلى مكان اللغويات من الرسالة فقال^(٤) :

« ... ومع ذلك ، فإن المسألة الدينية تبدو ثانوية ، وأما الموضوع الرئيسي للرسالة فهو الحوار ونقد أعمال الشعراء » . كما نص « بلاثيوس » في مكان آخر ، على أن المقصد الرئيسي الذي كان « أبو العلاء » يتبعه : أدبي فني^(٥) .

(١) يلاحظ هنا ، أن في الغفران - كما وصلت إلينا - قافية على الطاء قال : « فإن قال : من أم لقط ، جاز أن يقول : حواري بأقط - يريد أقط على اللغة الربعية - ١٦٢ » ولعل الطاء في عبارة « الصفدي » مصحفة عن الطاء ، إذ أشار « أبو العلاء » إلى قتلها ، وإن يكن - رغم القلة - جاء بما يسوى القافية عليها ، قال : فإن من أم حظ ، فإن الألعمة تقل فيها الطاء كقلتها في غيرها ، لأن الطاء قليلة جداً ، ويجوز أن يقول حواري بكظ ، أي يكظها الشيع ، أو نحو ذلك من الأشياء التي تدخل على معنى الاحتيال - ١٦٢ ط رابعة ذخائر .

(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء - ٢٤٢ .

(٣) تجديد ذكرى أبي العلاء - ٢٤٣ .

(٤) Miguel Asin: Islam and the Divine Comedy. P. 65. London 1926.

(٥) Miguel Asin: Islam and the Divine Comedy. P. 67.

وهذا يقتضى أن يكون لهذا الجانب قدر وافر من عنايتنا ، حين نتحدث عن المعالم الكبرى لنص الغفران .

على أن عنايتنا هنا لا تتجاوز حدودًا معينة ، إذ لا نبيح لأنفسنا أن نعرض لما لم نفرغ له من تلك المسائل ، كالعروض والموسيقا والقراءات ، فذلك أحق بالدرس المفرد ، يسبقه جمع إحصائي لما توزع في (الغفران) من هذه المسائل ، وتنظيمها أنواعًا ، كل نوع منها يضم الأشباه والنظائر مبثوثة في الرسالة .

فحسبنا إيراد الأمثلة والشواهد لعالم « أبي العلاء » اللغوى الأديب الشاعر الراوية الناقد النظائر ..

* * *

بين أيدينا عدد من البحوث الموجزة ، عالجت بعض هذه الجوانب الأدبية الفنية ، وإن كانت قد تناولت الموضوع جملة في آثار « أبي العلاء » بوجه عام ، وقد أشرنا - فى حديثنا عن الزندقة - إلى البحث الذى ألقاه أستاذنا « عبد الحميد العبادى ، رحمه الله » فى المهرجان الألفى للمعري ، عن (ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء) ، وذكرنا ما جاء به فى بحثه من (رسالة الغفران) ، من إشارة إلى الحديث عن الفرق والنحل الإسلامية ، وما جاء فى قصيدة أبي هدرش من وقائع تاريخية ، وكلامه عن الدينير والعملة الإسلامية .

وأشير هنا إلى بحثين آخرين أعدا للمناسبة ذاتها - المهرجان الألفى لأبي العلاء - أحدهما للأستاذ « فخرى البارودى » عن (المعرى والموسيقا) ، والثانى لأستاذنا « إبراهيم مصطفى رحمه الله » ، موضوعه : « أبو العلاء وعلم النحو » ، ومع أنهما - كما قلت - لم يختصا الغفران بالدرس ، فإن ما فى بحثيهما وبحث الأستاذ العبادى عن التاريخ فى أدب أبي العلاء - لم يخرج فيه عن الغفران - يقوى الشعور بضرورة تحقيق ما نرجوه من أفراد كل جانب من هذه الجوانب بالدرس المستقل^(١) .

وأنبه بادئ ذى بدء ، إلى أن هذه المسائل اللغوية والأدبية متداخلة فى الغفران ، فكثيرا ما يتعرض « أبو العلاء » للمسألة الواحدة ، من ناحية اشتقاقها اللغوى وإعرابها ، وتوجيه قراءات الأئمة ، للشواهد القرآنية ، كما يتعرض لها ثانية من ناحية وزنهما العروضى ، وثالثة من ناحية النقد الأدبى ، وأكثر ما يكون هذا التداخل ، فيما بين المسائل الشعرية والنقد الأدبى ، وكذلك فيما بين الجوانب اللغوية قراءة وفقهاً وتصريفاً وإعراباً ، بحيث تضطر إلى تكرار عرض المسألة ، مرة فى القضايا النقدية مثلاً ، وأخرى فى اللغوية .

على أنا حاولنا - قدر المستطاع - أن ننسق هذه المسائل ضبطاً للتناول ، وهو تنسيق أعوزنا فيه وضع كل مسألة فى باب بعينه ، فنظرنا فيها إلى الوجه الغالب عليها ، ومن ثم كانت الدوائر

(١) على نحو ما فعل الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسى فى كتابه « النقد واللغة فى رسالة الغفران ط دمشق » .

المرسومة لمباحث للباب مرنة ، تتسع في النحو مثلاً لبحث لغوى اشتقاقى جاء مع المسألة النحوية . وتضم في العروض مثلاً ، نقداً أدبياً جاء في سياق التحدث عن إقواء ، أو سناد ، أو زحاف ، أو مآخذ الشعراء لرواة شعر لهم ، أو فى وجه من القراءات .

* * *

الشعر والعروض :

ونبدأ بالحديث عن هذا الباب ، لأن عملنا فيه يقتصر على عرض نماذج مما فى (الغفران) منها ، وقد نقل بعض أقوال ذوى الرأى فى هذه المسائل ، إذا كان لأقوالهم بالغفران اتصال ، كما قد نشير إلى ما تناوله الأقدمون من هذه المسائل التى نعرض لها فى (الغفران) ونوجز ما لهم فيها من مذاهب وأقوال .

وحظ المسائل الشعرية من (الغفران) غير قليل ، يكفى أن نلفظن لأن نشير إلى أن « أبى العلاء » لم يقابل فى زيارته للجحيم سوى الشعراء وحدهم ، لتقدر اهتمامه برواية الشعر ونقده . ولأبى العلاء - غير هذه المحاورات مع الشعراء - آراء وأقوال فى الشعر والعروض ، نراها ماثوثة فى كثير من مواضع (الغفران) . ومن هذه الأقوال ما هو إلى النقد الأدبى أقرب ، لكننا نأتى هنا بأمثلة منه ، تدل على مذهب « أبى العلاء » فى الأمانى الشعرية ، وأسلوبه فى عرض قضاياها وأحكامه .

* * *

ونبدأ بالإشارة إلى مسألتين لم يتعرض « أبى العلاء » فيهما لشعر سواه ، وإنما قدّم بهما عملاً أدبياً نضيفه إلى رصيده الغنى : ونعنى بهما : قصيدته على لسان العفريت « أبى هدرش ، الخيضور أحد بنى الشيبان ، من الجن المؤمنين » ، وعدد أبيات الأولى عشرون بيتاً ، ومطلعها :

حَمَدْتُ مَنْ حَطَّ أَوْزَارِي وَمَزَقَهَا عَنِّي فَأَصْبَحَ ذَنبِي الْيَوْمَ مَغْفُورًا

(٢٩٢)

وعدد أبيات الأخرى تسعة وستون بيتاً ، ومطلعها :

مَكَّةُ أَقْوَتْ مِنْ بَنِي الدَّرْدَبِيسِ فَمَا لِحِجْنِيُّ بِهَا مِنْ حَسِيسِ

(٢٩٨)

وفيها تتجلى براعة « أبى العلاء » ، ودقة حسه وسلامة ذوقه ، وعلمه بالغريب ، فقد استطاع هذا الشيخ الزاهد أن ينطق بلسان جنى ، ويروى مغامرته قبل إيمانه ، ويقص غزواته فى بنى الإنسان ، فيخيل إليك أن هذا صوت عفريت حقاً : وأنه من شعر الجن صدقاً ،

بقافيته ، وألفاظه ، وجرسه وإيقاعه ، وأسلوبه ومعانيه . وقد واتت « أبا العلاء » مقدرته الشعرية فنظم ما نظم ، في مثل هذا ، دون أن يتعثر ، وأسعفته ثروته اللغوية ، فاختر ما شاء من الألفاظ ، غريبة ذات رنين خاص ، كأنما جاء بها من قاموس الجن :

يغور - الهيق - الطنبوب - عمروس - فرفور ، الدرديس - رديس - طسيس -
 غيبس - العريسيس - يعاليل - نكيس - الأنقليس - الخفيس - نهيس - اللسيس -
 الورييس - الرعيس - الدخيس - الشكيس - هلبسيس - العتريس - المرريس
 قد يتوهم سامع أن من هذه الألفاظ ، أصواتاً لا معنى لها ، جاء بها « أبو العلاء » من وادي العفاريات المتخيل ، لكننا إذا رجعنا إلى معاجمنا ، ألفينا هذه الكلمات جميعاً ، إنسية خالصة ؛ شاهدة لصحة معانيها في قصيدتي العفريت ؛ وسلامة مدلولها ، دون تكلف أو تعسف^(١) .

* * *

وأخرى نشير إليها ها هنا ، وهي تفرعه على قافية بيت « النمر بن تولب » :
 أَلَمَّ بِصُحْبَتِي وَهُمْ هُجُوعٌ خِيَالٌ طَارِقٌ مِنْ أُمِّ حِصْنٍ
 لَهَا مَا تَشْتَهِي : عَسَلًا مُصْفًى إِذَا شَاءَتْ ، وَحُوَارَى بِسَمْنٍ
 وميمية « النابغة الجعدي » :

طَيِّبَةُ النَّشْرِ وَالْبَدَاهَةِ وَالـ
 عِلَاتٍ عِنْدَ الرَّقَادِ وَالنَّسَمِ

ورائية « النابغة الذبياني » :

وَإِنِّي لِأَلْقَى مِنْ ذَوَى الضُّغْنِ مِنْهُمْ وَمَا أَصْبَحْتُ تَشْكُو مِنْ أَلَمِّ سَاهِرِهِ

فلأبي العلاء هنا ثلاث محاولات تُحمَل على الرياضة في الدرس الشعري واللغوي :
 في الأولى ، نراه يمر بالقافية في بيتي « النمر » على حروف المهجاء جميعاً ، مبتدئاً من حيث انتهى « خلف الأحمر » في محاولته الجزئية المفردة ، التي لم تتجاوز استبدال خلف الأحمر الصاد في قافية بيتي النمر بالنون ، قال أبو العلاء :

« وهو - أي ابن الفارح - يعرف حكاية خلف الأحمر مع أصحابه في هذين البيتين ، ومعناها أنه قال لهم : لو كان موضع أم حصن ، أم حفص ، ما كان يقول في البيت الثاني ؟ فسكتوا . فقال : حواري بلمص ، يعني الفالوذ » .

ثم استطرد أبو العلاء :

« ويُفَرِّغُ عَلَى هَذِهِ الْحِكَايَةِ فَيَقَالُ : لو كان مكان أم حصن ، أم جزء ، وآخره همزة ، ما كان يقول في القافية الثانية ؟ » .

(١) يأتي المشهد كاملاً في مشاهد مسرح الغفران . وارجع إلى نص القصيدتين في صفحتي ٢٩٢ ، ٢٩٨ من (رسالة الغفران) - ط ذخائر . وفيه تفسير الغريب من الألفاظ .

واستمر حتى اتى بالقافية على حروف الهجاء جميعاً ، متتهزأ كل مناسبة ، ليملى فصولاً لغوية ، ومستطرذاً بين أن وان ، إلى تفسير أو شرح أو تعليق ، على النحو الآتي مثلاً :

« فإن خرج إلى الحاء فقال : من أم شح ، جاز أن يقول : وحوارى بمح ، وبُح ، وبرح ، وبيح ، وبسح . فالح : مُحّ البيضة ، ويُح : جمع أمح ، من قولهم : كسّر أمح ، أى كثير الدسم ، قال :

وعاذلة هبت على تلومنى وفى كفها كسّر أمح رذوم

» ويجوز أن يعنى بالبحّ القداح ، أى : هذه المرأة أهلها أيسار ، كما قال السلمى :

قرّوا أضيفهم ربّحاً بيح يعيش بفضلهنّ الحى ، سمر

ورح جمع أرح ، وهو من صفات بقر الوحش ، أى يصاد لهذه المرأة ... والسح : تمر صغار يابس ، والجحج : صغار البطيخ

« فإن قال : أم كرز ، فإن أشبه ما يقول : وحوارى بأرز ، وفيه لغات سيت : أوز ، على وزن أشد ، وأرز على وزن صمّل ، وأرز على وزن شغل ، وأرز على وزن قفل ، ورز على وزن جد ، ورز ، بنون ، وهى رديئة

» ... فإن قال : أم نخل ، قال : حوارى برخل ، يريد الأثنى من أولاد الضان ، وفيه أربع لغات : رخل ورخل ورخل ورخل . وهكذا إلى حرف الياء

وقد وقف دارسون عند هذه المحاولة معجيين ، نذكر منهم الصفدى ، والدكتور طه حسين ، وقد سمعت ما قالوا فيها (١٥٤ - ١٦٤) .

* * *

وفى ميمية « النابغة الجعدى » ، ورائية « الدينانى » محاولتان أخريان ، لا تتصلان بالقافية والتفريع عليها ، بل بالألفاظ والمعانى ، فهو يتلو قصيدة الجعدى :

طيبة النثر والبداهة وال	جلات عند الرقاد والنم
كأن فاهما إذا تبتة من	طيب مشم وحسن مبسم
يسن بالضرو من براقش ، أو	هيلان ، أو ضامر من العم
ركر فى البسام والزيب أقا	جى كتيب تعل بالرهام
بماء مزن من ماء دومة قد	جرد فى ليل شمال شم
القى فيه فلجان : من مسك دا	رين ، وفلج من قفل ضم

إلى آخر القصيدة .

ثم يتبعها بالنقد لألفاظها ومعانيها ، عن طريق مقارنتها بما يجد في الجنة ، على النحو الآتي :

« أين طيبُ هذه الموصوفة من طيب مَنْ تشاهده من الأترابِ العُربِ ؟ .. وأين فوها المذكَر من أفواهِ ماوُلج إليها المنكر ؟ .. ما سأمكُ أيها الرجل وزبيك ، ما حَسُن في العاجلة حبيبك ، وإن ثغراً يفتقر إلى قضيب البشام ، كَيْجَشِيمُ حليفه بعضَ الإجشام »
« وما الماء الذي وصفته من دَوْمَةٍ ، وغيره ينافي اللُّومَةُ ؟ أليس هو إن أقام أجنَ ؟ »
« ما عُقارك وما فِلْجَاك ؟ زالتْ عن مقلتكِ دُجَاك ! ولو دخل مسكُ دارينِ جنةَ ربنا الموهوبةَ لغير المُمَارين ، لعدَّ في ترابها الذُّفِر ، كَصَيِقِ المقتولِ ، أو دنسِ قَدَمِ مبتول ؟ زعمتْ أنها تُطَيَّبُ بالفلفل ، وشبَّهها غيرك بنسيم القرنفل ؟ إن في هذه المنزلةَ لَنَشْرًا ، لا يزيد على نشر الفانية عَشْرًا ، ولكن يشِفَّ بعددٍ لا يُدرِك ولا يُنال .. »

(٢١٩ : ٢٢٣)

وأما قصيدة « اللذياني » ، « فأبو العلاء » يُحلّ نظمها في قصة ترويتها إحدى حَيَاتِ الجنة ، محتفظاً بالأفاظ « النابغة » وعباراته ، ثم يتلو القصيدة بعد أن تفرغ القصة (٣٦٤) .

* * *

وننظر فيما جاءت به (رسالة الغفران) من مسائل الشعر ، فراها حافلة بكثير منها :

تعريف الشعر :

يعرف « أبو العلاء » الشعر بأنه :

« كلام موزون تقبله الغريزة ، على شرائط ، إن زاد أو نقص أبانه الحِسُّ » .

العرب والشعر :

ويشير إلى اختصاص العرب به وتعلقهم بنظمه ، فيقول على لسان ابن القارح في موقف الحشر ، بعد أن يئس من « رضوان » خازن الجنة :

« .. وانصرفتُ بأملِي إلى خازنِ آخرٍ يقال له زُفَر ، فقلت : رحمك الله ! كنا في الدار الذاهبة نتقرب إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة ، فنجد عنده ما نحب ، وقد نظمتُ فيك ما لو جُمِعَ لكان ديوانًا ، وكأنك ما سمعتَ لي زجمة - أي كلمة - فقال : لا أشعر بالذي حممت - أي قصدت - وأحسب هذا الذي تجيئني به قرآن إبليس المارد ، ولا يَنفُقُ على الملائكة ، إنما هو للجان ، وعلموه ولد آدم ، فما بُغيتك ؟ فذكرتُ له ما أريد ، فقال : والله ما أقدر لك على نفع ، ولا أملك لِخَلْقٍ من شَفَع ، فمِنَ أَيِّ الأُممِ أنت ؟ فقلتُ : من أمة

محمد بن عبدالله بن عبد المطلب . فقال : صدقتَ ، ذلك نبي العرب ، ومن تلك الجهة أتيتني بالقرىض ، لأن إبليس اللعين نَفَثَهُ في إقليم العرب ، فَتَعَلَّمَهُ نِسَاءُ ورجال « (٢٤٧ : ٢٥٢) . كما يشير إلى تعلق العرب بالنظم ، وإن لم يكن صناعة راجحة ، قائلاً على لسان « حميد بن ثور الهلالي » :

« ولقد كان الرجل منا يُعمل فكرَه السنةَ والأشهرَ ، في الرجل قد آتاه الله الشرفَ والمالَ ، فربما رجع بالخيبة ، وإن أعطى فِعطاءً زهيداً ، ولكنَّ النظمَ فضيلةُ العرب » . (٢٦٣) .

من أنواع البديه :

في الرد على ابن القارح تحدث في (الغفران) عن أفانين البديه :
 فمناه (القَبَل) وهو الارتجال .
 (وبديهُ التمليط) وذلك أن يقول شاعر نصف بيتٍ ويُتمِّمهُ الآخرُ .
 (وبديه الإِعاتات) (٥٤٧) .

التلية :

وجاء في (الغفران) بفصلٍ في التلية عند العرب ، جمع فيه قدرًا من تليات القبائل في الجاهلية . قال يشير إلى حجاج « ابن القارح » الخمس :
 « وكأني به وعمائمُ الحجيج يرفعون التلية بالحجيج ، وهو يفكر في تليات العرب ، وأنها جاءت على ثلاثة أنواع : مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور ، فالمسجوع كقولهم :

ليبك ربنا لبيك والخير كله بيدك
 والمنهوك على نوعين : أحدهما من الرجز ، والآخر من المنسرح :
 فالذي من الرجز كقولهم :

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
 إلا شريك هو لك تملكه وما ملك
 أبو بنات يَفدك

فهذه من تليات الجاهلية ، « وفدك » فيها يومئذ أصنام . وكقولهم :

ليبك يا معطى الأمير لبيك عن بني النمر
 جئنك في العام الزمر تأمل غيثا ينهمر
 يطرق بالسبل الخمر

والذى من المنسرح جنسان : أحدهما فى آخره ساكنان ، كقولهم :
 لبيك رب همدان من شاحطٍ ومن دان
 جئنك نبغى الإحسان بكل حرفٍ مبدعان
 تطوى إليك الغيطان تأمل فضل الغفران
 والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم :

لبيك عن بجيلة الفخمة الرجيلة
 ونعمت القبيلة جاءتك بالوسيلة
 تؤمل الفضيلة

وربما جاءوا به على قوافٍ مختلفة ، كما رَوَوْا فى تلبية « بكر بن وائل » :

لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقياً
 جئنك للنصاحه لم تأت للرقاحه

والمشطورُ جنسان : أحدهما عن « الخليل » من الرجز ، كما روى فى تلبية
 « تميم » :

لبيك لولا أن بكرًا دونكاً يشكرُك الناسُ ويكفرونكاً

مازال منّا عثجٌ يأتونكاً

والآخر من السريع ، وهو نوعان : أحدهما يلتقى فيه ساكنان ، كما يروون فى تلبية
 « همدان » :

لبيك مع كل قبيلٍ لبوك همدانُ أبناءُ الملوكِ تدعوكُ

قد تركوا أصنامهم وانتابوكُ فاسمع دعاءً فى جميع الأملوكُ

قولهم : « لبوك » ، أى : لزموا أمرك ، ومن روى « لبوك » فهو سناد مكروه .
 والمشطور الذى لا يجتمع فيه ساكنان ، كقولهم :

لبيك عن سعيدٍ وعن بنيها وعن نساءٍ خلفها تعنيها

سارت إلى الرحمة تجتنيها

والموزون من التلبية يجب أن يكون كُله من الرجز عند العرب . ولم تأت التلبية
 بالقصيد ، ولعلمهم قد لبوا به ولم تنقله الرواة « ٥٣٤ : ٥٣٧ .

درجات الشعر ومراتب الشعراء :

أشار « أبو العلاء » غير مرة ، إلى أشعار الضعفة من المحدثين ، وتكلم طويلاً في ضعف الرجز ، وقصوره عن مراتب الشعر ، وما يغلب عليه من خشونة وتكلف . وقد عرض لهذه المسألة أولاً حين قال ، بلسان ابن القارح ، لامرئ القيس :

« أخبرني عن التسميط المنسوب إليك ، أصحيح هو عنك ؟ » وينشده الذي يرويه بعض الناس :

يا صحبنا عرجوا تقف بكم أسج
مهريّة دلج في سيرها معج
طالت بها الرحل

(الآيات)

« فيقول : لا والله ما سمعتُ هذا قط ، وإنه لقرئ لم أسلكه ، وإن الكذب لكثير . وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام ، ولقد ظلمني وأساء إلي ، أبعث كلمتي التي أولها :

ألا انعم صباحاً أيها الظلل البالي وهل يعمن من كان في العُصْر الخالي ؟

وقولي :

خليليّ مرّاً بى على أمّ جندب لأقضى حاجاتِ الفؤاد المعذب

يقال لي مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز .

(٣١٨ : ٣٢٠)

فإذا كان في الجنة ، جمع أبو العلاء الرُّجَّاز لابن القارح واختار لهم مكاناً متواضعاً كمكائتهم في الشعر ، قال :

« ويمر بأبياتٍ ليس لها سموقُ أبياتِ الجنة ، فيسأل عنها فيقال : هذه جنةُ الرُّجَّز ، يكون فيها « أغلبُ بنى عجل ، والعجاج ، وروية ، وأبو النجم ، وحُميد الأرقط ، وعُذافرُ بنُ أوس ، وأبو نُخَيْلَة ، وكل من غُفِرَ له من الرُّجَّاز » . فيقول : تبارك العزيز الوهاب ! لقد صدق الحديثُ المروى : « إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها ، قصّرتُم أيها نفرُ فقصر بكم .. أقسمتُ ما يصلح كلامكم للثناء ، ولا يفضل عن الهناء ، تصكّون مسمعَ الممتدح بالجنديل ، وإنما يطربُ إلى المنديل . ومتى خرجتم عن صفةِ جمل تراثون له من طولِ العملِ إلى صفةِ فرسٍ ساج ، أو كلبٍ للقنصِ ناج ، فإنكم غيرُ الراشدين » .

فإذا عرّضَ له « روية بن العجاج » غاضباً مفاخرًا ، قال له : « لو سبّك رجزك ورجز أيبك ، لم تخرج منه قصيدة مستحسنة » (٣٧٤ : ٣٧٧) .

وعاد مرة ثالثة بالرجز والرُّجَّاز ، فى المأتم الذى أقامه أبو العلاء لأبى تمام من قصائده - فى القسم الثانى من الغفران - قال عن مجيء قصيدته الثائتين إلى المأتم : « وإن شاء لقليلة فى العرب ، إلا أنهما تستعينان كلمة كثير :

حِيالُ سَلَامَةٍ أَضَحَّتْ رِثَانًا فُسْقِيًا لَهَا ، جُدُّدًا أَوْ رِمَانًا

وبأراجيز رُوِيَّةٌ ، وما كان نحوها من القوافى المتكلفة ، والأشعار المتعسفة » (٤٨٦) .

* * *

الشعر والرواة :

ويأتى « أبو العلاء » بعدد من الشعراء ويحكمهم فى صنيع الرواة بشعرهم ، وما كان من تكلفهم فى تأويله وإفسادهم إياه . وهو يسوق آراءه النقدية فى أسلوب طريف ، بلسان ابن القارح على طريق الحوار :

« فىقول لامرئ القيس : يا أبا هند ، إن رواة البغداديين ينشدون فى (قفا نيك) هذه الأبيات بزيادة الواو فى أولها ، أعنى قولك :

* وكأن ذُرَى رَأْسِ المَجِيمِرِ غَدَوَةٌ * (١)

وكذلك :

* وكأن مكاكىَّ الجِواءِ ... *

* وكأن السباعِ فيه غَرَقى ... *

فىقول : أبعدَ اللهُ أولئك ! لقد أساءوا الرواية ، وإذا فعلوا ذلك فأى فرق يقع بين النظم والنثر ؟ ذلك شىء فعله من لا غريزة له فى معرفة وزن القريض ، فظنَّه المتأخرون أصلًا فى المنظوم ، وهيهات هيهات .. « . وسأله فى قوله : * كَبِكْرِ المِقَانَةِ البياضِ بِصَفْرَةٍ * كيف ينشد : البياض ، أم البياض ، أم البياض ؟ فىقول : كل ذلك حسن ، وأختار البياض ، بالكسر ، فىقول - فَرَّغَ اللهُ ذهنه للأدب : لو شرحت لك ما قال النحويون فى ذلك لعجبت أشد العجب » . ثم قال الشيخ :

« وبعضُ المعلمين ينشد قولك :

* مِنَ السَّيْلِ والغَنَاءِ فَلَكَةُ مِغْزَلٍ *

فىشدد الشاء . فىقول : إن هذا لَجَهْلٌ ، وهو نقيضُ الذين زادوا الواو فى أوائل الأبيات - يعنى الأبيات التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة - أولئك أرادوا النسق فأفسدوا الوزن ، وهذا البائس أراد أن يصحح الزنة فأفسد اللفظ » (٣١٥) .

(١) انظر ما قيل فى هذين البيتين ، فى رسالة الغفران - ذخائر .

ويستطرد امرؤ القيس :

« وكذلك قولى : * فجمت وقد نضت لنوم ثيابها * منهم من يشدد الضاد ، ومنهم من ينشد بالتخفيف ، والوجهان من قولك : نضت الثوب ، إلا أنك إذا شددت الضاد أشبه الفعل من النضيض ، يقال : هذه نضيضة من المطر ، أى قليل . والتخفيف أحبُّ إلى ، وإنما حملهم على التشديد كراهة الزحاف ، وليس عندنا بمكروه .. » .
« فيقول - لا برح منطيقاً بالحكم - فأخبرنى عن كلمتك (الصَّادِيَّة) ، و (الضَّادِيَّة) ، و (النونية) التى أولها :

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط زبور فى عسيب يمان
لقد جمت فيها بأشياء ينكرها السمع ، كقولك :

فإن أمسِ مكروباً فيا ربَّ غارة شهدتُ على أقبِّ رحو اللبان
وكذلك قولك فى الكلمة الصادية :

على نَقِيهِ هَيْقٍ له وَلِعْرَسِهِ بِمَنْقَطِعِ الرَّعْسَاءِ بِيضٌ رَصِيصٌ (١)

وقولك ... فى أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه ؟ كما أنه لا ريب أن « زهيراً » كان يعرف مكان الزحاف فى قوله :

يطلبُ شأو امرأين قَدَمًا حَسَبًا نالا الملوك وبدأ هذه السُّوقا

فإن الغرائز تُجسُّ بهذه المواضع ، فتبارك الله أحسن الخالقين . فيقول امرؤ القيس : أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجىء ذلك ، ولا أدرى ما شجن عنه ، فأما أنا وطبقتى فكنا نمر فى البيت حتى نأتى إلى آخره ، فإذا فنى وقارب تيين أمره للسامع .
فيقول - تَبَّتْ اللهُ تعالى الإحسان عليه - : أخبرنى عن قولك :

ألا ربَّ يومٍ لك منهن صالح ولا سيما يومٌ بدارة جُلُجُل

أتشده : * لك منهنَّ صالح * فتزاحف ؟ أم تنشده على الرواية الأخرى (٢) ؟ ..
فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلت فى الجاهلية إلا بزحاف : * لك منهنَّ صالح * .
وأما المعلمون فى الإسلام فغيروه على حسب ما يريدون ، ولا بأس بالوجه الذى اختاروه «
(٣١٣ : ٣٢٢) .

* * *

(١) التثق : ذكر النعام ، والحقق : الطويل .

(٢) الرواية الأخرى التى يشير إليها هى :

* ألا ربَّ يومٍ صالح لك منهما * .

مسائل عروضية :

وإلى جانب ما ذكرنا ، توجد في (الغفران) مسائل عروضية مفردة ، جاء بها أبو العلاء ليناقشها أو يلقي برأى فيها . وأول ما يلقانا منها إنشاده في ديباجة الغفران بيتي أبي الهندي :

سِغْنِي أبا الهندي عن وَطْبِ سالمٍ أباريقُ لم يعلُقْ بها وضُرُّ الزُّبْدِ
مُفَدِّمَةٌ قُرًا كَأَنَّ رِقَابُها رِقَابُ بناتِ الماءِ أفرَعُها الرعدُ

ثم قال : « هكذا يُنشد على الإقواء ، وبعضهم ينشد :

« رِقَابُ بناتِ الماءِ خيفتُ من الرعدِ »

والروايةُ الأولى إنشاد النحويين ، وما استشهد بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهد فصيح ، فإن كان أبو الهندي من كتب وعرف حروف المعجم فقد أساء في الإقواء ، وإن كان بنى الأبيات على السكون فقد صحَّ قول « سعيد بن مسعدة » في أن الطويل من الشعر له أربعة أضرب .. « (١٤٣) .

وأشار « أبو العلاء » في القسم الثاني من (الغفران) إلى بيتين رواهما « أبو عثمان الناجم » « لابن الرومي » . وجاء بهما « ابن القارح » في رسالته إلى أبي العلاء ، وهما :

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك في العشيرة دون لومك

تمتّع من أحيك فما أراه يراك ولا تراه بعدَ يومك

علّق عليهما « أبو العلاء » بقوله : « والبيتان اللذان رواهما الناجم عن ابن الرومي مقيدان ، وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيداً ، إلا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة ، والبيت :

كَأَنَّ القومَ عَشُّوا لحمَ ضأنٍ فهمَ نَعِجونَ قد مالتَ طَلائمُ

وهذا البيت مؤسس ، والذي قاله ابن الرومي بغير تأسيس « (٤٨٣) .

ويأتى في مشاهد مسرح الغفران ، قوله لعمر بن كلثوم : « لوددت أنك لم تساند في قولك في المعلقة :

كَأَنَّ متونَهنَ متونُ غدرٍ تُصَفِّقُها الرياحُ إذا جرينا

فيقول عمرو : إنك لقرير العين لا تشعر بما نحن فيه ، فاشغل نفسك بتمجيد الله ، واترك ما ذهب فإنه لا يعود . وأما ذكرك سنادي فإن الإخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة ، ويكون فيهم الأعرج والأبخر فلا يعابون بذلك ، فكيف إذا بلغوا المائة في العدد ؟ « (٣٢٩) .

وناقش إقواء « الحارث اليشكري » في معلقته فقال : « ولقد شنت هذه الكلمة بالإقواء في ذلك البيت ^(١) » (٣٣٢) .

(١) البيت هو :

زعموا أن كلَّ من ضربَ العَدَّ يَهرُ مؤالٍ لنا وأنا الوَلاءُ

كما أشار إلى الزحاف في قصيدة « المتنخل الهدلى » :

أبيتُ على معارِيَ فاخراتٍ بهنَّ مَلُوبٌ كدمِ العباطِ

(٣٦٩)

ومن حديثه مع « طرفة » :

« ولقد جئتَ بأعجوبة في قولك :

لو كان في أملاكنا ملكٌ يعصِرُ فينا كالذى تعصرُ
لأجبتُ صحنى العراق على حرفِ أمونٍ دفعها أزورُ

ولكنك سلكت مسالكَ العرب ، فجئتَ بقرى كلمة « المرقش » :

هل بالديارِ أن تجيبَ صممٌ لو كان حياً ناطقاً كلّمٌ

وقول « الأعشى » :

* أقصر فكلُّ طالبٍ سيمَلٌ *

على أن « مُرَقَّشًا » خلطَ في كلمته فقال :

ماذا علينا أن غرأ ملكٌ من آل جفنة ظالمٍ مرغمٌ

وهذا خروجٌ عمًا ذهب إليه الخليل « (٣٣٧ : ٣٣٨) .

* * *

ومن قوله لعدي بن زيد :

« .. وقلت فيه - أى ولده علقمة بن عدى - :

أنعم صباحًا علقمَ بنِ عديٍّ أثويتَ اليومَ لم ترحلُ ؟

وإني لأحارُّ يا معشر العرب في هذه الأوزان التي نقلتها عنكم الثقات ، وتداولتها الطبقات ،

ومن كلمتك التي على الرء وأولها :

قد آن أن تصحو أو تُقصرُ وقد أتى لما عهدتَ عُصرُ

(١٩٧)

* * *

وقد يجمل بنا - قبل أن ندع هذا الحديث عن الشعر والعروض - أن نشير إلى

مسألة تتصل بهما من قرب ، وتلتقى وإياهما في مجال الفن ، وهى :

الموسيقا فى الغفران :

التفت « الأستاذ فخرى البارودى » - فى حديثه عن المعرى والموسيقا بالمهرجان الألفى لأبى العلاء - إلى ما جاء فى الغفران عن طرائق الغناء ، حيث يقول « ابن القارح » لإحدى قيان الجنة مطربات المدعون إلى مأدبة ابن القارح :

« .. اعملى قول أبى أمامة ، وهو هذا القاعد :

أمن آل مية رائح أو مُتَدِّ عَجَلانَ ذا زاد وغيرَ مُرَوِّدٍ
ثقيلاً أول . فتصنعه فتجىء به مطرباً ، وفى أعضاء السامع متسرّباً .. فيقول : هلّم خفيفَ
الثقل الأزل . فتنبعث فيه بنغم لو سمعه « الغريض » لأقر أن ما ترنم به مريض .. فإذا أجادته ،
وأعطته المِهْرَةَ وزادته ، قال : عليك بالثقل الثانى ، ما بين الثالث والثانى . فتأتى به على قريء
لو سمعه « عبد الله بن جعفر » لقرن أغاتى « بُدَيْح » إلى هدير ذى المشفر . فإذا رأى ذلك قال :
سبحان الله ، كلما كُشِفَتِ القُدْرَةُ بدت لها عجائبُ ، لا تثبت لها النجائب ، فصيرى إلى
خفيفِ الثقل الثانى » .

« ثم يقترح عليها الرمل وخفيفه ، وأخاه المَرْجَ وذفيفه ، وهذه الألحان الثمانية ، تمنىها
للأذن المانية » (٢١٣) .

وتترك للأستاذ البارودى ، أن يعلق على هذا فيقول : « فمن هذا الخبر يظهر لنا أن « المعرى »
كان عارفاً بأصول الخروج من لحن إلى لحن ، إذ أن بين الأنغام توافقا وتنافرا ، وليست كل
نغمة توافق السير مع غيرها من النغمات ، بل إن هناك نغمات لا تأتلف مع غيرها ألبتة . ونرى
الجهلاء اليوم لحن الموسيقا يقترحون على مغن أغنية من مقام « السيكاه » بينما يكون المغنى آخذاً
بإنشاد أغنية من « الحجاز كار » مثلاً ، ففي هذه الحال لا يعلم إلا الله مقدار ما يصيب المغنى
من التأثير التنافرى الواقع بين النغمتين ، وهذا ما لم يغفل عنه « أبو العلاء » كما ظهر لنا من الخبر
السابق ، وقد جاء فى (رسائل إخوان الصفا) : أن الخروج من لحن إلى لحن ، والانتقال منه ،
ليس له طريق إلا على أحد الوجهين : إما أن ينقطع ويسكت ويصلح الدساتين والأوتار بالحدق
والإرخاء ، ويتندى (فيستأنف) لحناً آخر .. (أو) يخرج من ذلك اللحن على لحن قريب
منه مُشاكِلٍ له ، وهو أن ينتقل من الثقل إلى خفيفه ، أو من الخفيف إلى ثقيله ، أو على ما قارب
منه » (١) .

هذا هو تعليق الأستاذ « البارودى » على ما فى (الغفران) من الألحان الثمانية .
ننقل معه تفسير « أبى العلاء » لهذه الطرائق التى أشار إليها فى (الغفران) واستوفاهما فى
(الفصول والغايات) لا فى (رسالة الغفران) .

(١) المهرجان الألفى لأبى العلاء - ص ٣٩٢ .

قال : ... والطرأت الثماني :

« **الثقيل الأول** : وإيقاعه ثلاثُ نقرات متساويات الأقدار على مثال مفعولن : (مف) نقرة (عو) نقرة (لن) نقرة . وهى نقرات يُقال . وأنت تثبته بالوتد المفروق أوضح مما تثبته بالسبب المضطرب ، وذلك أن الوتد المفروق ثلاثة أحرف أوسطها ساكن ، والسبب حرفان ، فأنت إذا وقفت على الوتد المفروق سكنت سكوناً أطول من السكون الذى على السبب ، مثل قولك : صخر ، بحر ، دهر ، فعلى هذا يجرى الثقيل الأول .

« **وخفيفُ الثقيل الأول** : وحقيقته ثلاثُ نقرات متواليات ، وهى أخف من التى ذكرنا وأسرعُ توأياً ، كقولك : مفعولن ، بلا فصل .

« **والثقيلُ الثانى** : وقد اختلفوا فى توقيعه ، فإسحاق يُوقعه ثلاثُ نقرات : نقرتان متساويتان ممسكتان ، وواحدة ثقيلة على وزن مفعولان . ومنهم من يوقعه أربع نقرات متساويات الأقدار ، لا خفافاً محثوثات ، ولا ثقلاً ممسكات ، على مثال مفعو مفعو . ومنهم من يوقعه أربع نقرات : ثلاث متساويات ، والرابعة أثقلُ منهن على مثال مفعولاتن .

« **وخفيفُ الثقيل الثانى** : وحقيقته أسرعُ حثاً منه ، هو نقرتان خفيفتان والثالثة ثقيلة ، وهو خفيفُ الذى اختاره « إسحاق » ، ويسميه الماخورى ، وهو عكس الرمل ، ووزنه مفعولان . والرمل : وهو نقرة ثقيلة ، واثنتان محثوثان ، (لأن مفعو) ومثله فى الكلام : مَلَّ وصلى ، وصدَّ عنى .

« **وخفيفُ الرمل** : جاء على غير جنسه .. وذلك أن خفيف كل نوع مثل ثقيله ، إلا أنه أخفُ حثاً الإيقاع ، فأما الرملُ فلم يجرى خفيفه على عدد نقراته ، بل هو على نقرتين بينهما فصلٌ ، ووزنه على مثال : فَعْلُنْ فَعْلُنْ .

والهزج : وهو على نقرة نقرة : واحدة ثقيلة ، وأخرى خفيفة على وزن : قال لى . وخفيفُ الهزج ، مثله إلا أنه أسرعُ حثاً منه « (١) .

* * *

وإذا قوبلت هذه القطعة ، على ما روى عن « عبدالقادر بن غيبى الحافظ المراغى المشهور بعلم الألحان » ، فى رسالة له عن (مصطلح الغناء) ، وجدنا كلام « أبى العلاء » عنها فى (الفصول والغايات) أجلى وأكثر تفصيلاً ، فهو يستوفى شرح كل لحن ويمثل له ، على حين اكتفى « الحافظ المشهور بعلم الألحان » فى تفسيرها بإشارة موجزة . قال بعد وصف لآلة العود وتركيبها :

« **قوانين الغناء لا تخرج عن ثمانية** :

(١) الفصول والغايات - ص ٨٩ . ونذكر هنا أن « الأستاذ البارودى » التفّت إلى هذه الصلة بين رسالة الغفران ، والفصول والغايات ، وهى صلة تؤكد ما نحتاج إليه من درس كل آثار الشيخ ؛ لفهم نص من نصوصه .

« ثقيل أول ، ورسمه : تَنْ تَنْ تَنْ ، تَنْ تَنْ تَنْ ، وهو مركب من تسع نقرات هي : ثلاث متواليات ، وواحدة كالسكون ، فخمس مطوية الأول .

وثقيل ثان ، وهذا رسمه : تَنْ تَنْ تَنْ ، تَنْ تَنْ تَنْ ؛ وهو مركب من إحدى عشرة ، وهي : ثلاث متواليات ، فواحدة ساكنة ، فثقيلة ، فأربع مطوية الأول .

وخفيف الثقيل الثاني ويسمى الماخورى وهذا رسمه : تَنْ تَنْ تَنْ ، تَنْ تَنْ تَنْ . وهو مركب من ست : ثلاث متواليات ، فسكون ، ثم ثلاث .. » .

وهكذا على المثال ، فى القوانين الثمانية .

وذكر الأستاذ البارودى أن حديثه هذا منقول - فيما روى - عن كتاب مخطوط اسمه (نيل السعود فى ترجمة الوزير ابن داود) ، كتب عام ١٢٣١ . وقد نشرت القطعة الخاصة بالعود ومصطلحاته ، فى مقال بمجلة المقتبس (المجلد الخامس) صدرت بها - نقلاً عن المقتبس - طبعة دار الكتب ، لكتاب الأغاني . وأعرب عن رجائه فى أن يضاف حديث « أبى العلاء » عن الغناء إلى تلك الوسائل التى يجمعها دارسو العروض والموسيقا ليتوصلوا بها إلى فتح مغلق كتاب (الأغاني) وتوضيح مصطلحاته ، كما أرجو أن يقدم به الكتاب ، فى طبعة تالية .

* * *

اللغة والأمالى النقدية :

فى (الغفران) أمال لغوية جمع فيها « أبى العلاء » بعض ما استظهر من مفردات اللغة وصيغها ومعانيها ، ورواها فى صبر واستقصاء ، وقد مرت بنا أمثلة من ذلك فى حديثنا عن الظواهر الأسلوبية للغفران : من جمع واستطراد . وشروح لغوية ، مثل صنيعة فى جمع المشتركات اللفظية لكلمة أسود ، وأباريق ، ومورره بالقافية فى بيتى « النمر » على حروف الهجاء جميعاً ، وتبعه - فى القسم التالى - للفظ دنانير ، وثمانين ، فى الشعر والأمثال . وإيراده لأسماء الخمر ومدنها ، إلى غير ذلك مما لا نطيل بنقله .

وإذا تركنا هذه المجاميع والأمالى اللغوية ، بقيت أماننا مسائل أخرى مفردة ، عرضها « لأبى العلاء » على طريقته المختارة .

قد يكفى - فى القليل منها - بعرض المسألة وتسجيل ما قيل فيها ، من غير أن يفصل فيها أو يختار قولاً بعينه منها ، ليدل على معرفته لها وإحاطته بها ، أو قولاً منه بجواز الأقوال فيها . كما فعل فى قوله لتميم بن أبى بن مقبل : « أخبرنى عن قولك :

يا دار سلمى خلأ لا أكلفها إلا المرانة حتى تسأم الدنيا

ما أردت بالمرانة ؟ فقد قيل : إنك أردت اسم امرأة ، وقيل : هى اسم ناقة ، وقيل : العادة . فيقول تميم : والله ما دخلتُ باب الفردوس ومعنى كلمة من الشعر ولا الرجز » ٢٤٦ - ٢٤٧ .

ومن حديثه مع « علقمة » :
ولو صادفتُ منك راحةً لسألتك عن قولك :
« وفي كل حيٍّ قد خبطتُ بنعمة » (البيت)
أهكذا نطقت بها طاءً مشددة ، أم قالها عربياً سواك ؟ فقد يجوزُ أن يقول الشاعر الكلمة
فيغيرها عن تلك الحال الرواة .
« وإن في نفسي حاجةً من قولك :

كأسُ عزيزٍ من الأعناب عتقها لبعض أربابها حائيةً حومُ

فقد اختلف الناس في قولك : حوم ، فقيل : أراد حوماً أي : سودا ، فأبدل من إحدى
الميمين واوا . وقيل : أراد حوماً ، أي : كثيراً ، فضمَّ الحاء للضرورة . وقيل : حوم ، يُحام
بها على الشراب ، أي : يطاق .

... ..

« وكذلك قولك :

« يهدى بها أكلفُ الخدين مختبر »

فروى : يهدى ، بالدال غير معجمة ، ويهدى بذال معجمة . وقيل : مختبر ، من اختبار
الحوائل من اللواحق ، وقيل : هو من الخبير أي الزيد ، وقيل : الخبير اللحم ، وقيل : الوبر «
(٣٢٩)

ويقول لعمرو بن أحمَر : « ولقد يعجبني قولك :

ولقد غدوتُ وما يُفزعُنِي خوفٌ أحاذرُه ولا دُعُرُ

... ..

كشراب قَيْلٍ عن مطيته ولكلِّ أمرٍ واقعٌ قدْرُ

فما أردت بقولك : كشراب قيل ؟ الواحِدَ من الأقيال ؟ أم قيل بن عتْرِ من عاد ؟ فيقول
عمرو : إن الوجهين ليُتصَوْران . فيقول الشيخ - بلغة الله الأمانى - : مما يدلُّ على أن المراد
« قيل بن عتر » قولك : « وجرادتان تغنيانهم » لأن الجرادتين - فيما قيل - مغنيتان غنتا لوفدِ
عادٍ عند الجرهمي بمكة ، فشغلوا عن الطوافِ بالبيت ...

« فيقول ابنُ أحمَر : أما ذُكِرَ الجرادتين فلا يدلُّ على أني خصصتُ « قيلَ بنِ عتر » ، وإن
كان في الوفد الذي غنته الجرادتان ، لأن العربَ صارت تسمى كلَّ قينةٍ جرادَةً ، حملاً على
أن قينةً في الدهرِ الأولِ كانت تُدعى الجرادَةَ ، قال الشاعر :

تغنيا الجرادُ ونحن شربُ نعلُ الرَّاحِ خالطها المشورُ

ويقول لعمرو أيضًا : « أنشدني قولك :

بان الشباب وأخلفَ العُمُرُ وتغيَّرَ الإخوان والدهرُ

وقد اختلف الناس في تفسير العُمُر : ف قيل إنك أردت البقاء ، وقيل إنك أردت الواحد من عُمور الأسنان وهو اللحم الذي بينها . فيقول عمرو متمثلاً :

خُذًا وجه هَرَشَى أو قفاها فإنه كِلَا جانبي هَرَشَى لهنَّ طريقُ

ولم تترك في أهوال القيامة غيراً للإنشاد ، أما سمعت الآية (١) ﴿يوم ترونها تذهلُ كل مرضعةً عما أرضعت ، وتضعُ كل ذاتِ حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ وقد شهدت الموقف ، فالعجبُ لك إذ بقي معك شيءٌ من روايتك « (٢٤٠) .

ويقول لعنترة : فَمَا أردتَ بالمشوفِ المُعَلِّمِ : الدينار ، أم الرءاء ؟ فيقول : أئى الوجهين أَرَدتَ فهو حسن ولا يَنْتَقِضُ « (٣٢٤) .

لكنه - في الغالب - يتعرض لمناقشة هذه الأقوال ، ويؤاخذ على ما قد يراه فيها من تعسفٍ في التأويل ، أو خروج عن مذاهب العرب ، ومحتكما إلى ما صح عنده من كلام العرب ، وقلما نخطئ هنا ملامح ثقته بحفظه وروايته .

من ذلك « عنترة العيسى » : في بيت له :

ولقد نزلتِ فلا تظنى غيره منى بمنزلةِ المُحَبِّ المَكْرَمِ

قال : « وَفَقَّتَ في قولك : « المُحَبِّ » لأنك جئت باللفظ على ما يجب في (أحببت) ، وعمامة الشعراء يقولون : (أحببت) ، فإذا صاروا إلى المفعول قالوا : (محبوب) ، قال : زهير بن مسعود الضبي » :

واضحةُ العُرَّةِ محبوبَةٌ والفرسُ الصالحُ محبوبُ

وقال بعض العلماء : لم يُسمع يَمحَبُ إلا في بيت عنترة . وإن الذى قال (أحببت) ، ليجب عليه أن يقول (مُحَبِّ) إلا أن العرب اختارت أَحَبَّ في الفعل ، وقالت في المفعول (محبوب) . وكان « سيبويه » ينشد هذا البيت بكسر الهمزة :

إِحِبُّ لِحِبِّهَا السُّودَانَ حَتَّى إِحِبُّ لِحِبِّهَا سُوْدَ الْكِلَابِ

(٣٢٦)

إلى آخر المشهد .

وقال في رده على ابن القارح ، على ذكر بيت الأعشى :

نبي يرى ما لا يرون ، وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا

(١) سورة الحج : الآية ٢ .

« وهو - أكمل الله زينة المحافل بحضوره - يعرف الأقوال في هذا البيت .. حكى الفراء وحده (أغار) في معنى غار إذا أتى الغور . وإذا صحَّ هذا البيت للأعشى فلم يُرد بالإغارة إلاضدَّ الإنجاد . وروى عن الأصمعي روايتان : أحدهما أن أغار ، في معنى عدا عدواً شديداً ، وأنشد في كتاب (الأجناس) :

فَعَدَّ طَلَابِهَا وَتَسَلَّ عَنْهَا
بِنَاجِيَةٍ إِذَا زُجِرَتْ تُغَيِّرُ

فيجىء به على الزحاف ، وكان سعيد بن مسعدة يقول :

* غَارَ لِعَمْرَى فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا *

فيخرمه في النصف الثاني « ١٨٠

أبو العلاء يعرض هنا ، لمسألة أكثر فيها الخلاف ، وخلاصة الأقوال أن : أغار : غار بمعنى أتى الغور ، عند الفراء والجهوري وابن الأثير ، وشاهدهم بيت الأعشى . وبمعنى أسرع عند الأصمعي ، وأما غار فمعناها : أتى الغور . ورأى « أبي العلاء » أنه - إذا صحَّ هذا البيت للأعشى - فلم يُرد بالإغارة إلاضدَّ الإنجاد .

* * *

ومن حديثه في وليمة الجنة التي أقامها ابنُ القارح لشعراء الجنة وعلماء العربية : « .. بين أيديهم الولدان المخلدون يحملون السلال إلى أهل ذلك المجلس ، فيقول - حفظ الله على أهل الأدب حواءه - لمن حضره من أهل العلم : ما تسمى هذه السلال بالعربية ؟ فيرمون - أي يسكتون - ويقول بعضهم : هذه تسمى البواسين ، واحدها باسنة . فيقول قائل من الحاضرين : من ذكر هذا من أهل اللغة ؟ فيقول ، لا انفكت الفوائد وأصلة منه إلى الجلساء : قد ذكرها « ابن درستويه » - وهو يومئذ في الحضرة - فيقول له « الخليل » : من أين جئت بهذا الحرف ؟ فيقول ابنُ درستويه : وجدته في كتب النضر بن شميل . فيقول الخليل : أتحق هذا يا نضر ، فأنت عندنا الثقة ؟ فيقول النضر : قد التبس على الأمر ، ولم يحك الرجلُ إن شاء الله إلا حقاً « (٢٨٠) .

ومذهب « أبي العلاء » في هذا واضح ، كما هو واضح بعدُ في المسائل النحوية والأدبية : يلتزم السماع في اللغة ، ويكره التأويل والقياس ، وليس حِفْظُهُ للغوى النادر إلا مظهرًا من مظاهر تعلقه بالسماع ، ومن ثم نراه شديد الحرص على سلامة الرواية ، دقيق الحس لما يداخلها من زيف .

تشهد لاطمئنانه إلى حفظه ، وثقته في جمعه وروايته وعلمه ، تلك الأحكام الحاسمة الجازمة التي يقرر بها أن العرب عرفوا هذا اللفظ ، أو أن مشهورى الثقافات حكوا تلك الكلمة أو ذلك الوزن .. أو ..

* * *

النحو والصرف :

عنى « أستاذنا إبراهيم مصطفى » رحمه الله - فى بحثه بالمهرجان الألفى - بما فى (الغفران) من رأى فى « سيويه » وكتابه ، « والسيرافى » وشرحه ، « وأبى على الفارسى » وكتبه ، وقد نقل من (الغفران) سؤال « ابن القارح » للنابعة الجعدى حول إعراب مستنكر فى قوله :

وليس بمعروفٍ لنا أن نَرَدُّهَا صحاحًا ، ولا [مستنكرًا] أن تعقرا
« أتقول : ولا مُسْتَنطَرًا ، أم مُسْتَنكِرٌ ؟ فيقول الجعدى : بل « مستنكرًا » فيقول الشيخ :
فإن أنشد منشد : مستنكر ؛ ما تصنع به ؟ فيقول : أزجره وأزبره ، نطق بأمر لا يخبره . فيقول
الشيخ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أرى سيويه إلا وَهَمَ فى هذا البيت ، لأن أبا ليل أدرك
جاهلية وإسلامًا ، وغَدَىَ بالفصاحة غلامًا » (٢١٠) .

يشير « أبو العلاء » هنا إلى ما أجازه سيويه فى (كتابه : ٣٣١) من جرّ (مستنكر) ،
وتوجيهه لذلك .

كذلك نقل الأستاذ إبراهيم مصطفى سؤال « ابن القارح » - ياملأ أبى العلاء - لعدى بن
زيد عن بيته الذى استشهد به « سيويه » :

أرواحٌ مُودَّعٌ أم بكسور
أنت فانظرْ لأىِّ حالٍ تصير

« فإنه - أى سيويه - زعم أن (أنت) يجوز أن ترفع بفعل مضمّر يفسره قولك : فانظر .
وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته . فيقول عدى بن زيد : دعنى من هذه الأباطيل »
(١٩١)^(١) .

وقد رأى الأستاذ فى هذين النقيدين ، أصلين يرجعُ إليهما أكثرُ ما نقده « أبو العلاء » من
(نحو البصرة) :

الأول : أن نُحَاةَ البصرة بقياسهم قد قَوْلُوا العرب مالا يقولون ، وأَجْرُوا على ألسنتهم غيرَ
ما يرضون .

الثانى : أنهم تكلفوا فى توجيه الكلام وتخريجه بما أوقعه فى الأباطيل^(٢) .

والمتبع لموقف « أبى العلاء » من النحاة ، فى (الغفران) وفى آثاره الأخرى يطمئن إلى
ما ذهب إليه الأستاذ إبراهيم مصطفى ، وإن كنا نلاحظ عليه أنه استشهد (لتكلف نُحَاةَ البصرة
فى توجيه الكلام بما أوقعه فى الأباطيل) بعبارة لا تقوم شاهدًا على مثل ذلك . فقول عدى

(١) انظر كتاب سيويه ج١ ص ٧٠ ط بولاق .

(٢) المهرجان الألفى لأبى العلاء - ص ٣٦٨ .

ابن زيد : « دعتى من هذه الأباطيل » لم يقصد به تكلف النحاة بخاصة ، وإنما أراد أنه فى شغل بنعيم الجنة عن أباطيل الشعر والنحو والنحاة جميعا .
ثم نقل الأستاذ بعد ذلك نقد « أبى العلاء » لما ذكره « أبو سعيد السيرافى » - فى شرحه للكتاب - فى الأبيات التى تنسب إلى « آدم » وهى^(١) :

تَغَيَّرَتِ البِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فوجهُ الأرض مغبر قبيحُ
تغيرت كل ذى لون وطعم وغودر فى الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشده : * وزال بشاشة الوجه المليح *

على الإقواء ، فأنشدهما « ابو سعيد » على وجه لا يكون فيه إقواء ، قال :

* وَقَلَّ بِشَاشَةِ الوَجْهِ المَلِيحُ *

على تقدير : وَقَلَّ بِشَاشَةً ، بفتحين . قال أبو العلاء .

« قلتُ أنا : هذا الوجه الذى ذكره أبو سعيد ، شرٌّ من إقواءٍ عشر مرات فى القصيدة

الواحدة » (٣٦١ - ٣٦٣) .

كما أشار الأستاذ إلى المعركة التى قامت فى المحشر بين « أبى على الفارسي » والشعراء - وسوف نقلها بعد - متتهياً إلى « أن المعرى قد انصرف عن بغداد لم يلق من أحد من أئمة النحو بها . وقرأ كتبهم فضايق صدرًا بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف فى التأويل ، والغلو فى التعليل ، والمضى مع القياس مضياً يراه المعرى متتهياً إلى أن يجيز فى العرية ما ليس فيها »^(٢) .

واكتفى أستاذنا بما أشرنا إليه من المسائل النحوية فى (الغفران) ، تاركاً ما عداها ، وإته لكثير ، فضاعت هنا فرصة كانت جديرة بأن تدرس لنا « النحو فى الغفران » على هذا النحو الذى يلتمس أصول كل مسألة فى كتبها ، ويرجع إلى أقوال النحاة فيها ، ثم ينظر فى مناقشة « أبى العلاء » لها فيما أورده عليها ، مع ربط كلامه هذا بنظيره فى آثاره الأخرى ، وإرجاعه إلى أصول عامة فى المنهج النحوى للشيخ ، ونقده لمذاهب النحاة .
و (رسالة الغفران) تعين على مثل هذا ، فحظ النحو فيها غير قليل ، ومذهب « أبى العلاء » فيها واضح مبسوط .

* * *

بعد أعوام من المهرجان ، نشر الأستاذ « الدكتور أمجد الطرابلسى » سنة ١٩٥١ ، كتابه عن « النقد واللغة فى رسالة الغفران » ، وقدم فيه دراسة متخصصة ، منسقة فى أبواب ثلاثة :

(١) الأبيات مروية فى (مروج الذهب للمسعودى) : (١ - ٢٦) .

وفى خزنة الأدب للبغدادي (٤ - ٥٥٦) كلام فى نصب (بشاشة) على التمييز للخروج مما فيه من إقواء .

(٢) المهرجان الألفى لأبى العلاء ص ٣٧٠ . ويأتى المشهد بمزيد بيان فى (قراءة جديدة لرسالة الغفران) .

المعري العالم المعلم ، والنقد الأدبي في الغفران ، والاستطرادات اللغوية . فوضع في المكتبة العلائية درساً متخصصاً يقوم على استقراء الشواهد وجمع الأشباه والنظائر . فليرجع إليه من شاء أن يعرف هذا الجانب من رسالة الغفران . وأكفى هنا بتقديم نماذج مما في الغفران من قضايا ومساائل لغوية ، راعينا في اختيارها ، دلالتها على أسلوب الشيخ في تناول ، ومذهبه في النحو القائم على الاحتكام إلى ما حكاه مشهورو الثقات ، وضيقة بالتكلف في التأويل ، وبالمنطق مع القياس مضياً براه منتهياً إلى أن يجيز في العربية ما ليس فيها .
 ونبدأ بالمعارك الأدبية التي شُبهها : إما بينه - في أشخاص من اختار من الشعراء ، أو بما لقن ابن القارح - وبين الرواة والنحاة . وإما بين هؤلاء بعضهم وبعض .
 من ذلك ، استبعاده لمذهب « سيويه » في بيت « عدى » ، وهو ما أشار إليه الأستاذ إبراهيم مصطفى .

قلت : مذهب « سيويه » الذي يشير إليه « أبو العلاء » موضح في كتابه^(١) - وقد قال « أبو سعيد السيرافي » شارحاً : « وأما قول عدى بن زيد .. الخ ، فإنما جاء به سيويه لقوله : أنت فانظر ، وهو يشبه (زيد فاضربه) وهو لم يجوزه إلا على إضمار سبب دخول الفاء ، وقد دخلت في (فانظر) فتأول ذلك على وجوه ثلاثة ، أراد بها تصحيح دخولها :
 الأول : أن ترفع « أنت » بفعل مضمر يفسره المظهر . كأن تقول : فانظر أنت .
 الثاني : أن تجعل « أنت » مبتدأ وتضم خبراً ، والفاء جواب للجملة ، كأنه قال : أنت الراحل فانظر ..

الثالث : أن تجعل « أنت » خبراً وتنوي المبتدأ . كأن تقول : هذا أنت فانظر .
 وكذلك ذكر « الأعلام الشتمري » هذه الأوجه الثلاثة شارحاً مفسراً على هامش (الكتاب)^(٢) .

وخلاصة المسألة أن « سيويه » يرى في هذا ومثله أن الفاء ليست زائدة ، فلا يجعل (أنت) مبتدأ خبره ما بعد الفاء ، لأن الفاء لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، ولذلك قدر فيه الأوجه الثلاثة التي ذكرها (الكتاب) وفسرها كل من « السيرافي والشتمري » .
 وأما « الأخفش » فيرى أن الفاء زائدة ، وأن الضمير (أنت) مبتدأ والفعل بعد خبره^(٣) .
 ولعل أبا العلاء - باستبعاده رأى « سيويه » - يذهب إلى مثل رأى « الأخفش »^(٤) .

(١) الكتاب ج ١ / ٧٠ ط بولاق .

(٢) الكتاب ج ١ / ٧٠ ط بولاق .

(٣) انظر « البغدادي » في (الخزانة : ١ ، ٢١٨) عند الكلام على الشاهد السابع والسبعين :

• وقائلة خولان فانكح فئاتهم • .

(٤) ما بين الأقواس المربعة في هذا الفصل ، تعليق من الدارسة على المسائل اللغوية التي تناولها أبو العلاء .

وأشار « أبو العلاء » - في موضع آخر - إلى ما « حُكِيَ عن سيبويه أنه أنكر على بشارٍ قوله :

على الغزلي منى السلام فَطالَمَا هوتُ بها في ظلِّ مخضرةِ زهرٍ
فقال سيبويه : لم تسعمل العرب ، (الغزلي) . فقال بشار : هذا مثل قولهم : البشكى ،
والجمزى ..

« وجاء بشار في شعره بـ (النينان) جمع نون من السمك ، فيقال إن سيبويه أنكره عليه .
وهذه أخبار لا تثبت . وفيما رُوِيَ في (كتاب سيبويه) أن النون يُجمع على نينان ، فهذا نقض
للخبر » (٤٢٩) .

[قوله : * على الغزلي منى السلام * أنكره سيبويه على بشار لأنه لم يُسمع من العرب .
ومثله قول بشار أيضاً :

فاليوم أقصرَ عن سُميَّة باطلي وأشار بالوجلي على مشير []
وكلمة غزلي بين « أبو العلاء » طريقَ القياس إليها ، فهي على وزن بشكى وجمزى ، يقال :
ناقة بشكى أى خفيفة سريعة ، وأتان جمزى أى مسرعة ، وغزلي من الغزل ، كأنه يريد أنها
غزلة .

[وأما قوله : « وجاء بشار في شعره بـ : النينان » .

فهو يشير إلى بيته في وصف سفينة :

تُلاعِب نينانَ البحور وربما رأيت نفوسَ القومِ من جريها تجرى
والنون يجمع على نينان ، جاء في لسان العرب : النون الحوت ، والجمع أنوان ونينان ،
وأصله نونان فقلبت الواو ياء لكسرة النون .
وفي حديث « على » - كرم الله وجهه - « يعلم اختلاف النينان في البحار الغامرات »
فاللفظ مسموع في الكلام الفصيح ولا وجه لإنكاره على « بشار » ، وقد جاء « أبو العلاء »
هنا بما ينقض خبر إنكار « سيبويه » لهذه الصيغة في جمع « نون » [.

* * *

وندع هذه المسألة ، إلى المعركة العنيفة المثيرة ، بين الشعراء و« أبي على الفارسي » في ضغطة
المحشر ، قال ابن القارح في (الغفران) - بتلقين أبي العلاء : « وكنت قد رأيت في المحشر شيخاً
لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة ، يعرف بأبي على الفارسي ، وقد امترس به قومٌ يطالبونه
ويقولون : تأولت علينا وظلمتنا . فلما رأني أشار إلى بيده ، فجتته ، فإذا عنده طبقة منهم
يزيدُ بنُ الحكم الكلابي ، وهو يقول : ويحك ! أنشدت عنى هذا البيت برفع الماء ، يعنى قوله :

فليت كفافاً كان شرُّك كله وخيرُك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

ولم أقل إلا الماء .

وكذلك زعمت أنى فتحت الميم فى قولى :
تبدل خليلاً بى كشكلك شكلكه فإنى خليلاً صالحاً بك مقتوى

وإنما قلتُ مقتوى ، بضم الميم .
وإذا هناك راجز يقول : تأولت على أنى قلت :

يا إيلى ، ما ذنبه فتأيبه ماء رواءً ونصى حويله

فحركت الياء فى « تأيبه » ، ووالله ما فعلت ولا غيرى من العرب .
وإذا رجل آخر يقول : ادعيت على أن الماء راجعة على الدرس ، فى قولى :

هذا سراقه للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا ، إن يلقيها ، ذيب

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك ؟

وإذا جماعة من هذا الجنس ، كلهم يلومونه على تأويله ، فقلتُ : « يا قوم ، إن هذه أمور
هينة ، فلا تعتنوا هذا الشيخ ، فإنه يمت بكتابه فى القرآن المعروف بكتاب (الحجية) وإنه
ما سفك لكم دمًا ، ولا احتجن عنكم مالا ؛ فتفرقوا عنه » ٢٥٤ .

هنا يقسو « أبو العلاء » على « أبى على الفارسى » ، ويتهمه بالادعاء والتأويل ، ويأتى بمن
يقسم على أن ما ادعاه أبو على ، لم يقله أحد من العرب ، وآخر يصيح منكرًا : أفمجنون أنا
حتى أعتقد ذلك ؟

وفى (الغفران) حملة أخرى على « أبى على الفارسى » ، ظاهرها لا يبدو فيه مثل تلك الشدة
التي فى معركة المحشر ، ولكنها فى الواقع تنتهى بحكم صارم على أبى على الفارسى ، إذ يصفه
أبو العلاء بـ « هذا المتكلف ، والمعتز لما ليس له » [.
يسأل الشيخ « لبيد بن ربيعة » : فما مغزك فى قولك :

وصبوح صافية وجذب كرينية بموتّر تآتأله إبهامها ؟

فإن الناس يروون هذا البيت على وجهين : فمنهم من ينشده : تآتأله ، يجعله تفتعله ، من
آل الشىء يؤوله إذا ساسه ، ومنهم من ينشد : تآتأله ، من الإتيان . فيقول لبيد : كلا الوجهين
يحتمله البيت . فيقول - أرغم الله حاسده - : « إن « أبى على الفارسى » كان يدعى فى هذا البيت
أنه مثل قولهم : استحى يستحى ، على مذهب الخليل وسيبويه ، لأنهما يريان أن قولهم :
استحيت ، إنما جاء على قولهم : استحاى ، كما أن استقمت على استقام ، وهذا مذهب ظريف ،
لأنه يعتقد أن تأتي مأخوذة من أوى ، كأنه بنى منها افتعل فقيل : اتى ، فأعلت الواو كما تعل
فى قولنا : اعتان ، من العون ، واقتال ، من القول ، ثم قيل : اتيت ، فحذفت الألف كما يقال :
اقتلت . ثم قيل فى المستقبل يأتى بال حذف ، كما قيل : يستحى .

« فيقول لبيد : معترض لعن لم يعنيه . الأمر أيسر مما ظن هذا المتكلف » ٢١٨ .

[قال التبريزي في شرحه : « وتأناله ، بفتح اللام من قولك : كأنه يفعل ذلك على مهل وترسل . ويروى بضم اللام ، تأناله ، من قولك : ألت الأمر إذا أصلحته]^(١) .

* * *

وفي مشاهد مسرح الغفران المعركة اللغوية العنيفة التي أشعل نارها بين « المازني والأصمعي » في الوليمة الحافلة التي أقامها « ابن القارح » بالجنة ودعا إليها كل من هناك من الشعراء والأدباء وعلماء العربية :

« ... قال أبو عثمان المازني لعبد الملك بن قريب الأصمعي : يا أبا سعيد ، ما وزن إوزة ؟ فيقول الأصمعي : ألى تعرض بهذا يا فصعل ، وطالما جئت مجلسي بالبصرة وأنت لا يرفع بك رأس ؟ وزن إوزة في الموجود إفعلة ، ووزنها في الأصل إفعله . فيقول المازني : ما الدليل علي أن الهمزة فيها زائدة ، وأنها ليست أصلية ، ووزنها ليس فعلة ؟ فيقول الأصمعي : أما زيادة الهمزة في أولها فيدل عليه قولهم : وز . فيقول أبو عثمان : ليس ذلك بدليل على أن الهمزة زائدة ، لأنهم قد قالوا : ناس ، وأصله أناس ، وميبة لجدرى الغنم ، وإنما هو أميبة ، فيقول الأصمعي : أليس أصحابك من أهل القياس يزعمون أنها إفعلة ، وإذا بنا من « أوى » اسمًا على وزن إوزة ، قالوا : إياة ؟ ولو أنها فعلة ، قالوا : إوية . ولو جاءوا بها على إفعلة بسكون العين قالوا : إيبة ، والياء التي بعد الهمزة - وهي همزة أوى - جعلت ياء لاجتماع الهمزتين ، ولأن قبلها مكسورًا وهي مفتوحة . وإذا خففت همزة معزر جعلتها ياء خالصة .

« فيقول المازني : تأول من أصحابنا وادعاء ، لأن إوزة لم يثبت أن الهمزة فيها زائدة . فيقول الأصمعي :

رَيْشَتْ جَرَهُمْ نَبْلًا فَرَمَى جَرَهُمَا مِنْهُن فَوْقَ وَغَرَّارَ

تبعتهم مستفيدًا ، ثم طعنت فيما قالوه مُعيدًا . ما مثلك ومثلهم إلا كما قال الأول :

أعلمه الرماية كل يوم فلما استدَّ ساعده رماني

وينهض كالمغضب « ٢٨٤ .

قلت : [وهذا الخلاف على وزن إوزة ، صدى لما في كتب اللغة . جاء في (لسان العرب) عن بعضهم : وزن إوزة إفعلة ، أصلها إوزة . وقال الليث : وزنها فعلة .

(وفي شرح الرضى ، على شافية ابن الحاجب) :

« ولا يجوز أن يكون (فعلة) لقولهم : وز »

قال ناشروه على الهامش :

« الإوزة : البطة ، واحدة الإوز ، وقد قالوا وزه ، وقالوا في اسم الجمع أيضًا : وز ، فكان سقوط الهمزة في بعض صور الكلمة دليلًا على أن هذه الهمزة حرف زائد « ..] .

* * *

(١) شرح المعلقات : ص ١٥٥ . والتبريزي تلميذ أبي العلاء .

ومما ذكر « أبو العلاء » أيضاً من الخلاف بين الكوفيين والبصريين ، ما جاء في حوار ابن القارح مع « طرفة » بتلقين أبي العلاء :

« وشد ما اختلف النحاة في قولك :

ألا أيهذا الزاجرى أحضَرَ الوغى وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟

أما سيويه فيكره نصب أحضُر ، لأنه يعتقد أن عوامل الأفعال لا تضم ، وكان الكوفيون ينصبون أحضِر بالحرف المقدر . ويقوى ذلك • وأن أشهد اللذات • فجتَ بأن ، وليس ذا بأبعد من قوله :

مشائِمُ ليسوا مصلحين قبيلةً ولا ناعبٍ إلا يبين غرأبها
وقد حكى المازنى عن على بن قطرب^(١) : أنه سمع أباه قطرباً يحكى عن بعض العرب نصب أحضِر « (٣٣٦) .

ونقل هنا بعض ما قيل في هذا الخلاف :

- فى بيت طرفة ، قال التبريزى : وقد روى ، أحضُر ، بالنصب على إضمار أن ، وهذا عند البصريين خطأ ، لأنه أضمر ما لا يتصرف وأعمله . ومن رواه بالرفع ، على تقديرين : تقدير أن والرفع بعد حذفها ، وأن يكون فى موضع الحال^(٢) .
وقال فى (الخزائنة)^(٣) : « .. على أن نصب (أن) المقدره فى مثل هذا ضعيف ، والكوفيون يجوزون النصب فى مثله قياساً . ومنع البصريون ذلك بأن عوامل الأفعال ضعيفة لا تعمل مع الحذف ، وإذا حُذفت ارتفع الفعل . ومنه عند سيويه : ﴿ قل أغير الله تأمرونى أعبد ﴾ .. الآية . وقالوا : رواية البيت عندنا إما هى بالرفع .

[- وفى قوله : • مشائِمُ ليسوا مصلحين قبيلة • البيت للأحوص اليربوعى . والشاهد فى (ناعب) عطف بالجر على (مصلحين) المصوب خير ليس . ويسمى هذا فى غير القرآن ، العطف على التوهم ، أى توهم الباء ، وأما فى القرآن ، فيسمى : العطف على المعنى . وقد أشده « سيويه » بروايتين : النصب عطفاً على مصلحين ، شاهداً على نصب قبيلة بمصلحين ، لأن التون فيه بمنزلة التنوين فى واحده . والجر على توهم الباء فى خبر ليس . ولم يُجز المبرّد إلا النصب ، لأن حرف الجر لا يضم^(٤) .

* * *

(١) بهذا يكون من البصريين من قال بالنصب كالكوفيين .

(٢) التبريزى : شرح المعلقات ص ٨٠ .

(٣) البغدادي : خزائنة الأدب : ج ١ ص ١١٧ .

(٤) البغدادي : خزائنة الأدب : ج ٤ ص ١١٧ .

وأورد (الغفران) كذلك ، خلافتهم في قول القائل « فداء لك » . قال : « ألا يعجب من قول العرب : فداءً لك ، بالكسر والتنوين ، كما قال الراجز :

وَيْهًا فِدَاءً لَكَ يَا فَضَالَهٗ أَجْرُهُ السَّرْحُ وَلَا تَبَالَهٗ !

ويروى : فَضَالَهٗ . وذكر أحمد بن عبيد بن ناصح ، وهو المعروف بأبي عصيدة ، أن قولهم : فداءً لك ، بالكسر ، إذا كان لها مرفاع ، لم يجز فيها الكسر والتنوين ، ولا ريب أنه يحكى ذلك عن العلماء الكوفيين ، وعينه في قول النابغة :

مهلا فداء لك الأوقام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد

فأما البصريون فقد رووا هذا البيت : فداءً لك « (٣٨٤) .

[قال التبريزي^(١) ويروى ، فِدَاءً : على المصدر ، والمعنى : الأوقام كلهم يفدونك فِدَاءً . ويروى ، فداءً بمعنى ليقفك ، كما بُني نحوُ دراكٍ وتراكٍ ، لأنه بمعنى : أدرك واترك .

ومن العرب من يكسر « فداءً » بالتنوين إذا جاور لام الجر خاصة . وفي كتب اللغة : فداءه يفديه فِدَاءً وفِدَى ، ويفتح ، عن الفراء : إذا فتحوا الفاء قصرها ، وإذا كسروا مدّوا .

وعن الأزهرى : وأكثر الكلام كسرُها والقصرُ .

وعن الأخفش : لا يُقصرُ الفِداء بكسر الفاء إلا للضرورة .

وعنه : ومن العرب من يكسر فداءً بالتنوين ، إذا جاور لام الجر خاصة لأنه نكرة ، يريدون به معنى الدعاء . وأنشد بيت النابغة] .

* * *

ومن حديثه على لسان ابن القارح مع أئينا آدم عليه السلام في الطريق إلى الجنة عائداً من الاطلاع على جحيم الغفران .

« .. وقد زعم بعض العلماء أنك إنما سُميتَ إنساناً إنسيانك ، واحتج على ذلك بقولهم في التصغير : إنسيان ، وفي الجمع : أناسي ، وقد رُوِيَ أن الإنسان من النسيان عن « ابن عباس » ، وقال الطائي (٣٦١) :

لا تنسين تلك العهود وإنما سُميتَ إنساناً لأنك ناسي

وقرأ بعضهم : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾^(٢) بكسر السين ، يريد : الناسي ، فحذف الياء كما حذف في قوله : ﴿ سواء العاكفُ فيه والبادي ﴾^(٣) .

(١) شرح المعلقات : ص ٣٣٠ والبيت لأبي تمام الطائي .

(٢) من آية ١٩٩ - البقرة . وقراءة الجمهور بضم السين .

(٣) من آية ٢٥ - الحج .

فأما البصريون فيعتقدون أن الإنسان من الإنس ، وأن قولهم في التصغير : أنسيان شاذ ، وقولهم في الجمع : أناسي ، أصله أناسين ، فأبدلت الياء من النون . والقول الأول أحسن » . ٣٦٠ .

قلت : [الخلاف في اشتقاق إنسان من الإنس أو من النسيان ، تجد تفصيله في كتب اللغة ، ومثله الخلاف في اشتقاق كلمة اسم ، أهي من الوسم أم من السمو . انظر (اللسان ، والخصائص لابن جنى ، والإنصاف لابن الأنباري)] .

* * *

وأشار « أبو العلاء » - في إيجاز - إلى خلافهم في قول الراجز :

إذا أكلتُ لبناً وفرضاً ذهب طولاً وذهبت عرضاً

قال : « وفي نصب طول وعرض ، اختلاف بين المبرد وسيبويه » ١٦٢ . قلت : [الشاهد المذكور في (كتاب سيبويه ص ٨٢ ط الألفية) وجاء في شرح شواهده - بهامشه ، للأعلم الشتمري - : أن طولاً وعرضاً منصوبان على التمييز المحول عن الفاعل ، أي ذهب طولى وعرضى ، أى اتسعا . ويجوز وجه آخر ، وهو أن يكون (طولاً وعرضاً) منصوبين على الظرفية ، أى في طول وفي عرض] .

* * *

وقال في (الغفران) على لسان الحية الفقيهة القارئة :

« فلما توفي أبو عمرو - بن العلاء البصرى - كرهتُ المقام ، فانتقلت إلى الكوفة فأقمت في جوار حمزة بن حبيب ، فسمعتة يقرأ بأشياء ينكرها عليه أصحابُ العربية ، كخفض الأرحام في قوله (تعالى) : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾^(١) ، وكسر الياء في قوله (تعالى) : ﴿ وما أنتم بمصرحى ﴾^(٢) ، وكذلك سكون الهمزة في قوله (تعالى) : ﴿ استكباراً في الأرض ومكر السيئ ﴾^(٣) ، وهذا إغلاقٌ لباب العربية ، لأن الفرقان ليس بموضع ضرورة ، وإنما حكى مثل هذا في المنظوم ، وقد رُوِيَ أن امرأ القيس قال :

فاليوم أشربُ غيرَ مستحقبٍ إثمًا من اللّه ولا واغل

وبعضهم يروى : فاليوم أسقى . وإذا روى : * فاليوم أشرب * فيجوز أن يكون ثم إشارة إلى الضم لا حكم لها في الوزن ، فقد زعم « سيبويه » أنهم يفعلون ذلك في قول الراجز : متى أنام لا يورقنى الكرى ليلا ، ولا أسمع أصواتَ المطى

(١) سورة النساء من الآية (١) .

(٢) من الآية (٢٢) سورة إبراهيم .

(٣) من الآية (٤٣) سورة فاطر

وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا يحفلون بطرح الإعراب . فأما قول الراجز :
 إذا عوججن ، قلتُ صاحبَ قَوْمٍ في الدَّوِّ أمثالَ السفينِ العُومِ
 فإنه من عَجيب ما جاء ، وقد بَيَّله صاحبه أن يقول : صاح قَوْمٍ . فلا يكون بالوزن
 إخلال ، ولكن الذين يحتجون له يزعمون أنه أراد أن يعادل الجزأين ، لأن قوله : (حِبِّ
 قَوْمٍ) في وزن قوله (نِلُّ عَوْمٍ) ، وهذا يشبه ما ادعوه في قول « الهذلي » :
 أبيتُ على معارىَ فاخراتٍ . بهنِ مُلَوَّبٍ كدمِ العباطِ
 يزعم النحويون أن قوله معارىَ بفتح الياء ، حملة عليه كراهةُ الزحافِ . وهذا قول يتنقض ،
 لأن في هذه الطائفة أبياتاً كثيرة لا تخلو من زحاف ...
 .. وقد روى عن « الأصمعي » أنه لم يسمع العرب تنشد إلا : « أبيت على معارىَ بالتنوين ،
 وهذا لا ينقض مذهب أصحاب القياس ، إذا كانوا يروون عن أهل الفصاحة خلافه »
 . (٣٦٧ : ٣٧٠) .

* * *

وفي الحديث مع عمرو بن كلثوم : « وقالوا في قولك (سخينا) قولين : أحدهما
 أنه فعلنا من السخاء ، والتون نون المتكلمين . والآخر أنه من الماء السخين ، لأن « الأندرين
 وقاصرين » كانتا في ذلك الزمن للروم ، ومن شأنهم أن يشربوا الخمر بالماء السخين
 في صيفٍ وشتاء .

وقد سئل بعض الأدباء بمدينة السلام ، عن قولك :

فما وجدتُ كوجدى أمُّ سَقْبٍ أضلَّتْ فرجعتِ الحنينا
 ولا شمطاءً لم يترك شقاها لها من تسعةٍ إلا جنيها

هل يجوز نصبُ شمطاء ؟ فلم يجب بشيء . وذلك يجوز عندى من وجهين :
 أحدهما على إضمارِ فعلٍ دلُّ عليه السامعُ معرفته به ، كأنك قلت : ولا أذكر شمطاء ،
 أى أن حنينها شديد ؛ ويجوز أن يكون على قولك : ولا تنس شمطاء ، أو نحو ذلك
 من الأفعال . وهذا كقولك : إن كعبَ بن مامةٍ جوادٌ ولا حاتمًا ، أى : ولا أذكر
 حاتمًا ، أى : أنه جوادٌ عظيم الجود ، استغنيتُ عن ذكره باشتهاره . والآخر ، أن
 يكون مِنْ وِلَاةِ المَطَرِ ، إذا سقاه السقية الثانية ، أى هذا الحنين اتفق مع حنيني ، فكأنه
 قد صار له وليًا . ويُحتمل أن يكون من ولى لى ، وَقَلَبَ الياء على اللغة الطائية «
 . ٣٢٩ : ٣٣٢ .

* * *

« وأما قوله الحكاية عن عازر : ﴿ قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾^(١) فقد قرئ برفع الميم - يعني ميم أعلم - وسكونها : فالرفع على الخبر ، والسكون على أنه أمر من الله جلّ سلطانه . وأجاز « أبو على الفارسي » أن يكون (أعلم) مخاطبة من « عازر » لنفسه ، لأن مثل هذا معروف . يقول القائل - وهو يعني نفسه : ويحك ما فعلت ، وما صنعت ؟ ومنه قول الحادرة النينائي :

بكرت سمية غدوة فتمتع وغدت غدو مفارق لم يربع
(ص ٢٨١ : ٢٨٢)

* * *

وقال على ذكر قول المتنبي :

* أذمُّ إلى هذا الزمان أهيلَه *

« وأهلُ ، كلمة أصلٌ وضعها للجماعة ، فيقال : ارتحل أهل الدار ، فيعلم السامعُ أن المتكلم لا يقصد واحداً بما قال ، إلا أن هذه الكلمة قد استعملت للآحاد ، فقيل : فلان أهلُ الخير وأهلُ الإحسان ، قال حاتم الطائي :

ظلت تلوم على بكرٍ سمحتُ به إن الرزيفةُ في الدنيا ابنُ مسعود
غادره القومُ بالمعزاء منجدلاً وكان أهل الندى والحزم والجود
وكان هذه اللفظة أصلها أن تكون للجمع ، ثم نقلت إلى الواحد ، كما أن صديقاً وأميراً ونحوهما ، إنما وُضعن في الأصل للأفراد ، ثم نقلن إلى الجمع على سبيل التشبيه ، وكذلك قولهم : بنو فلان أخ لنا . ويقال : أهلٌ وأهلةٌ وأهلات في الجمع ، قال الشاعر :

فهم أهلاتٌ حول قيس بن عاصم إذا أدلجوا بالليل يدعون كوثرًا
وقال بعض النحويين في تصغير آل الرجل : يجوز ، أو نيلٌ وأهليلٌ . كأنه يذهب إلى أن الهاء أبدلت منها همزة ، فلما اجتمعت الهمزتان جعلت الثانية ألفاً ، ومثلُ هذا لا يثبت . والأشبه أن يكون آل الرجل ، مأخوذاً من : آل يؤول إذا رجع ، كأنهم يرجعون إليه أو يرجع إليهم .
(٤١٧)

* * *

وعلى ذكر قوله تعالى : ﴿ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ .. الآية^(٢) . نراه يوقف ابن القارح بين العلماء الأئمة الذين دعاهم إلى الوليمة في الجنة ، ويسألهم مباحياً بالذي يعرف : ما موضع يطمئن ؟ فيقولون : نصب بلام كى . فيقول : هل يجوز غير ذلك ؟ فيقولون : لا يحضرننا

(١) سورة البقرة من الآية (٢٥٩) .

(٢) سورة البقرة من الآية (٢٦٠) .

شئى ، فيقول : يجوز أن يكون فى وضع جزم بلام الأمر ، ويكون مخرجُ الكلام مخرجَ الدعاء ، كما يقال : يا رب اغفرْ لى ، ولتغفرْ لى .

* * *

وكثيراً ما يبدو لأبى العلاء أن يحاكم الشعراء الذين يتصدى لهم ناقداً أخذاً عليهم عثراتهم ، وإن كان يبدو فى بعض المواقف مسلماً لا يشب عراكاً ، وإنما يكفى بذكر ما يعلم من أسرار العربية .

قال على ذكر « الحلاج » فى رسالة ابن القارح : « وأما الأبيات التى على الياء :

يا سِرَّ سِرِّ يَدِيقُ حَتَّى
يجل عن وصفِ كلِّ حَيٍّ
وظاهراً باطناً تَبَدَّى
من كلِّ شئى لكلِّ شَيِّ
يا جملةَ الكلِّ لستَ غيرى
فما اعتذارى إذنٌ إلى ؟

فلا بأس بنظمها فى القوة ، ولكن قوله : إلى ، عاهة فى الأبيات : إن قيَّدَ فالتقييد لمثل هذا الوزن لا يجوز عند بعض الناس ، وإن كسر الياء من (إلى) فذلك ردىء قبيح ، وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة : « وما أنتم بمصرخى » بكسر الياء .

« وقد رُوِيَ أن « أبا عمرو بن العلاء » سئل عن ذلك فقال : إنه لحسنٌ ، تارةً إلى فوق وتارةً إلى أسفل . يعنى فتح الياء فى مصرخى وكسرها . والذين نقلوا هذه الحكاية يحتجون بها لحمزة ، ويذهبون إلى أن « أبا عمرو » أجاز الكسر لالتقاء الساكنين . وإن صحَّت الحكاية عنه فما قالها إلا متهزئاً على معنى العكس ، كما قال « الغنوى » - وهو سهل بن حنظلة :

لا يمنع الناسُ منى ما أردتُ ولا أُعطيهم ما أرادوا حَسَنَ ذا أديبا

أى : ليس ذلك بحسن . وهذا كما يقول الرجلُ لولده إذا رآه قد فعل فعلاً قبيحاً : ما أحسن هذا ! وهو يريد ضدَّ الحسن . ولم يأتِ كسرُ هذه الياء فى شعر فصيح . وقد طعن « الفراء » على البيت الذى أنشده :

قال لها : هل لك يا تافى ؟ قالت له : ما أنت بالمرضى

وقد سمعت فى أشعار المحدثين : إلى وعلَى ، ونحو ذلك ، وهو دليلٌ على ضعف المنَّة وركاكة

الغريزة .

وكذلك قوله : الكل . إدخاله الألف واللام مكروه ، وكان « أبو على » يجيزه ويدعى إجازته على « سيبويه » ، فاما الكلام القديم فيُفتقد فيه الكلُّ والبعضُ . وقد أنشدوا بيتاً لسحيم :

رأيتُ الغنىَّ والفقيرَ كليهما إلى الموت ، يأتى الموتُ لكلُّ مَعَمَّداً

(٤٥٧)

* * *

وقال في حديثه عن « أئبي بكر الشبلي » :
« .. وأنشدني له منشد :

بأح مجنون عامر بهواه وكنمت الهوى ففزت بوجدى
وإذا كان يوم القيامة نودى أين أهل الهوى ؟ تقدمت وحدى
هكذا أنشده : نودى ، بسكون الياء ، ولا أحب ذلك وإن كان جائزاً ، وإنما يوجد في
أشعار الضعفة من المحدثين « (٥٨٢) .

* * *

وقال في حديثه عن ججاج ابن القارح :
« وكأني به لما اعتزم على استلام الركن ، وقد ذكر البيتين اللذين ذكرهما « المفجع » في
(حد الإعراب) :

لو كان حتى قبلهن ظعائناً حتى الحطيم وجوهن وزمزم
لكنه عمًا يطيف بركنه منهن ، صماء الصدى مستعجم
فيعجب من خروجه من المذكر إلى المؤنث^(١) . وإذا حمل هذا على إقامة الصفة مقام الموصوف
لم يعد .
« وكذلك يذكر قول الآخر^(٢) :

ذكرتك والحجيج له عجيج بمكة والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن في بلد حرام به لله أخلصت القلوب
أتوب إليك يا رباهُ مما جنيت فقد تظاهرت الذنوب
فأما من هوى ليلي وحيي زيارتها ، فإني لا أتوب
فيقول : أليس قال البصريون إن هاء التثنية لا تثبت في الوصل ؟ والهاء في قوله : يا
رباه ، مثل تلك الهاء ليس بينهما فرق ، ولكن يجوز أن يكون مغزاهم في تلك المنثور من
الكلام ، إذ كان المنظوم يحتمل أشياء لا يحتملها سواه .
« ولعله قد ذكر الأبيات في الطواف :

أطوفُ بالبيت فيمن يطوف وأرفع من مئزرى المسبل
وأسجد بالليل حتى الصباح وأتلو من المحكم المنزل
عسى فارح الكرب عن يوسف يسخر لي ربة الحممل^(٣)

(١) الشاهد ، في قوله بالبيت الثاني : « صماء الصدى مستعجم » على تقدير : صخرة صماء الصدى ..
ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه .

(٢) الأبيات لمجنون ليلي ، والشاهد في قوله : يا رباه .

(٣) الأبيات لعمر بن أبي ربيعة - لفظ ص ٥٣٩ من نص رسالة الفران ط ذخائر .

فقال : ما أيسرَ لفظ هذه الآيات ، لولا أنه حذف (أن) من خير عسى ، فسبحان الله ، لا تعدّم الحسنة ذامًا ، وأى الرجال المهذب ؟ « ٥٣٨ .

* * *

وقال فيما لقن ابن القارح في الحديث مع « أوس بن حجر » :

« وكان في عزمي أن أسألك عما حكاه سيويه في قولك :

تَوَاهَقَ رَجُلَاهَا يَدَاهُ وَرَأْسَهُ لَهَا قَتَبٌ خَلْفَ الْحَقِيْبَةِ رَادِفٌ

فإني لا أختار أن تُرْفَعَ الرجلان واليدين ، ولم تدعُ إلى ذلك ضرورةً ، لأنك لو قلت :
* تَوَاهَقَ رَجُلَيْهَا يَدَاهُ * لم يزعِ الوزن ، ولعلك - إن صح قولك لذلك - أن تكون طلبتَ المشاكهة ، وهذا المذهب يقوى إذا رُوِيَ * يداها * بالإضافة إلى الموث ، فأما في حال الإضافة إلى ضمير المذكر فلا قوة له « ٣٤١ .

قلت : [ورواية اللسان ، كالغفران : * تَوَاهَقَ رَجُلَاهَا يَدَاهُ وَرَأْسَهُ *

وهو يصف حمارَ وحشٍ وأتانا يسوقها إلى الوجه الذي يريده . والمواهقة أن تسير مثل سير صاحبك . أراد ، تَوَاهَقَ رَجُلَاهَا يَدَيْهِ ، فحذف المفعول وقد علم أن المواهقة لا تكون من الرجلين دون اليدين فأضمر ، وأن اليدين مواهقتان ، كما أنهما مواهقتان ، فأضمر لليدين فعلا دل عليه الأول ، فكأنه قال : وتَوَاهَقَ يَدَاهُ رَجُلَيْهَا ، ثم حذف المفعول في هذا كما حذفه في نسق الأول ، فصار على ما ترى . * تَوَاهَقَ رَجُلَاهَا يَدَاهُ *] .

* * *

وقال على ذكر كتاب (القضيْب) لابن الراوندى : « فهو كما قال الأول :

فلم أر مغلوبين يَفْرَى ولا وقعَ ذاك السيفِ وقعَ قضيْب

وهذا البيت يُستشهد به - كما عَلم - لأنه قال : مَغْلُوْبِيْنَ يَفْرَى ، وإنما يجب أن يقال : يفران ، ولكنه أجرى الاثني مجرى الجمع ، ومثله قول الراجز :

* مثل الفراخ تُثِقَتْ حواصلُهُ * (٤٧٤)

قلت : [في (فقه اللغة للثعالبي) في القسم الثاني ، عن « أسرار العريّة » عقد المؤلف فصلا بهذا المعنى عنوانه : فصل في الجمع بين شيئين اثنين ، ثم ذكر أحدهما دون الآخر ، والمراد به كلاهما ، قال : التوبة من الآية : ٣٤ .

« من سنن العرب أن تقول : رأيت عمراً وزيداً وسلمت عليه ، أى عليهما - وقال الله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) وتقدير الكلام : ولا ينفقونها في سبيل الله . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا

(١) التوبة من الآية : ٣٤ .

إليها^(١) وتقديره ، انفضوا إليهما . وقال جلّ جلاله : ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾^(٢) والمراد : أن يرضوهما » [.

* * *

وفى جحيم الغفران جيء بامرئ القيس فسأله ابن القارح بتلقين أبي العلاء : « كيف تنشُد :
جألتُ لتصرعني فقلتُ لها اقصرى إني امرؤٌ صرعى عليكِ حرام
أتقول : حرامٌ ، فتقوى ؟ أم تقول : حرامٍ ، فتخرجه مخرج حذامٍ وقطام ؟ وقد كان بعضُ
علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواء عليك . فيقول امرؤ القيس : لا نكرة عندنا في
الإقواء ، أما سمعت البيت في هذه القصيدة :

فكأن بدرًا واصل بكَيْفِيَّةٍ وكأنما من عاقل إرمأم ؟
فيقول : لقد صدقت يا أبا هند ، لأن إرماما ، ها هنا ليس واقعًا موقع الصفة فيحمل على
المجاورة ، لأنه محمول على : كأنما ، وإضافته إلى ياء النفس - يعني ياء المتكلم - تضعف
الغرض .

وقد ذهب بعض الناس إلى الإضافة في قول الفرزدق :

فما تدرى إذا تعدتُ عليه أسعدُ الله أكثرُ أم جدام
فقالوا : أضاف كما قال جرير :

* تلكم قريشِي والأنصارُ أنصاري *

وكذلك قوله :

وإذا غضبتُ رمّت ورائي مازن أولاد جندلتي كخير الجنادل
وبعضهم يروى :

* أولاد جندلتي كخير الجنادل *

وجندلة هذه ، هي أم مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، وهي من نساء قريش « (٣٢١) .

* * *

ويُلَقَى « الراعى ، النَميرى » فيسلم عليه « ويقول : أرجو أن لا أجدك مثل أصحابك صيفراً
من حفظك وعريبتك ، فيقول : أرجو ذلك فاسألني ولا تطيلن . فيقول : أحق ما روى عنك
« سيويهِ » في قصيدتك اللامية التي تمدحُ بها عبد الملك بن مروان ، من أنك تنصب الجماعة
في قولك :

أيامَ قومي والجماعة كالذى لزمَ الرحالة أن تَميلَ ميلاً ؟

(١) التوبة من الآية : ١١ .

(٢) الجمعة من الآية : ٦٢ .

فيقول : حق ذلك « ٣٦٣ .

[والبيت من شواهد سيبويه ، وروايته في الخزانة^(١) :

* أزمان قومي والجماعة كالذي *

فالجماعة مفعول معه ، على تقدير إضممار الفعل] .

* * *

وقال يسأل - بلسان ابن القارح - امرأ القيس : « أخبرني عن قولك :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

أتنشده : * لك منهن صالح * فتزاحف الكف ، أم تنشده على الرواية الأخرى ؟ فأما يوم . فيجوز فيه النصب والخفض والرفع : فأما النصب فعلى ما يجب للمفعول من الظروف ، والعامل في الظرف ها هنا فعل مضمّر . وأما الرفع فعلى أن تجعل « ما » كافة ، و « ما » الكافة عند بعض البصريين نكرة ، وإذا كان الأمر كذلك ف « هو » بعدها مضمرة . وإذا خفض يوم ، ف « ما » من الزيادات . « ويشدد سى ويخفف ، فأما التشديد فهو اللغة العالية ، وبعض الناس يخفف ، ويقال إن الفرزدق مرّ وهو سكران على كلاب مجتمعة فسلم عليها فلما لم يسمع الجواب أنشد يقول :

فَمَا رَدَّ السَّلَامَ شَبُوحُ قَوْمٍ مَرَرْتُ بِهِمْ عَلَى سِكَكِ الْبَرِيدِ

وَلَا سَيِّمًا الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ قَطِيفَةُ أَرْجَوَانَ فِي الْقَعُودِ

» فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلتُ في الجاهلية إلا بزحاف : * لك منهن صالح * وأما المعلمون في الإسلام فغيروه على حسب ما يريدون ، ولا بأس بالوجه الذي اختاروه . والوجه في (يوم) متقاربة . وسى ، تشديدها أحسن وأعرف فيقول : أجل ، إذا خُففت صارت على حرفين أحدهما حرف علة « (ص ٣١٧) .

يلاحظ على « أبى العلاء » هنا ، أنه أنطق « امرأ القيس » بمصطلحات متأخرة ، استحدثت بعد الإسلام . وقد تحدثنا عن ذلك ، في « أسلوب الغفران » ورددناه إلى قوة اندماج أبى العلاء في عالمه الآخر واستحضاره شخصه ومشاهده . ويأتى فيما يلي نظيره في علم ابن أحرر بمصطلح التصريف على وجه الإلهام .

* * *

وينظر فإذا الحارث - بن حلزة - اليشكري ، فيقول :

« لقد أتعبت الرواة في تفسير قولك :

(١) البغدادي - خزنة الأدب - ج ١٣٠/٣ ط السلفية . وانظر أيضاً ص ٨٨ وما بعدها من كتاب (الضرائر للألوسي) .

زعموا أن كل من ضرب العيب رَ مَوالٍ لَنَا وَأَنَا الولاءُ

(٣٣٢)

وما أحسبك أُرذتَ إلا (العير) الحمار . ولقد شنتَ هذه الكلمة بالأقواء في ذلك البيت . ويجوز أن تكون لُغتكَ أن تقف على آخر البيت ساكناً . وإذا فعلت ذلك اشتبه المطلق بالمقيد ، وصارت هذه القصيدة مضافة إلى قول الراجز :

دار لَظْمًا وَأَيْسَنَ ظَمِيًا أَهْلَكَتْ أَمْ هِيَ بَيْنَ الْأَحْيَا ؟

وبعض الناس ينشد قولك :

فَعَشَنَ بِخَسِيرٍ لَا يَضُرُّكَ التُّوكُ مَا أُعْطِيَتْ جَدًّا

فيجمع بين تحريك الشين وحذف الياء من : عاش يعيش وذلك قليل ردى ، ومنه قول الآخر :

مَتَى تَشَى يَا أُمَّ عَثْمَانَ تَصْرِمِي وَأُودِنَكَ إِبْدَانَ الْخَلِيْطِ الْمَزَابِلِ

وإنما الكلام : متى تشائى ، لأن هذا الساكن إذا حُرِّك عاد الساكن المحذوف : ولقد أحسبت فى قولك :

لَا تَكْشَعُ الشُّوْلَ بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاتِجِ

وقد كانوا فى الجاهلية يعكسون ناقة الميت على قبره ويزعمون أنه إذا نهض لحشره وجدها قد بُعثت له ليركبها .. وهيهات ، بل حُشِرُوا عُرَاةَ حَفَاةَ بَيْهَمَا ، وتلك الناقة المعكوسة هى البليَّة التى ذكرتها فى قولك :

أُتْلَهُ بِهَا الْمَوَاجِزُ إِذْ كُلُّ أَيْنَ هَمَّ بَلِيَّةٌ عَمِيَاءُ

... ..

قلت :

[الكسع : علاج للضرع بالمسح ليرتفع اللبن ، وهو أشد لها . قال الجوهري : كسع الناقة ضرب ضرعها بالماء البارد ليراد فى ظهرها .. والشول : التوق على غير قياس .. وأغبارها جمع غير ، وهو بقية اللبن . ويلتبس قوله يعكسون فى البيت التالى ، بـ يكسون كما جاء على هامش النسخة التيمورية . وإنما العكس حسب الناقة بشد عكاس ، أى : حبل فى عنقها . وتلك الناقة المعكوسة هى البلية . وانظر التفصيل على هامش نص رسالة الغفران .]

(٣٣٤)

* * *

أخشى إن أنا تابعت النقل لمثل هذه الشواهد ، لأكثرث وقصرت ، فلاقتصر على هذا القدر نموذجاً ومثالاً ، مع ما يأتى بمشيئة الله وعونه ، من أشباه ونظائر ، فى (قراءة الجديدة للغفران) .

قضايا النقد والرواية

لعل هذه القضايا أقرب اتصالاً بالدراسة النقدية ، ولأبي العلاء هنا نظراتٌ دقيقة في فقه العربية ، ووزن الروايات ، وذوق الشعر ، ونقد المتن . وهي تشهد بما كان له من دقة الملاحظة وسلامة الذوق الفني ، وصفاء الحس اللغوي .

وقد تعرض « أبو العلاء » لكثير من القضايا الأدبية التي شغلت النقاد زماناً ، وما يزال منها ما يشغلهم حتى اليوم : كمذهب أبي تمام ، والرواية ، والاستشهاد ، والانتحال ، وصناعة الأدب ، ولغة أهل الجنة ، كما عرض لمسائل مفردة ، تتصل بالأدب وتاريخه ونقده ، مما نحاول أن نختار نماذج منه :

طريقة أبي تمام :

جاء « أبو العلاء » بعتره بن شداد العبسي ، ليحكم على طريقة أبي تمام ، ملتفتاً ، في هذا الاختيار ، إلى التقابل بين قول عتره :

* هل غادر الشعراء من متردّم *

وقول أبي تمام :

فلو كان يفنى الشعرُ أفناه ماقرتُ حياضكُ منه في العصور الذواهب

ثم مضى يدافع عن المذهب وصاحبه .

قال يحدث « عتره » بلسان ابن القارح :

« وإنني إذا ذكرتُ قولك : هـ هل غادر الشعراء من متردّم * لأقول : إنما قيل ذلك وديوانُ الشعر قليل محفوظ ، فأما الآن فقد كثرت على الصائد الضيابُ ، وعرفت مكان الجهل الرباب . ولو سمعت ما قيل بعد مبعث النبي ﷺ لعبتت نفسك على ما قلت ، وعلمت أن الأمر كما قال حبيب بن أوس :

فلو كان يفنى الشعرُ أفناه ما قرّت حياضكُ منه في العصور الذواهب

ولكنه صوبُ العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

فيقول : وما حبيبيكم هذا ؟ فيقول : شاعرٌ ظهر في الإسلام ، وينشده شيئاً من نظمه ، فيقول : أما الأصل فعربي ، وأما الفرع فنطق به غبي ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب . فيقول وهو ضاحك مستبشر : إنما يُنكر عليه المستعار ، وقد جاءت العارية في أشعار كثير من المتقدمين ، إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس » (٣٢٤) .

* * *

وعاد في القسم الثاني من (الغفران) فذكر أبا تمام ، وامتدح (طريقته المبتدعة) وجاء بقصائده فأقمن عليه مأتماً من أعجب المآتم : لبسن السواد ، وبكين نائحات ، واجتمعن من كل أوب كما تجتمع النسوة ، وذلك على طريقة التشخيص التي تحدثنا عنها في أسلوب الغفران . قال :

« فَإِنْ قَدِ فِي النَّارِ « حَبِيبٌ » ، فَمَا يُعْنِي الْمَدْحُ وَلَا التَّشْيِيبُ ، وَلَوْ أَنَّ الْقَصَائِدَ لَهَا عِلْمٌ ، وَتَأْسَفُ لِمَا يَشْكُو الْخِلْمُ ، لِأَقَامَتْ عَلَيْهِ الْمَدَدَاتُ^(١) اللَّتَانِ فِي أَوَّلِ دِيْوَانِهِ ، مَأْتَمًا يُعْجَبُ لِأَسْوَانِهِ ، فَنَاحَتْهَا عَلَيْهِ كَابِتِي لِيَدٍ : وَجَرَعْتَاهُمَا مِنَ التَّكْلِمْ نَظِيرُ الْهَبِيدِ ، وَقَالْنَا مَا زَعَمَهُ الْكِلَابِيُّ فِي قَوْلِهِ :

وقولا : هو الميثُ الذي لا حريمه أضع ، ولاخان الصديق ولا غدرُ
إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلام عليكما ومن ييكُ حولاً كاملاً فقد اعتذر
وكأني بهما - لو قضى ذلك - لاجتمعت إليهما الممدودات^(٢) كما تجتمع نساء معدودات ،
كما تجتمع نساء معدودات ، فيجئن من كل أوب ، ويتواعذنُ المحفلُ على نوب ، ولو فعلن ذلك
لبارتهنَّ البائيات^(٣) بمآتم أعظم رنيناً ، وأشد في الخندس حنيناً .. وما نظمته على التاء ، فإنه
لا يُعجزُ عن الإتياء . وتجيء الثائتان وكلتاها كابنة الجون ، تبتدرُ في حالِك اللون .. وإن
التاء لقليلة في شعر العرب ، إلا أنهما تستعينان كلمة « كُثيرٌ » :

حبالُ سلامة أضحت رثاءً فسُقياً جُددًا أو رِمَاءًا

وبأراجيز رؤبة .. »

فإذا انقض ذلك المآتم الذي جمع فيه « أبو العلاء » من القصائد أكثر مما اجتمع في جنازة
أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - من النساء والرجال ، قال في طريقة أبي تمام :
« وَإِنِّي لِأَضْنُ بِتِلْكَ الْأَوْصَالِ ، أَنْ يَظَلَّ جَسَدُهَا وَهُوَ بِالْمَوْقِدَةِ صَالٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ
طَرِيقَةٍ مَبْتَدَعَةٍ ، وَمَعَانِ كَاللُّؤْلُؤِ مُتَّبِعَةٍ ، يَسْتَخْرِجُهَا مِنْ غَامِضِ بَحَارٍ ، وَيَفِضُّ عَنْهَا الْمَسْتَعْلَقَ مِنْ
الْحَارِ » (٢٨٢ : ٤٨٨) .

مذهب الشعراء :

ويتحدث « أبو العلاء » في غير موضع ، عمّا يذهب إليه الشعراء من الغلو في القول تحسیناً
للکلام ، أو تلاعباً به ، دون أن يعتقدوا ما يقولون . يقول « لبيد بن ربيعة » للأعشى :
« سَبِحَانَ اللَّهِ يَا أَبَا بَصِيرٍ ! بَعْدَ إِقْرَارِكَ بِمَا تَعْلَمُ ، غُفِرَ لَكَ وَحَصَلَتْ فِي الْجَنَّةِ ؟ ! فَيَقُولُ
الشيخ متكلماً عن الأعشى : كأنك يا أبا عقيل ، تعنى قوله .. وقوله .. وقوله .. ونحو ذلك
مما روى في ديوانه ؟ فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون تحسیناً للكلام على مذهب

(١) ، (٢) ، (٣) أشرنا إلى هذه القصائد على هامش النص - ص ٤٨٤ وما بعدها . طبعات الذخائر : ١ - ١٠ .

الشعراء ، وإما أن يكون فعله فغفر له . ويتلو : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾^(١) .

وفى القسم الثانى من الرسالة ، قال عن ذم « المتنى » للزمان أهليه :
« .. والشعراء مطلق لهم ذلك ، لأن الآية شهدت عليهم بالتخرف وقول الأباطيل : ﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾^(٢) (٢١٨ - ٢١٩) .
وقال عن أبى عيسى بن الرشيد :

« وربما كان الجاهل أو المتجاهل ، ينطق بالكلمة وخذله بضدها أهل ، وإنما أقول ذلك راجياً أن أبى عيسى ونظراءه لم يتبعوا فى الغى أمراءه ، وأنهم على سبوى ما أعلن بيتون ، لقد وعظهم الميتون .

« ورأى بعضهم « عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن » فى النوم وهو بحسن حال ، فذكر له الآيات الفائية التى فيها :

هى الدنيا وقد نعموا بأخرى وتسوف الظنون من السواف
أى الهلاك . فقال : إنما كنت أتلاعبُ بذلك ، ولم أكن أعتقده » (٤٤٥) .

* * *

مهنة الأدب :

ويرى « أبو العلاء » فى (الغفران) أن حرفة الأدب صناعةٌ خاسرة مهينة ، فالشاعر « النابغة الجعدى » يعير « الأعشى » بمدح الملوك . ويرى زوجته « الهزانية » قد وقفت فى تخلية هذا النابغ الذى يطوف الأحيوة على العظام المنتبذة .

و« حميد بن ثور » فى جنة الغفران ، يشكو ما لقي فى الدنيا من هذه الصناعة يقول : « ولقد كان الرجلُ منا يُعمل فكره السنة والأشهر فى الرجل قد آتاه الله الشرف والمال ، فربما رجع بالخيبة ، وإن أعطى فعطاءً زهيداً » .

« وابن القارح » ينصرف عن انتساح آداب الجن - وكان قد همَّ بذلك - ويقول :
« لقد شقيتُ فى الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائل . وإنما كنتُ أتقرب به إلى الرؤساء فأحتلب منهم درَّ بكىء ، وأجهدُ أخلافَ مصور ، ولستُ بموفق إن تركت لذاتِ الجنة وأقبلت أنتسخ آدابِ الجن ومعى من الأدب ما هو كاف » (٣٠٤) .
فإذا كانت الرحلة إلى النار والتقى ابن القارح بإبليس سأله هذا : « من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب . كانت صناعتى الأدب أتقرب به إلى الملوك . فيقول : بتست

(١) سورة الزمر : ٥٣ .

(٢) خواتم سورة الشعراء : الآيتان : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

الصناعة ، إنها تهب غُفَّةً من العيش لا تتسع بها العيال ؛ وإنما لمزلة القدم ، وكَم أهلكت مثلك ، فهنيئاً لك إذ نجوت » (٣٠٩) .

* * *

- وفي القسم الثاني من (الرسالة) - يسجل أبو العلاء شهادته على هذه الصنعة ويقول : « ولم يزل أهلُ الأدب يشكونَ الغيرَ في كل جيل ، ويُخصِّصونَ من العجائبِ بسجل سجيل . وهو - أى ابن القارح - يعرفُ الحكايةَ أن « مسلمةَ بن عبد الملك » أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله وقال : إنهم أهل صناعة مجفوة . وأحسب أنهم والحرفة خُلِقًا توءمين ، وإنما ينتج بعضهم ذات الزمين ، ثم لا تلبث أن تزَلَّ قدمُه ..

« وإذا كان الأدب على عهد بنى أمية ، يُقصِّدُ أهلُه بالجفوة ، فكيف يسلمون من باس عند مملكة بنى العباس ؟ وإذا أصابتهم الحنُّ في أيام الرشيد ، فكيف يُطمع لهم بالحظ المشيد ؟ أليس أبو عبيدة قدم مع الأصمعي وكلاهما يريد النجعة ، ولا يلتبس إلى البصرة رجعة ، فُثبث بعبد الملك وردُّ معمر ؟ ... ومن بَغَى أن يتكسب بهذا الفن فقد أودع شرايه في شن ، غير ثقة على الوديدة ، بل هى منه فى صاحب خديعة .. » (٤١٠) .

* * *

الرواية :

نقد السند ونقد المتن :

لأبى العلاء فى الغفران عناية خاصة بالرواية واهتمام بنقدها ، وحرص على سلامة المروى عن العرب من العبث والانتحال . فلا تكاد تبدأ الرحلة معه إلى الجنة ، حتى يقدم إليك طريقته المختارة فى الرواية والنقل ، ذلك حين يلقن ابن القارح - فى نزته بالجنة - أن يتمثل بقول البكرى :

ليت شعرى متى تخب بنا النا قة نحو العذيب فالصبيون
مُحِقِبًا زكرة وخيز رقاق وحيافًا ، وقطعة من نون

« فيهتف هاتف : أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر ؟ فيقول الشيخ : نعم ، حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم ، ويتوارثون ذلك ككبراً عن كابر حتى يصلوه بأبى عمرو بن العلاء ، فيرويه لهم عن أشياخ العرب ، حرشة الضياب فى البلاد الكلدات ، وجناة الكمأة فى مغاني البداة ، الذين لم يأكلوا شيراز الألبان ولم يجعلوا الثمر فى الثيان ، أن هذا الشعر ليمون بن قيس بن جندل أخى بنى ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكاية بن صعب ... ابن بكر بن وائل . فيقول الهاتف : أنا ذلك الرجل من الله على بعد ما صرت من جهنم على شفير .. » .

ثم يعرض - بأسلوبه الخاص - موكبًا من الشعراء ، يسألهم فى شعر نسب إليهم مختلفٍ فيه ، فينكرونه .

يقول للنابعة الذيبانى : « فأنشدنا كلمتك التى أولها^(١) :

المَّا على المطورة المتأبدة أقامت بها فى المربع المتجردة
مضمخةً بالمسك ، مخضوبة الشوى بدرُّ وياقوتٍ لها مُتقلدة
(الآيات)

فيقول « أبو أمامة » ما أذكر أنى سلكتُ هذا القرى قط . فيقول مولاى الشيخ - زين الله أيامه ببقائه - : إن ذلك لعجبٌ ، فمن الذى تطوع فنسبها إليك ؟ فيقول : إنها لم تنسب إلى على سبيل التطوع ، ولكن على معنى الغلطِ والتوهم ، ولعلها لرجل من بنى ثعلبة بن سعد . فيقول نابعة بنى جعدة : صحبنى شاب فى الجاهلية ونحن نزيد الحيرة ، فأنشدنى هذه القصيدة لنفسه وذكر أنه من ثعلبة بن عكابة ، وصادف قدومه شكاة من النعمان فلم يصل بها إليه ، - فلعل أحدًا نسبها إلى النابعة - فيقول نابعة بنى ذيبان : ما أجدر ذلك أن يكون ! (٢٠٧) .

« وينثنى إلى أعشى قيس فيقول : يا أبا بصير ، أنشدنا قولك^(٢) :

دارٌ غيرُ محلولة أمسنُ قتلَةَ بالأنقاء

(الآيات)

فيقول : « أعشى قيس » : ما هذه مما صدر عنى ، وإنك منذ اليوم لمولعٌ بالمنحولات .
(٢١١)

وجاء بأبينا آدم عليه السلام ، يسأله - بلسان ابن القارح - عما نسب إليه من شعر
قائلا :

« يا أبانا - صلى الله عليك - قد روى لنا عنك شعرٌ ، منه قولك :

نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليها نعود^(٣)

والسعد لا يقى لأصحابه والنحس تمحوه ليالى السعود

فيقول : إن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعضُ الحكماء ، ولكنى لم أسمع به حتى الساعة . فيقول - وقر الله قيسه من الثواب : فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت ، فقد علمتُ

(١) لم ترد هذه القصيدة فى ديوان النابعة .

(٢) هذه الآيات رويت فى الديوان فى (الشعر الذى أنشده للأعشى وليس فى ديوانه) انظر ط أوربا ص ٢٥٥ .

(٣) الآيات ، مروية فى (مروج الذهب للمسعودى) ج ١ - ٢٢٦ ، وفى ج ٤ ص ٥٥٦ من (خزنة الأدب للبيهدادى) .

أن النسيان متسرع إليك ، وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوة : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ﴾ (١).

« فيقول آدم صلى الله عليه : أبيتُم إلا عقوقاً وأذية ! إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطتُ إلى الأرض نقل لساني إلى السريانية ، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت ، فلما رُدَّني الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت على العربية ، فأى حين نظمت هذا الشعر ؟ في العاجلة أم الآجلة ؟ والذي قال ذلك ، يجب أن يكون قاله وهو في الدارِ الماكرة ، ألا ترى قوله : * منها خَلِقْنَا وإليها نعود * ؟ فكيف أقول هذا المقال ولساني سرياني ؟ وأما الجنة قبل أن أخرج منها ، فلم أكن أدري بالموت فيها ، وأنه مما حُكِم على العباد .. أما بعد رجوعي إليها فلا معنى لقوله : وإليها نعود ، لأنه كذب لا محالة ، ونحن أهل الجنة خالدون مخلدون . فيقول - قضى له بالسعد المؤرب - : إن بعض أهل السير يزعم أن هذا الشعر وجده « يعرب » في متقدم الصحف بالسريانية ، وهذا لا يمتنع أن يكون ..

« وكذلك يروون لك - صلى الله عليك - لما قتل قابيلُ هابيلَ :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

« فيقول آدم ، صلى الله عليه : أعزز على بكم معشرِ أبنائي ، إنكم في الضلالة مُتَهَوِّكُونَ ، آليتُ ما نطقتُ هذا التنظيمَ ولا نطق في عصري ، وإنما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! كذبتُم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ، وكذب بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك إلى الأرض » (٣٦٠ : ٣٦٤) .

ومن حديثه مع امرئ القيس :

« وإنا لنروى لك بيتاً ما هو في كلِّ الروايات (٢) ، وأظنه مصنوعاً لأن فيه ما لم تجرِ عادتك بمثله ، وهو قولك :

وعمر بنُ درماءُ الهمامُ إذا غدا بصارمه يمشي كمشية قسورا

فيقول : أبعد الله الآخرَ ، لقد اخترصَ فما أترصَ ، وإن نسبةً مثل هذا إلى لأعدهُ إحدى الوصمات ، فإن كان من فعله جاهلياً فهو من الذين وجدوا في النار صلياً ، وإن كان من أهل الإسلام فقد خبط في ظلام - وإنما أنكر حذف الماء من « قسورة » ، لأنه ليس بموضع الحذف ، وقلَّ ما يصابُ في أشعار العرب مثل ذلك - فأما قول القائل :

إن ابنَ حارثٍ إن أشتقُ أو أمتدحهُ ، فإن الناس قد علموا

(١) الآية ١١٥ من سورة طه .

(٢) البيت رواه (العقد الثمين) في غير المنحول من شعر « امرئ القيس » وروايته هكذا :
وعمر بن درماء الهمام إذا غدا بذى شطب غضب كمشية قسورا

فليس من هذا النحو، إذ كان التغييرُ إلى الأسماءِ الموضوعية أسرعَ منه إلى الأسماءِ التي هي نكراتٌ، إذ كانت النكرةُ أصلاً في الباب « ٣٢٢ .
 وأنشد أبو العلاء، في القسم الثاني من الغفران، أبياتاً رُويتُ للعلوى البصرى :

قتلتُ الناسَ إشفافاً على نفسى كى تبقى
 وحُزْتُ المالَ بالسيف لكى أنعمَ لا أشقى
 فمن أبصر مشواى فلا يظلم إذا خلقا

... ..

ثم قال : « وأنشدنى بعضهم أبياتاً قافيةً طويلة الوزن ، وقافيتها مثل هذه القافية ، قد نُسيبت إلى « عضد الدولة » وقيل إنه أفاق في بعض الأيام فكتبها على جدار الموضوع الذى كان فيه . وقد نحا بها نحو أبيات البصرى ، وأشهد أنها متكلفة ، وضعها رقيبٌ من القوم ، وأن عضد الدولة ما سمع بها قط » (٤٤٩) .

* * *

وأبو العلاء يحتكم - فى فحص الرواية - إلى القواعد المعتمدة فى نقد السند والتمن ، معتمداً فى السند على ما نقل عن مشهورى الثقات ، وحفظه النادر لدواوين الشعر ، وراجعاً فى نقد المتن ، إلى سلامة الروى ، وإلى خبرته الدقيقة بأساليب الشعراء ، وفقهه لأسرار العربية وحسّه المرهفة لذوقها .

من ذلك قوله لعمرو بن أحرمر فى راعته التى قال فيها : * وجرادتان تغنيانهم * :
 « ولقد وجدتُ فى بعض كتبِ الأغاني صوتاً يقال غنته الجرادتان ، فتفكنتُ لذلك ، والصوت :

أقفرَ من أهله المصيفُ فبطنُ عردة فالغريفُ

- وهذا شعرٌ على قرى : * أقفر من أهله ملحوب * - ومن الذى نقل إلى المغنين فى عصر « هارون » وبعده ، أن هذا الشعر - غنته الجرادتان ؟ إن ذلك لبعيد فى المعقول ، وما أجدره أن يكون مكذوباً ؟ » (٢٤٣) .

وقولك ... ؟

فيقول ابن أحرمر :

أما ذكر « الجرادتين » فلا يدل على أنى خصصتُ به « قيل بن عتر » وإن كان فى الوفد الذى غنته الجرادتان ، لأن العرب صارت تسمى كل قينة جراداً ، حملاً على أن قينة فى الدهر الأولى كانت تدعى جراداً .

* * *

« وكنت بمدينة السلام ، فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافية « عدى بن زيد » التي أولها :

بكر العاذلون في غلس الصبح (م) قولون لى : أما تستفيق ؟

ودعا بالصباح فجراً ، فجاءت قينة في يمينها إبريق

وزعم الوراق أن « ابن حاجب النعمان » سأل عن هذه القصيدة وطُلبت في نسخ من ديوان عدى فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل أستراليا يقرأ هذه القافية في ديوان « العبادى » ولم تكن في النسخة التي في دار العلم « (١٤٦) .

وقال للمرقش الأكبر : « وبعض الناس يروى هذا الشعر لك :

تخيرت من نعمان عوداً أراكه هند ، ولكن من يبلغها هندا

خليلي جوزا بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضيكما قصدا

وقولا لها ليس الضلال أجازنا ولكننا جزنا لتلقاكم عمدا

ولم أجدتها في ديوانك ، فهل ما حكى صحيح عنك ؟

فيقول : لقد قلت أشياء كثيرة ، منها ما نقل إليكم ومنها ما لم ينقل . وقد يجوز أن أكون قلت هذه الأبيات ولكنى سرفتها لطول الأبد ، ولعلك تنكر أنها في « هند » وأن صاحبتي « أسماء » ، فلا تنفر من ذلك ، فقد ينتقل المشبب من الاسم إلى الاسم ، ويكون في بعض عمره مستهتراً بشخص من الناس ثم ينصرف إلى شخص آخر . ألا تسمع إلى قولى :

سفة تذكره « خويلة » بعدما حالت ذراً نجران دون لقائها

(٣٥٧)

وأنشد :

هى الخمر تُكنى الطلاء كما الذئب يُكنى أبا جعدة

وقال : « وهذا البيت ^(١) يروى ناقصاً كما علم ، وهو ينسب إلى عبيد بن الأبرص ، وربما وُجد في النسخة من ديوانه وليس في كل النسخ ، والذي أذهب إليه أن هذا البيت قيل في الإسلام ، بعدما حرمت الخمر » (٥١٣) .

ويقول لمهلل بن ربيعة التغلبي :

« فأخبرني عن هذا البيت الذى يُروى لك :

أرعدوا ساعة الهياج وأبرقنا كما تواعد الفحول الفحولا

فإن الأصمعى كان ينكره ويقول إنه مؤلّد ، وكان أبو زيد يستشهد به ويثبته . فيقول : طأل الأبد على بُد ، لقد نسيت ما قلت في الدار الفانية ، فما الذى أنكر منه ؟ فيقول : زعم

(١) ذكرنا المحاولات لإكمال هذا البيت ، على هامش نسختنا المحققة ص ٥١٣ (ط ثامنة ذخائر) .

الأصمعي أنه لا يقال أُرعد وأُبرق في الوعيد ولا في السحاب ، فيقول : إن ذلك لخطأ من القول ، وإن هذا البيت لم يقله إلا رجلٌ من جِذَمِ الفصاحة : إِمَّا أَنَا وَإِذَا سِوَايَ ، فخذ به وأعرض عن قول السفهاء « (٣٥٤) .

وذكر شعراً « لطيفاً » ، وترحم عليه : ثم قال : « وإنما أطلقت الترحم على طفيل ، إذ كان بعض الرواة يزعم أنه أدرك الإسلام ، ورُوِيَ له مدحٌ في النبي ﷺ ، ولم أسمع في ديوانه « (٥٤١) .

ويسأل تَأَبَّطَ شراً : « نُقِلَتْ إِلَيْنَا آيَاتٌ تُنْسَبُ إِلَيْكَ :

أنا الذي نَكَحَّ الْغَيْلَانَ فِي بَلَدٍ ما طَلَّ فِيهَا سِمْكِيٌّ وَلَا جَادَا
فِي حَيْثُ لَا يَغْمِتُ الْغَادِي عَمَائِهِ وَلَا الظَّلِيمُ بِهِ يَغِي تَهَبَّادَا

(الآيات)

.. فاستدللت على أنها لك : لما قلت : تَهَبَّادَا ، مصدرٌ تَهَبَّدَ الظَّالِمُ إِذَا أَكَلَ الْهَبِيدَ ، فقلتُ : هذا مثلهُ قوله في القافية :

طيفُ ابنةِ الحرِّ إِذْ كُنَّا نُوَاصِلُهَا ثُمَّ اجْتُنِنْتُ بِهَا بَعْدَ التَّفْرِاقِ
مصدرٌ تفرقوا تَفَرَّقَا ، وهذا مُطَرِّدٌ فِي تَفَعَّلَ ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلاً فِي الشَّعْرِ كَمَا قَالَ « أَبُو زَيْدٍ » :
فثار الزاجرون فزاد منهم تَقَرَّبَا وَصَادَفَهُ ضَبَّيْسُ

(٣٦٠)

ومن حديثه مع « طرفة » :

« يا ابن أخي يا طرفة ، خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكَ ! أَتَذَكَّرُ قَوْلَكَ .. وَقَوْلَكَ :

مَتَى تَأْتِنِي أَصْبَحْتُكَ كَأَسَا رُوِيَّةً وَإِنْ كُنْتُ عَنْهَا غَانِيًا فَاغْنِ وَأَزِدْ

.. وهذا البيت يُتَنَازَعُ فِيهِ ، فَيُنَسَبُ إِلَيْكَ قَوْمٌ ، وَيُنَسَبُ آخَرُونَ إِلَى عَدِي بْنِ زَيْدٍ ، وَهُوَ بِكَلَامِكَ أَشْبَهَ « (٣٣٤) .

« وَيَلْتَفِتُ - فِي الْجَنَّةِ - فَإِذَا هُوَ بِجِرَانَ الْعُودِ النَّمِيرِي ، فَيَحْيِيهِ وَيَرْحَبُ بِهِ ، وَيَقُولُ لِبَعْضِ الْقِيَانِ : أَسْمِعِنَا قَوْلَ هَذَا الْمُحْسَنِ :

حَمَلَنَ جِرَانَ الْعُودِ حَتَّى وَضَعْنَهُ بِعِلْيَاءَ فِي أَرْجَائِهَا الْجَنُّ تُعْرِفُ

... ..

وَقَلَنْ : تَمَتَّعَ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ غَدًا أَوْ مُسَيِّفٌ

وهذا البيتُ يروى لسحيم ، فتصيب تلك القينةُ وتجد ، فإذا عَجِبَت الجماعةُ من إحسانها وإصابتها قالت : أتدرون مَنْ أنا ؟ فيقولون : لا واللهُ المحمود . فتقول : أنا أمُّ عمرو ، التي يقول فيها القائل (١) :

تصدُّ الكأسَ عنا أمُّ عمرو وكان الكأسُ مجراها اليميناً
وما شرُّ الثلاثةُ أمُّ عمرو بصاحبك الذي لا تصيحينا

فيزدادون بها عجباً ولها إكراماً ويقولون : لمن هذا الشعر ؟ ألعمر بن عدى اللخمي ، أم لعمرو بن كلثوم النخلي ؟ فتقول : أنا شهدتُ ندماني جذيمة ، مالكاً وعقبلاً ، وصبحتهما الخمر المشعشة لماً وجدا عمرو بن عدى ، فكنْتُ أصرِف الكأسَ عنه ، فقال هذين البيتين . فلعل عمرو بن كلثوم حَسَنَ بهما كلامه واستزادها في أبياته « (٢٧٧) .

« ويلفِتُ عنقه يتأمل فإذا هو بأوس بن حجر ، فيقول : يا أوسُ . إن أصحابك لا يجيبون السائل ، فهل لي عندك من جواب ؟ فإني أريد أن أسألك عن هذا البيت : وفارقتُ وهي لم تجربْ وباع لها من الفصافص ، بالنمى سفسيرُ فإنه في قصيدتك التي أولها :

هل عاجلٌ من متاع الحى منظور أم بيت دومة بعد الوصل مهجورُ
ويروى في قصيدة النابغة التي أولها :
ودَّعُ أمانةً والتوديعُ تعذيرُ وما ودَّعَكَ من قفتُ به العيرُ ؟

... ..
وكلاهما معدود في الفحول ، فعلى أى شىء يُحمَل ذلك ؟ .. فيقول أوس : قد بلغنى أنَّ نابغة بنى ذبيان في الجنة ، فأسأله عما بدا لك فلعله يخبرك ، فإنه أجدر بأن يعي هذه الأشياء « (٣٣٩) .

وقريب من هذا ، توقفه في الحكم بين « القطامي » و « حميد بن ثور » ، في شعر متشابه لهما ، وهما من عصر واحد : (٢٦٣ - ٢٦٥) .

* * *

الاستشهاد :

الحديث عن الرواية ، يتصل به من قرب الحديث عن الاستشهاد . و « أبو العلاء » مرهف الحس لآفاته : أشار مرةً إلى ضعة بعض من يُستشهد بكلامهم ، وأشار أخرى إلى ما قد يداخل الاستشهاد من عناصر زائفة ليست من العلم ولا من الأدب ، كالخوف والمداراة .

(١) البيتان رواهما « التبريزي » في معلقة عمرو بن كلثوم (٢١١) ، ورواهما المرزبانى فى (معجمه) منسويين لعمرو بن عدى على رواية « المفضل » . وبهامشه حاشية من الناشر : البيتان يرويان فى قصيدة لعمرو بن كلثوم - انظر ص ٢٠٥ من معجم الشعراء للمرزبانى .

يمرُّ بابن القارح في جنة الرجز .

« ويعرض له رؤيَّة ، فيقول : يا أبا الجحَّاف ، ما كان أكلفك بقوافٍ ليست بالمعجبة ! تصنع رجزاً على الغين ، ورجزاً على الطاء ، وعلى غير ذلك من الحروف النافرة ! ولم تكن صاحبَ مثلٍ مذكور ، ولا لفظ يُستحسن عذب ! فيغضب رؤيَّة ويقول : ألى تقول هذا وعنى أخذ « الخليل » وكذلك أبو عمرو بن العلاء ؟ وقد غيرت في الدار السالفة تفتخرُ باللفظة تقع إليك مما نقله أولئك عنى وعن أشباهي ؟ « فإذا رأى - لا زال خصمه مُغلباً - ما فى رؤيَّة من الانتخاء قال : لو سبَّك رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدةً مستحسنة . ولقد بلغنى أن « أبا مسلم » كلمك بكلام فيه (ابن تآداء) فلم تعرفها حتى سألت عنها بالحقى . ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق ، وإن غيرك أولى بالأعطية والصلوات . فيقول رؤيَّة : أليس رئيسكم فى القديم ، والذى ضهلَّت إليه المقائيسُ ، كان يستشهد بقولى ويجعلنى له كالإمام ؟ فيقول - وهو بالقول مُنطق - : لا فخر لك أن استشهد بكلامك ، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمةٍ وكعاء .. وكم روى النحاة عن طفلٍ ، ما له فى الأدب من كفل ، وعن امرأةٍ لم تُعد يوماً فى الدرأة » (٣٧٤ : ٣٧٧) .

« وذكر من نقل عن « بشار » أنه توعدَّ « سيبويه » بالهجاء ، وأنه تلافاه واستشهد بشعره ، ويجوز أن يكون استشهاده على نحو ما يتذاكره المتذاكرون فى المجالس ومجامع القوم .

وأصحاب بشار يروون له هذا البيت :

وما كلُّ ذى لبٍّ بمؤتيك نصحه ولا كلُّ مؤتٍ نصحه بليبي

وفى (كتاب سيبويه) نصفُ هذا البيت الآخر ، وهو فى باب الإدغام لم يُسمِّ قائله . وزعم غيره أنه لأبى الأسود الدؤلى » (٤٣١) .

* * *

اجتماع مؤلِّفين على كتاب :

واستغرب « أبو العلاء » - فى رسالة الغفران - أن يجتمع اثنان على تأليف كتاب واحد لا ينفرد أحدهما بشيء دون صاحبه ، وسبب تعرضه لذلك أن « ابن القارح » ذكر له فى (رسالته) إليه ، أن لِقَطْرُبَيْلٍ وابن أبى الأزهر كتاباً فى المتنبي اجتماعاً على تأليفه . فكان مما أجاب به أبو العلاء :

« وأما القَطْرُبَيْلُ وابن أبى الأزهر ، فمن الزَّوَلِ اجتماعهما على تأليف كتاب ، وقلَّ ما يُعرف مثلُ ذلك . ونحو منه قصة « الخالدين » اللذين كانا فى الموصل ، وهما شاعران ، وقد كانا عند « سيف الدولة » وانصرفا على حدِّ مُغاضبةٍ ، ولهما ديوانٌ ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلا فى أشياء قليلة ، وهذا متعذرٌ فى ولد آدم ، إذ كانت الجبلة على الخلاف

وقلة الموافقة . فأما أن يعمل الرجل شيئاً من كتاب ثم يتمه الآخرُ ، فهو أسوئُ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان . والبغداديون يحكون أن «أبا سعيد السيرافي» عمل في كتابه المعروف (بالمقنع أو الإقناع) ، إلى باب التصغير ، ثم توفي وأتمه بعده ولده «أبو محمد» . وقد يجوز مثل هذا ، ليس عندهم فيه ريبٌ . وحكى لي الثقة أن «أبا علي الفارسي» كان يذكر أن «أبا بكر بن السراج» عمل من (الموجز) النصف الأول لرجل بزّاز ، ثم تقدم إلى «أبي علي» بإتمامه . وهذا لا يقال إنه من إنشاء أبي علي ، لأن الموضوع من الموجز ، هو منقول من كلام ابن السراج - في (الأصول) وفي (الجميل) - فكأن أبا علي جاء به على سبيل النسخ ، لأنه ابتدع شيئاً من عنده « (٤٢٤ - ٤٢٥) .

* * *

النساء والشعر :

لم ينس «أبو العلاء» الشاعرة «الخنساء» - رضى الله عنها - في جنته ، على أنه لم يُظهرها في مجالس المذاكرة والمنادمة ، ولا في الوليمة الحافلة الفاخرة التي أقامها بالجنة ، وإنما اختار لها موقفاً أليماً : يمضى لابن القارح ، « فإذا هو بامرأة في أقصى الجنة قريبة من المطمع إلى النار ، فيقول : من أنتِ ؟ فتقول : أنا الخنساء السلمية ، أحببتُ أن أنظر إلى صخر ، فأطلعتُ فرأيتُه كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه . فقال لي : لقد صح مزعمك في ، يعني قولي :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار

على أنه عاد - قبيل انتهاء رده على ابن القارح - فشهد للنساء ، وبخاصة نساء حلب الشواعر ، بأنهن ، غالباً أجود غرائز من رجالهن في الشعر . قال في سياق الحديث عن بنت أخت لابن القارح ، ذكر أنها سرقت دنائير له : « .. ويجوز أن يكون قد وشح إلى هذه المرأة شيء من أدب الختولة ، فليتقِ معرفة بيانها ، أكثر من اتقائه خلصة بنائها ، فهو يعلم أن الشعر ورثه « زهير بن أبي سلمى » من خاله « بشامة بن الغدير » ، ولك يكن في « مزينة » شعراً يذكر ، وحضره زهير عند الوفاة فأراد أن يعطيه شيئاً من ماله فقال بشامة : أما يكفيك أني ورثتك غرائب القصيد ؟ وربما كان في نساء « حلب » - حرسها الله - شواعر ، فلا يأمن - ابن القارح - من أن تكون هذه منهن ، فطالما كن أجود غرائز من رجالهن . وحدث رجلٌ ضرير من أهل « آمد » يحفظ القرآن ويأنس بأشياء من العلم : أنه كان وهو شاب ، له امرأة مقينة تزين النساء في الأعراس ، وكان يُنجم على الطريق .. وكان يعتمد حفظ تلك الأشعار ويدرسها في بيته ، ولا غريزة له في معرفة الأوزان ، فيكسر البيت ، فتقول له امرأته الماشطة : ويلي ، ما هذا جيد . فيلاجهها ويزعم أنها مخطئة . فإذا أصبح مضى فسأل من يعرف ذلك ، فأخبره أن الصواب معها ، وعرفه كيف يجب أن يكون . فإذا لقنه عنه ، عاد في الليلة الثانية

فذكره وقد أُصْلِحَ ، فتقول الماشطة : هذا الساعةَ جيّدٌ . وكان لي كرىٌ من أهل البادية يُعرف بعلوان ، وله امرأة تزعم أنها من طيّ ، فكان لا يعرف موزون الأبيات من غيره . وكانت المرأة تحس بذلك ، وكانت تتأسف على طفل مات لها يقال له رجب ، وكانت تنشد هذا البيت :

إذا كنتَ من جرّاً حبيك موجعاً فلا بد يوماً من فراق حبيب
فقلت يوماً :

* إذا كنت من جرّاً رُجيبٍ مُوجعاً *
فعلمتُ أن الوزن مختل ، فقلت :

* إذا كنت من جرّاً رُجيبين موجعاً *
فحركت التوين ، وأنكرت تحريكه بالطبع ، فقلت :

* إذا كنت من جرّاً رُجيبك موجعاً *
فأضافته إلى الكاف ، فاستقام الوزن واللفظ « (٥٨٠) .

* * *

أحكام أدبية مفردة :

بقيت أحكام أدبية مفردة لأبي العلاء في الغفران ، نعرض هنا مثلاً منها ، شاهداً لما تتسم به غالباً من دقة وآنزان ، وما تدل عليه من فطنة ولطف حسّ وذوق :

قال على لسان « الجعدي » ينافر « الأعشى » :

« أغرك أن عدك بعضُ الجهال رابعُ الشعراء الأربعة ؟ وكذب مفضلُك ! وإنني لأطولُ منك وأكثرُ تصرفاً . ولقد بلغتُ بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبلي ..

فيجيب أبو بصير : أتقول هذا وإن بيتاً مما بنيتُ ليعدلُ بمائةٍ من بنائك ؟ وإن أسهبتُ في منطلقك فإن المسهبَ كحاطبِ الليل « (٢٢٩) .

وقال عن « ابن الرومي » : « وأما ابن الرومي فهو أحد من يقال - فيهم - : إن أدبه كان أكثر من عقله « (٤٧٦) .

وقال عن « أبي تمام » : « كان صاحب طريقة مبتدعة » .

وقال عن « المتنبي » حين أنكر « ابن القارح » تحقيره لأهل زمانه - وفيهم سيف الدولة الحمداني ولي نعمته - بدمهم وتصغيرهم :

« فأما ما ذكره من قول أبي الطيب :

« أذم إلى هذا الزمان أهيله » (١)

(١) تمام هذا البيت ، والأبيات بعده على هامش نسختنا من رسالة الغفران ، ذخائر مع التعريف بالقصائد .

فقد كان الرجلُ مولعًا بالتصغير ، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير كقوله :
من لى بفهم أهيلٍ عصرٍ يدعى أن يُحسبَ الهندى فيهم باقلُ

وقوله : * حَيِّتْنَا قَلْبِي فَوَادِي هِيَ جُمْلٌ *

وقوله : * مَقَالِي لِلأَحْمِقِ يَا حَلِيمٌ *

* وَنَامَ الخَوِيدُ عَن لَيْلِنَا *

* أَمَى كُلُّ يَوْمٍ تَحْتِ ضَيْبِي شُويعِرٌ (١)

وغير ذلك مما هو موجود فى ديوانه ، ولا ملامة عليه ، إنما هى عادةٌ صارت كالطبع ..
ولكنها تُغتفر مع المحاسن « (٤١٥) .

وقال لطفة : « لو لم يكن لك أثرٌ فى العاجلة إلا قصيدتك التى على الدال .. لكنت قد
أبقيت أثرًا حسنًا » (٣٣٩) .

وقال لأبى كبير الهدلى : « إنك لمن أعلام هذيل ، ولكنى لم أؤثر قولك :

* أَزْهَيْرُ هَلْ عَن شَيْبَةٍ مِّنْ مَّعْدِلٍ *

وقلت فى الأخرى : * أَزْهِيرُ هَلْ عَن شَيْبَةٍ مِّنْ مَّصْرَفٍ *

وقلت فى الثالثة : * أَزْهِيرُ هَلْ عَن شَيْبَةٍ مِّنْ مَّعْكَمِ *

فهذا يدل على ضيق عَطَنِكَ بالقريض ، فهلا ابتدأت كلَّ قصيدة بفن ؟ » .
ويقول للمرقش الأكبر :

« وإن قومًا من أهل الإسلام كانوا يستزرون بقصيدتك الميمية التى أولها :

هل بالديار أن تجيب صَمَمٌ لو كان حيًا ناطقًا كلَّمُ

وإنها عندى لمن المفردات . وكان بعضُ الأدباء يرى أنها والميمية التى قالها المرقش الأصغر
ناقصتان عن (القصائد المفضليات) ، ولقد وهب صاحبُ هذه المقالة « (٣٥٦) .

* * *

وقال - بلسان ابن القارح - لعدى بن زيد ، بعد أن أنشد صاديته :

أبلغ خليلي عبدَ هندٍ فلا زلتَ قريبًا من سوادِ الخُصوصِ

« أحسنت أحسنت ، لو كنت الماءُ الراكد لما أسنت . وقد عمل أديبٌ من أدباء الإسلام

قصيدة على هذا الوزن ، وهو المعروف ، بأبى بكر بن دريد ، قال :

يسعدُ ذو الجدِّ ويشقى الحريصُ ليس لخلقٍ من قضاءٍ مَحِيصُ

... ..
إلا أنك يا أبا سوادهٍ أحرزتَ فضيلةَ السبقِ » (١٨٦ - ١٩٠) .

* * *

(١) تمامها على هامش النص : ص ٤١٥ ، ط ذخائر .

وقال للنابغة الذبياني على لسان ابن القارح : « يا أبا أمامة ، إنك لحصيفُ الرأى لبيب ، فكيف حسنٌ لك لُبُّكَ أن تقول للنعمان بن المنذر :

زعمَ الهمام بأن فاما باردٌ عذبٌ إذا ما ذقته قلتَ ازددِ
زعم الهمام - ولم أذقه - بأنه يُشفي ببردٍ لثاتها العطشُ الصلبي

» ثم استمر بك القول حتى أنكروه عليك خاصة وعمامة ؟ فيقول النابغة بذكاء وفهم : لقد ظلمنى من عاب على ، ولو أنصفَ لعلم أننى احتزرتُ أشدَّ احتراز ، وذلك أن « النعمان » كان مستهتراً بتلك المرأة ، فأمرنى أن أذكرها فى شعري ، فأدرت ذلك فى خلدى فقلت : إن وصفتها وصفاً مطلقاً ، جاز أن يكونَ بغيرها معلقاً ، وخشيتُ أن أذكر اسمها فى النظم فلا يكون ذلك موافقاً للملك ، لأن الملوك يأفون من تسمية نساءهم ، فرأيتُ أن أسند الصفة إليه فأقول : زعم الهمام ، إذ كنتُ لو تركتُ ذكره لظنَّ السامع أن صفتى على المشاهدة . والأبيات التى جاءت بعدُ ، داخلَةٌ فى وصف الهمام ، فمن تأملَ المعنى وجده غير مختل . ثم يسأل النابغة :

« وكيف يُنشدون : « وإذا نظرت رأيت أقرمه وما بعده ؟ فيقول - أرغم الله أنف شائته - يُنشد : وإذا نظرت ، وإذا لمست ، وإذا طعنت ، وإذا نزعْتَ ، على الخطاب . فيقول « النابغة » : قد يسوغ هذا ولكن الأجودُ أن تجعلوه إخباراً عن المتكلم ، لأن قولى « زعم الهمام » يؤدى معنى قولنا : « قال الهمام » فهذا أسلم ، إذ كان الملك يحكى عن نفسه ، وإذا جعلتموه على الخطاب قُبْح : إن نسبتموه إلى فهو مُنْذِيَةٌ ، وإن نسبتموه إلى النعمان فهو إزراء وتنقص . فيقول - أيد الله الفضل بزيادة مدته - : لله دَرَكٌ يا كوكبَ بنى مرة . ولقد صحَّف عليك أهلُ العلم من الرواة ! فمن لى بأبوى عمرو : المازنى والشيبانى ، وأبى عبيدة وعبد الملك ، وغيرهم من النقلة لأسألم : كيف يروون ؟ وأنت شاهد ، لتعلم أنى غيرُ المتخرَّص ولا الولأغ ؟ فلا يقر هذا القول فى خُدنةِ أبى أمامة إلا والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر من غير مشقة نالتهم ، ولا كلفة فى ذلك أصابتهم .. فيقول : كيف تروون أياها المرحومون قولَ النابغة فى الدالية : وإذا نظرت ، وإذا لمست ، وإذا طعنت ، وإذا نزعْتَ : أبتفتح التاء أم بضمها ؟ فيقولون : بفتحها . فيقول : هذا شيخنا أبو أمامة يختار الضم ، ويخبر أنه حكاه عن النعمان . فيقولون : هو كما جاء فى الكتاب الكريم : ﴿ والأمرُ إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾^(١) (٢٠١) . من آية ١٤ : المؤمنون .

وذكر القرآن الكريم ، فسقَه من حاول الكلام فى نظمه ، وقال فى إعجازه : « وأجمع ملحدٌ ومهتدي ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا (الكتاب) الذى جاء به محمد ﷺ ،

(١) من آية ٣٣ : النمل .

كتاب بهر بالإعجاز ولقى عدوه بالإرجاز . ما حُدِي على مثال ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز من سهل وحزون . ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ذوى الأرب.. لو فهمه العَضْبُ الراكد لتصدع، ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾^(١) وإن الآية منه أو بعض الآية لتعرض فى أفصح كَلِم يقدر عليه المخلوق فتكون فيه كالشهاب المتلألئ فى جُنح غَسَقٍ.. ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾^(٢) .

* * *

نتهى من هذا العرض السريع للمسائل اللغوية والأدبية وقضايا النقد والرواية فى الغفران ، قَدِمْتُ « أبا العلاء » : حافظًا واثقًا من حفظه ، عالمًا بأسرار العربية ، مطمئنًا إلى علمه ، فقيهاً بأساليب الشعراء ، حريصًا على سلامة الرواية ، يمتحن المروى فى دقة ، ويعرضه على الضوابط المقررة لنقد السند والمتن ، ساخطًا على تأول المتأولين وتكلف المتكلفين .

ونتهى من هذا العرض ، وفى سمعنا صوت « أبى العلاء » يقول فى ثقة واطمئنان :

- هذا ، لم يحكه مشهور من الثقات .
 - ولم تأت التلبية بالقصيد .
 - تأول من أصحابنا وادعاء .
 - ما قلت ذلك ولا غيرى من العرب .
 - لم يقله إلا رجل من جذم الفصاحة .
 - وأشهد أنها متكلفة ، وضعها رقيق من القوم .
 - الأمر أيسر مما ظن هذا المتكلف .
 - وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب .
 - وقل ما يصاب فى أشعار العرب مثل ذلك .
 - إن ذلك لبعيد فى المعقول ، وما أجدره أن يكون مكذوبًا :
 - ولم يأت مثل هذا فى شعر فصيح .
 - وأصحاب العربية مجمعون على كراهة ذلك .
 - هذا الوجه الذى ذكره أبو سعيد ، شر من إقواء عشر مرات فى القصيدة الواحدة .
- وفيما نقلنا من نص الغفران ، ما يكفى لمعرفة أسلوبه فى العرض ، وطريقته فى الأداء ، وأن لنا أن نوسع أفق البحث ، فتجاوز حدود (رسالة الغفران) إلى الميدان الأدبى العام ، لننظر أين مكانها فيه ؟

* * *

(١) من آية ٢١ : الحشر.

(٢) من آية ١٤ : المؤمنون.